

مجلة ثقافية علمية أدبية شهرية تصدر عن جامعة دمشق

الاشتراكات:

ستة آلاف ليرة سورية للاشتراكات الفردية داخل سورية .

عشرون ألف ليرة سورية للإدارات والمؤسسات داخل سورية وأربعمائة دولار أو مايعادلها خارج سورية .

سعر النسخة:



ليرة سورية داخل سورية .

التنفيذ: مطبعة جامعة دمشق

ترحب مجلة الأدب العلمي بكافة المقالات والأبحاث والإبداع العلمي الأدبي للباحثين والأكاديميين في جامعة دمشق والجامعات السورية وأقطار الوطن العربي على العنوان:

E-mail:
talebomran@yahoo.com
scientificliterature2014@yahoo.com

موقع المجلة: /damasuniv.edu.sy/mag/sci
www.facebook.com/Science. Liter. mag/



محتويات العدد

دراسات وأبحاث



التراث الحضاري

مجلة ثقافية علمية أدبية شهرية تصدر عن جامعة دمشق

ظواهر وخفايا





بيئة المستقبل

ملف الإبداع

كتاب الشهر

تحت المجهر

ترجو مجلة الأدب العلمي من كافة الكتاب والمبدعين، إرسال إبداعاتهم منضدة على الحاسوب ومدققة وموثقة بالمصادر والمراجع، وإن كانت مترجمة فيجب ذكر المصدر وتاريخ النشر.

ذلك الانفجار المجهول

رئيس التحرير

تزداد المكتشفات العلمية يوماً بعد يوم، وتزداد آفاق العقل، اتساعاً في التعرّف على الكون، بدءاً من الذرّة الصغيرة حتى عناقيد المجرّات الضخمة.

في صباح الثلاثين من حزيران عام 1908 حدث انفجار ضخم في وسط سيبيريا قرب نهر (بودكامينا تونغوسكا) قرب بحيرة بايكال.

سمع هذا الانفجار وشعر به الناس ضمن دائرة قطرها 800 كيلو متر. وكان قوياً لدرجة أثّرت على أجهزة السمع عند الناس للحظات.

وقد سجلت جميع مراكز الرصد الزلزالي في العالم حدوث هزّات متكرّرة بقوّة مجهولة أثناء وبعد الانفجار وغطّت سحبٌ عملاقة السماءَ، كما هطلت أمطار سوداء. وفي مكان قريب شُوهد توهّج الشمس أثناء الانفجار ببريق شديد.

وفي منطقة (هايدل بيرغ) التي لم يكن الفجر فيها قد ظهر بعد أصبحت السماء ساطعة.

وفي لندن تساءل الناس عن سبب ظهور السحب السوداء في السماء الزرقاء الصافية.

لم تكن الظروف مهيّأة في ذلك الحين لدراسة ما حدث. وأسبابه، ومنشؤه والحضور إلى المنطقة لدراسة الوضع على الطبيعة. فلم تكن سلطات روسيا القيصرية في ذلك الحين تلقي بالاً لمثل هذه الأحداث.

فالسفر إلى تلك المناطق كان يشكّل مخاطرة كبيرة بحدّ ذاته، ورغم الضجة التي أحدثها الانفجار على صعيد الإعلام. وعلى بعد آلاف الكيلومترات من الحادث، فلم يغامر باحث منقّب في الحضور إلى المنطقة لدراسة الوقائع واستجلاء أسباب حدوثها.

ولكن شيئاً آخر دفع السوفييت عام 1921 للتفكير فعلاً بدراسة انفجار التايغا، إذ إن الأمريكيين قد حاولوا استخلاص كميات من الحديد من نيزك اريزونا، ولذلك فكّرت السلطات السوفييتية، وقد اعتقدت أن سبب الانفجار يعود لاصطدام نيزك بالأرض، فكّرت بدراسة ذلك النيزك المجهول ومحاولة استخلاص الحديد منه.

كان الاعتقاد السائد أن انفجار التايغا يعود لاصطدام مذنّب بالأرض. وهكذا اتّجه العالم الشاب (ليونيد كوليك) لدراسة أسباب هذا الانفجار ولدراسة النيزك المفترض والتحرّي عنه. وقام بتجميع كلّ ما قيل عنه لحظة الانفجار.

إنه وفق مشاهدات الناس، جسم لامع ببريق شديد، تحرّك على مدى عشر دقائق في الجو وهو يسقط ببطء، كان شكله يشبه شكل الأنبوب اللامع.

بعض الناس أكّد على النيران التي كانت تنطلق منه وقال آخرون: إن انفجارات عديدة سبقت ظهور النيران، والجسم يطير من الشمال إلى الجنوب.

وأكّد أحد الخبراء في ذلك الحين أن تأثيرات الانفجار كان يمكن ملاحظتها ضمن مسافة كبيرة تزيد على عشرات ألوف الكيلومترات المربّعة ولكن هل تفعل النيازك ذلك؟ ما أسرار هذه الأجسام الجوّالة في الكون؟

قام (كوليك) بعدّة رحلات إلى المنطقة وقابل العديد من الناس الذين مازالوا أحياء رغم مرور زمن على الانفجار زاد في ذلك الحين عن العشرين عاماً.

شاهدت كرة نارية كانت تشغل حيّزاً كبيراً من السماء وبعد ذلك عمّ الظلام، وألقت بي الموجة الهوائية على الأرض إنها كلمات أحد أبناء المنطقة.

وهذا ما دعا «كوليك» للحركة المركّزة من الدائرة البعيدة حتى مكان الانفجار، حيث صادف غابات مهشّمة وأشجاراً مقلوعة من جذورها، وبالقرب من المكان المحدّد كان الدمار شاملاً.

غابات متفحّمة، ودمار ورماد على امتداد مئات الكيلومترات المربّعة ولكن لا أثر لفوهة

ذلك الانفجار المجهول

نيزكية هائلة، ولا بقايا صخور سوداء. إذن، هناك شكٌّ كبير مقرون بالأدلّة أن ما حدث لم يكن اصطداماً نيزكياً بالأرض.

وأشار ذلك الجدل، واحتاج الأمر للقيام بدراسات مكثّفة أخرى. وضعت فرضية جديدة تقول: لماذا لا يكون الانفجار من فعل جزء من مذنّب اصطدم بالأرض؟ إنه مذنّب غازي قطع الفضاء متّجهاً نحو الأرض ليُحدث تلك الآثار.

وبعد ربع قرن خرج الدارسون بنتيجة جديدة تؤكّد أن الظواهر الجويّة التي رافقت الانفجار مثل البريق والحرارة الهائلة وموجات الصدمة واهتزاز الأرض، قد نتجت عن ذيل أحد المذنبات الكبيرة اصطدم بالأرض بقوّة هائلة ليحدث تلك الآثار.

ولكن المنطق العلمي، قد يرفض ما خرج عن حدوده، فلن يشاهد سكان الأرض مذنّباً في ذلك الحين، إذا كان سبب الانفجار يعود لاصطدام ذيل مذنّب بالأرض.

ثم إن الانفجار حدث فوق الأرض على ارتفاع معين فلِمَ لا يكون جسماً طائراً مجهول الهوية؟ ونحن لم نسبر غور الحياة في العوالم المحيطة بنا بعد؟

لِمَ لا يكون طبقاً طائراً صنعته كائنات عاقلة من خارج عالمنا، حدث له ما أشعل فيه النار وفجّره. ليحدث تلك الآثار التدميرية الهائلة؟

وهل نحن وحيدون في الكون؟ بالطبع المنطق العلمي يؤكّد أن الحياة العاقلة خارج الأرض ليست مستبعدة.

بعد سبعين عاماً من انفجار التايغا، لحظ «كازانتسيف» أحد العلماء الدارسين، أوجه الشبه بين الآثار التدميرية التي تركتها القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما. وبين الآثار التدميرية لانفجار التايغا.

ما بيّنه «كازانتسيف» يؤكّد أن تلك الأشجار العارية الواقفة في مركز الانفجار (التونغي) الشبيهة بأعمدة الهاتف تماثل تلك الأشجار في هيروشيما التي كانت

تبعد عن مركز انفجار القنبلة الذرّية التي ألقيت عليها بضع مئات من الأمتار.

ارتفع في انفجار التونغا عمود أسود من الدخان الأسود وسقط مطراً أسود أيضاً، كما حدث العمود الدخاني نفسه والمطر الأسود في انفجار قنبلة هيروشيما. وفي بداية القرن لم تكن القنبلة الذريّة معروفة، فالانفجار لا يمكن أن يكون أرضياً.

إنها سفينة فضائية غير أرضية تسير بالطاقة النووية حدثت لها أعطال وهي تخترق غلاف الأرض، أدّت هذه الأعطال إلى انفجارها، لماذا لا تكون هذه الفرضية هي الممكنة أو الأكثر احتمالاً أيضاً؟

أجمعت جميع البعثات التي درست موقع الانفجار إنه حدث على ارتفاع بين ثلاثة وخمسة كيلومترات عن سطح الأرض الأمر الذي يستبعد حدوث انفجار أحد المذنّبات، أو سقوط أحد النيازك.

كما أكدت الدراسات أن ارتفاع عمود الدخان الناتج عن الانفجار وصل إلى 20 كيلومتر. وارتفاع عمود الدخان في هيروشيما كان بين (12 و15) كيلو متر، إضافة للتشابه في حدوث الزلازل في المنطقتين بشكل متقارب.

والنيازك لا تُحدث تغيّراً في الحقل المغناطيسي عند اصطدامها بالأرض، بينما أحدث انفجار تونغوسكا مثل هذه التغيّرات.

لقد قام الجسم التونغي برسم قوس دائري بطول 600 كيلو متر، أي أنه كان يناور، وهذا بالطبع يدفع للاعتقاد بأنه جسم صناعي متطوّر، طار في الجو وسقط في المنطقة بسرعة 700 متر في الثانية.

وكلّما ازدادت الدراسات كلّما ازداد الاقتناع بأن الانفجار نتج عن سفينة فضائية مرسلة من كوكب آخر، شاء لها سوء حظّها أن تتعطّل وهي تخترق غلاف الأرض، ثم لتنفجر مُحدثه تلك الآثار التدميرية الهائلة.

إنها تؤكّد على أن الإنسان ليس وحيداً في الكون.



بعض مقوّمات أدب الخيال العلمي

د. ريما الدياب

لعب الخيال العلمي دوراً مهمّاً في تطوّر العلم واكتشاف قوانين الطبيعة، وقد حاول الكتّاب وأدباء الخيال العلمي استشراف آفاق المستقبل المجهولة وعوالمه الغامضة التي كانت للوهلة الأولى مضادّة لحقائق العلم الظاهرة، فلو نظرنا للعديد من مخترعات العصر وعلومه الحديثة مثل زراعة الأعضاء البشرية، والهندسة الوراثية، والعلاج الجيني، الاستنساخ، فهذه الاكتشافات والاختراعات العلمية كانت خيالات تداعب أذهان الأدباء والعلماء، فالخيال العلمي يحثُّ العلم والعلماء على مواصلة أعمالهم وإنجازاتهم لخدمة البشرية.

يعدُ الخيال العلمي من بين علوم الحاضر والمستقبل المهمّة، وقد شهدت الدول المتقدّمة اهتماماً وانتشاراً علمياً، ولم يشهد عالمنا العربي اهتماماً مماثلاً للدول المتقدّمة، وقد عدّه بعض الكتّاب وسيلة للترفيه والتسلية، ومنهم من جعل منه وسيلة تعليمية وتربوية حديثة وضرورية للإبداع والفكر، والاستعداد لمواجهة صدمات المستقبل وتحدّيات الحياة.

إن الموهوب بالخيال العلمي يرى الكثير مما لا يراه الآخرون، ينظر ما بعد الأفق، ويقدّم للقارئ آفاقاً جديدة لا يتمكّن الإنسان العادي من الوصول إليها.

وقد أسهم الخيال العلمي إلى حدٍ كبير في تنمية التذوّق الجمالي لأدب الخيال العلمي، وعلى حدّ قول «البرت اينشتاين»: «الخيال أهم من المعرفة، بالخيال نستطيع رؤية المستقبل، فهو رؤية مسبقة لجاذبية الحياة المستقبلية»[١]، أسهم الخيال العلمي في تطوّر العلم والتكنولوجيا، ولا بدّ أن نشير إلى العلاقة المتينة بين الخيال العلمي والمستقبل فهو أمر يتنبّأ بالمستقبل.

أدب الخيال العلمي:

إن الخيال العلمي هو محصّلة الخيال البشري في ضوء ما تتيحه الإمكانيات العلمية واحتمالات تطوّرها، ويتناول الخيال العلمي الحقائق التي يقدّمها العلم ومن ثم يضيف إليها الخيال، ومن هنا يكون الخيال العلمي بمثابة الضوء الكاشف للعلم، وهو منهج لاستثارة العقل كي يمزج بين العقل والخلق المبدع، وقد ارتكز أدباء الخيال العلمي على ثروة علمية يرتكزون عليها وينطلقون منها إلى آفق أرحب، ليرسموا لنا عالماً رحباً يمتزج فيه العلم والأدب.

ونعيش اليوم في عصر بات فيه التقدّم العلمي ظاهرة لافتة في حياتنا، ولا شكّ أن مهمّة الأديب أن يمثّل من خلال أعماله صور التقدّم الحضاري، وهذا ما أظهره أدب الخيال العلمي الذي جمع بين العلم والخيال، وسلّط الضوء على كلّ ما يثير قلق الإنسان وطموحاته وعالج مخاوفه بعد أن عاين الأسباب.

كما أنه نوع من الأدب يعالج التطوّرات العلمية والاكتشافات والاختراعات التي يمكن أن تحدث في المستقبل القريب أو البعيد، وهذا النوع من الأدب الذي يمزج بين العلم والأدب بشكل رائع، يدلّ على أن ثمّة علاقة وطيدة من التأثّر والتأثير بين الأدب والعلم.

وقد استشرف العديد من كتّاب الخيال العلمي المستقبل وقد تحقّق بعض ما جاء فيها من أفكار واكتشافات واختراعات.

وتداخل أدب الخيال العلمي مع الكثير من الأجناس الأخرى كالفنتازيا، واليوتوبيا، فهو يتماشى مع الفنتازيا في الأسلوب والمضمون، وفي المستقبل القريب.

يقوم الأدب على الخيال، في حين كان أدب الخيال العلمي يقوم على أساس التجربة واستقراء الواقع، والانتهاء إلى قوانين محدّدة، وهذا ما فتح الباب للتنبؤ

---

١ - توفيق، أحمد خالد: خيال علمي عربي - هل هو خيال علمي - مجلة العربي ع624- تشرين الثاني/نوفمبر 2010م

بمحاذير المستقبل من جانب، وإمكاناته الهائلة من جانب آخر، وهذا ما يتيح للقارئ أن يقرأ أدباً يتصل بالواقع وقضايا العصر، وهذا ما أشار إليه «ألفن توفلر» بقوله: «قراءة الخيال العلمي أمر لازم للمستقبل»[٢].

وقد يسهم أدب الخيال العلمي في الإشارة إلى تطوّر العلم والتكنولوجيا وإلى التعمّق والتساؤل، ومن هنا يظهر الرابط بين الخيال العلمي والمستقبل فهو أمر يتنبأ بالمستقبل، ولا بدّ أن نشير إلى أن الخيال هو القوّة الأساسية الفعّالة وراء كلّ إبداع واختراع فلا إبداع دون خيال.

وأطلقت تسميات عدّة شملت بمضمونها أدب الخيال العلمي، كأدب التوقّع، وأدب الأفكار، وأدب التأمّل، وأدب التغيير، أدب المستقبل - فهو أدب يهتمُ بالجنس الإنساني البشري وحاله، ويحذّر البشرية من المستقبل وما يحمله في طياته.

وكاتب أدب الخيال العلمي تميّز من غيره من الكتاب بمستوى عال في الكتابة والحبكة المنطقية والدقّة العلمية العالية والخيال العلمي، ولقد أثار الكاتب من خلال خياله العلمي الكثير من القضايا العلمية التي ظهرت في فن الرواية والأسلوب المبتكر المشوّق، الذي يجذب القارئ وينمّي أسلوب التفكير العلمي ويزيد من قدرة الأفراد على الإدراك واستيعاب المفاهيم العلمية وإيجاد اتجاهات وقيم إيجابية لدى الأفراد تجاه العلم والعلماء مما يدفعهم لتمثّل خطاهم وإتاحة الفرصة للمزيد من الاكتشافات والابتكارات.

ولقد أسهمت روايات أدب الخيال العلمي استشراف آفاق الحاضر والمستقبل، فالكثير من الاكتشافات والإنجازات العلمية والتكنولوجيا، سبق التنبؤ بها في أعمال الخيال العلمي مثل زراعة الأعضاء البشرية وأطفال الأنابيب والهندسة الوراثية والعلاج الجيني والاستنساخ.

وهذا بدوره يسهم في إدراك واستيعاب وفهم المفاهيم والحقائق العلمية، كما تشكّل أهمية خاصة وضرورة مهمّة من ضرورات تنمية التفكير العلمي ومهارات التفكير الإبداعي، والتوجّه نحو دراسة العلوم وإشاعة المنهج العلمي في المجتمع وإكسابه الرؤية المستقبلية الواعية، فالخيال العلمي يثير خيال القارئ ويشجّعه على التفكير.

وبهذا يكون الخيال العلمي هو نوع من الفن يقوم على الخيال فقد خلق المؤلّف عالماً خيالياً يتّسم بطبيعة جديدة مستعيناً بالتقنيات الأدبية المتضمّنة الفرضيات، وقد استخدم لنظريات علمية بيولوجية وراثية وتكنولوجيا فلسفية، وقد تخيّل كاتب الخيال العلمي نتائج هذه النظريات العلمية المتطوّرة واكتشف ما ستؤول إليه الحياة في ضوء النظريات العلمية والقوانين الطبيعية، ولم يخرج عن الإطار المكاني على الأرض أو على الكواكب، والإطار الزماني المستقبل القريب أو البعيد.

ومما سبق نجد أن أدب الخيال العلمي هو خيال ممزوج بالحقائق العلمية والرؤية

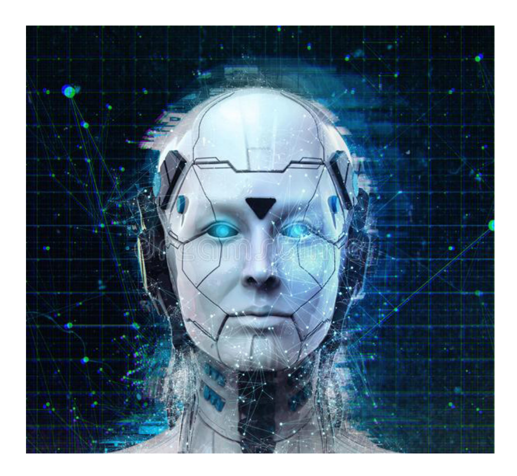
---

٢ - أبو قورة، خليل: فلنبدأ بالخيال العلمي لتنمية الإبداع والموهبة - جريدة «الشرق الأوسط» - عدد 13002.

التنبؤية، يكشف عن واقع الأحداث المستقبلية المحتملة، ويؤسّس على معرفة كافية بالعالم الخارجي والماضي والمستقبل بالاعتماد على الطريقة العلمية، ومن هنا نجد أن هذا الخيال قائم على المزج بين العلم والأدب في حين ظنّ الكثير من النقّاد والعلماء البعد بينهما زاعمين أن الأدب ينطلق من الخيال، والعلم يقوم على التجربة والاستقراء، في حين أثبت الخيال العلمي أنه يقوم على العلم ويستند إلى المعطيات والنظريات الصحيحة.

فهو أدب العجائب والفنتازيا يعتمد على فضاءات الخيال، في حين أن الفنتازيا بعيدة عن العلم، فالخيال يرى المستقبل والعلم يصنع ذلك المستقبل.

وهنا تكمن أهمية هذا الأدب الذي يقوم على توسيع فضاء الخيال لأمور علمية تقوم على النظريات أو تجارب مجرّدة منها، وتخمينات أمور مستقبلية - كاختراق الفضاء - تكنولوجيا الإنسان الآلي كما في رواية كائنات الكوكب الأحمر.



هذه الملكة التخيّلية تحتاج إلى تنمية وذلك يتطلّب توجيه البيئة الحاضنة والابتعاد عن الخرافة والشعوذة.

وهذا الجيل يملك تصوّرات وتخيّلات كبيرة قد تكون عظيمة في صناعة المستقبل، ولعلّ هذه التخيّلات تموت في مجتمعاتنا التي تحجم ملكات الخيال والتخيّل والإبداع وتقلّل من أهميتها مما دفع أصحاب التخيّلات والأفكار الهجرة للمجتمعات التي تتبنّى أفكارهم وتنمّي تخيّلاتهم.

وهذا ما سلّط عليه الضوء الدكتور طالب عمران في رواية الأزمان المظلمة، إذ قدّم رؤية مستقبلية، أما في رواية كائنات الكوكب الأحمر تحدّث عن الدمار والفساد وهي من أهم مخلّفات الحروب العالمية، وفي رواية أوراق متناثرة في بلدان هجرها الحب مثلت الأوراق فقدان القيم الإنسانية، وحب المال، وتحدّث عن ظروف الحرب التي غيّرت الإنسان وغيّرت أحلامه وقتلت أهدافه، مما أدّى إلى ظهور الطبقات، ولعلّ الصمت هو من أبرز أسباب الحرب.

أمّا رواية الأعضاء البديلة: سلّط الضوء فيها على الرشوة والفساد وتغيّر أهداف المهن النبيلة فطبيب يبيع ضميره، وشرطي يرتشي، وصحفي ابتعد عن الحق وعمد إلى التضليل وتشويه الحقائق، ولجأ تاجر إلى بيع الأعضاء البشرية.

ودور البطل في أغلب الروايات غالباً ما يكون ذا مكانة علمية عالية، وتهتمُ موضوعات الخيال العلمي بالإنجاز العلمي وتحتفي به أكثر من العالِم أو المخترع الذي يظهر

في القصّة، وتستلزم من القارئ قدراً من المعرفة والاطّلاع على العلوم.

وإن سلّطنا الضوء على رواية ممرّات الرعب هذه الرواية التي توافقت مع عنوانها إلى حدّ بعيد، فقارئ الرواية يمرُّ بممرّات الرعب ممّا يدفعه إلى التحسّب والإشفاق على البطل، وقد تعرّض البطل للخطر الذي يصعب الانفكاك منه «فأساس الأدب العجيب هو الرعب ويستبدل به في الخيال العلمي المفاجأة والإدهاش»[٣].

ومن هنا نلمس انزياحاً في الموضوعات التي كانت ضمن بوتقة الخيال العلمي، إذ اقتصرت أغلب الروايات على الحديث عن أسباب الحرب، وقدّمت رؤية لما ستؤول إليه الأوضاع والكوارث الحقيقية التي سيكون هدفها الأول الإنسان، وبذلك لامست الواقع وقدّمت حلولاً لإنقاذ الإنسان مما سيهدّد وجوده.

وبذلك كان أدب الخيال العلمي هو أدب يتعامل مع موضوعات الغرائب والخواطر والمخاطر، وهنا لا بدّ أن نشير إلى أهم الموضوعات التي وقف عليها كتاب الخيال العلمي وسنقف عند أدب الدكتور طالب عمران، إذ نشهد من خلال رواياته المزج بين الخيال الأدبي والخيال العلمي، إذ سخّر الأدب لخدمة العلم، وبذلك اتّسم أدب الخيال عنده بالذكاء والحنكة الأدبية التي تمتّع القارئ، وقد اتّسم ما كتبه بالصور الأدبية والأساليب الشائقة، والأسطورة التي ترتبط بالدين والشعائر وفلسفة الوجود.

وبذلك كان الخيال العلمي هو خيال يتعامل مع مكتشفات ومخترعات علمية حديثة بطريقة متخيّلة يختلف عن الأساطير والخرافات والفنتازيا، فيمثّل استجابة الإنسان لكلّ تقدّم في العلوم والتكنولوجيا، وهو مجموعة من الأحداث التي تدور عادة في المستقبل القريب أو البعيد أو على كوكب آخر، في حين أن الفنتازيا تتحرّر من منطق الواقع والحقيقة في السرد، فتثير الخيال وتبثّ الدهشة وبهذا يشترك الخيال العلمي مع الفنتازيا.

وقد اشتهر أدب الخيال العلمي في عصر أصبح للعلوم فيه أهمية قصوى لم تكن في عصور سابقة، ولا نغفل قصص الخيال العلمي التي عكست الواقع المُعاش في ظلّ الحرب، إذ هاجر الحبّ الأوطان وباتت النفوس تشترى وتباع، وفي زمن الحقد بات الإنسان يستعبد الإنسان؛ فالغني يملك مصير الضعيف الفقير وينهش ثرواته ويحرمه من حقوقه، لقد سيطر المال على النفوس، وساد قانون الغابة، فعالج أدب الخيال العلمي أهم القضايا في المجتمع، فكان دعوة إلى المطالبة بالحقوق فهو يصنع السبب والنتيجة.

روّاد الخيال العلمي:

عُرف من العرب العديد من كتّاب الخيال العلمي كما نذكر منهم: نهاد شريف، وهو من أهم كتّاب الخيال العلمي في الوطن العربي، ومن المغرب أحمد عبد السلام، وكان الدكتور طالب عمران من سورية رائداً في أدب الخيال

---

٣ - **غاتينيو، جان: أدب الخيال العلمي - تر: ميشيل خوري - دار طلاس للدراسات والنشر - دمشق - ط1- 1990م- ص147.**

العلمي، وما زال الأداء العربي متواضعاً إذا ما قيس بالغرب، ولكنها مثّلت مزيجاً بين الخيال والحقائق العلمية والحياة اليومية المتخيّلة، وهذا التشاؤم حول مستقبل الخيال العلمي ارتبط بالواقع الملموس.

وقد ابتعد بعض الكتّاب عن النوع القائم على قواعد ونظريات علمية أساسية مع شرح طويل ومفصّل لأحداث المستقبل القريب، وأهمل بعضهم تطوّر الشخصيات وافتقرت للعمق واعتمد على العلم والبحث، في حين اهتمّ نفرٌ من الكتّاب المتميّزين بالعلم إلى جانب التشويق والإبداع في السياق القصصي، فاهتمّوا بالشخصيات وتطوّرها على مدار العمل، وتميّز أسلوبهم بتوسيع القاعدة العلمية وجذب القارئ العادي للاستمتاع بالعلم واتخاذه أسلوباً في الحياة، فعمدوا إلى إظهار التقدّم التكنولوجي، والمزج بين العلم والخيال فقد يندمج القارئ بالرواية، وهذا ما عمد إليه الدكتور طالب عمران، الذي يرسم معماريّة روائية خيالية على بسط واقعية ولا ينسى أهمية الحبكة الذكية، كما لا ينسى أن يحرّض القارئ على التفكير مليّاً بما يجري، ويتخيّل عناصر إضافية كثيرة يفجرّها الحدث.

فائدة الخيال العلمي:

سعى أدب الخيال العلمي إلى تغيير الواقع إلى الأفضل، فقد عاينت الكثير من الروايات السلبيات وأزمات المستقبل، وهذا بدوره ساعد على تفادي الصدمة المستقبلية، وقد أثبتت الدراسات أن هذا العلم يجعل الإنسان أكثر إدراكاً لوضعه الصحيح في الزمان والمكان، ويجعل القرّاء يقتحمون هذا العلم بحثاً عن الكنز والمغزى، وهو يتطلّب من القارئ أن يجمع بين معارفه العلمية وخياله الحكيم الذي يشهد بنضوج فكره النقدي والإبداعي، كما لعب أدب الخيال العلمي دور المنذر إزاء المستقبل البشري، إذ إنه ينبّه إلى النظر على الحاضر دون فصله عن الماضي للوصول إلى المستقبل، ومن هنا كانت رسالته هادفة للتحذير والتوعية والإنذار ونكتشف فيها روح الأمل، وقد تعامل مع التجارب العلمية تعامله مع قضايا الحياة اليومية، وسعى إلى إثارة استشعار الخطر الذي يهدّد عالمنا وهذا ما كتب عنه د.طالب عمران في رواية الأزمان المظلمة عندما لامس الأحداث المستقبلية وقدّم صورة أصبحت حقيقة عاشها الإنسان بكلّ تفاصيلها، ومن ذلك مشهد الحرب، ومشهد الرعب، ومشهد القذائف.

من آراء النقّاد نهاد شريف يقول: «إن أدب الخيال العلمي الذي يمثّل اليوم صيحة الحديث وقمّة الطموح الحضاري، يجمع النقّاد وذوو الرأي على أنه سيكون الأدب الأكثر ذيوعاً وانتشاراً وشعبية في المستقبل القريب، بل وربّما كتبت له السيادة على سائر ما يقدّم من آداب بدءاً من القرن الحادي والعشرين وحبّذا لو – أمكننا بوسيلة أو بأخرى – إرضاع صغارنا جرعات الخيال العلمي مع إرضاعهم وجبات اللبن الدافئة الشهية»[٤].

---

٤ – سارة: نهاد شريف رائد الخيال العلمي في الأدب العربي – مجلة الدوحة – العدد 110 – شباط/فبراير 1985- ص 80.

ونستشفُّ مما سبق أن أدب الخيال العلمي له دوره الحاضر ورسالة حملت في طيّاتها دفاعاً عن الإنسان والإنسانية والدفاع عن مصير البشر قبل انقراضهم، لذا علينا أن نستوعب هذا الأدب ونعلم قيمته في استشراف المستقبل.

لقد حمل أدب الخيال العلمي رسالة فحواها: بناء موقف مضاد، ورفض لما تأتي به بعض الاكتشافات العلمية من مخاطر وأضرار على البشرية، فضلاً عن وظيفته القائمة على التنبيه والتي تنطلق من التسليم بأن إمكانيات العلم النافع لا تنتهي ولا يمكن لها أن تعجز عن صناعة مجتمع الرفاهية، ومن خلال هذه الوظيفة يطلق الخيال العلمي العنان لخيال الأدباء التنبّؤ بشيء من الاكتشافات الجديدة التي تحلم بها البشرية وهذه الوظيفة هي الأوفر حظّاً في سرديات الخيال العلمي عامّة.

وتمثّل أدب الخيال العلمي في جزء منه بما سمّي أدب المستقبل الذي انطلق من فرضيات أدبية خيالية مقترنة بفرضيات علمية تماشت مع معايير العصر، وكلّما تغيّرت المعايير أدّت إلى جمالية وحيوية ممّا جعل أدب الخيال العلمي يقدّم العلم في صورة جنس أدبي يقوم على الأسرار والألغاز، وبذلك كان الخيال العلمي من أحدث العلوم وأقربها إلى الأدب، وأثبت أن العقل الإنساني قادر على التخيّل وإعادة تشكيل العالم بوسائل تقنية حديثة لا حدّ لها.

فكان هذا الأدب بمثابة المحلّل الذي يتحدّث عمّا وقع وسيقع في المستقبل من معارك وكوارث حذّر منها البشرية وما ستؤول إليه الأحوال، ومن هنا بات من الممكن أن نطلق عليه حكايات الغد أو أدب الغد، إذ حملت روايات الخيال العلمي رسالة مرشّحة للحياة، فكانت أعمال خيالية ولكنها تنبثق من ألم الحياة الواقعية، فعالجت أهم القضايا التي ظهرت في الواقع وخاصة زمن الحروب، فطرحت تلك القضايا من خلال الشخصيات التي ظهرت ضمن الروايات حاملة ما آلت إليه الحياة زمن الحرب، ومن ذلك الشخصيات التي كانت سبباً رئيساً في إشعال الحرب، شخصيات حرّكها الجشع والمال وحب المناصب والسلطة، على حدّ قول «جان ماري لوكليزيو»: الحرب ليست تلك التي يعيشها الجنود، بل تلك التي يعيشها المدنيون.

أنماط أدب الخيال العلمي:

تنوّع الأدب ما بين الخيال العلمي القائم على علم الوراثة - والهندسة - وتصوير الزمن الخيالي - والحديث عن كواكب الكائنات الفضائية - ومعالجة أهم الأحداث التي تتصل بالواقع، وسنسلّط الضوء على أدب الدكتور طالب عمران، ونعاين نماذج من رواياته التي ابتعد من خلالها عن النمط المألوف في روايات الخيال العلمي، إذ كان في كلّ مرّة يفاجئنا بلون جديد وصورة مدهشة، فقد تحدّث عن واقعنا وعاين أهم الأسباب التي كانت دافعاً للحرب، ومن أهم هذه الأسباب ضعف النفوس وتفكّك المجتمع وميل الناس للفساد، فقدّم صورة الطبيب الذي يتاجر بمرضاه مقابل المال، هذه المهنة التي ترسم الإنسانية بكلّ مقاييسها، والشرطي الذي يرتشي ليخفي أموراً تؤدّي ببلاده إلى الفساد مقابل المال، والضابط الذي

يسمح بدخول الممنوعات، مما أدّى إلى دمار البلاد، وربما كان هذا من أهم الأسباب التي دمّرت حياة الناس الأبرياء وأدّت إلى قتلهم.

من براعة المؤلف أنه في كلّ رواية وتحت مسمّى جديد ينقلنا إلى عالم آخر، نعيش أحداثه ونعاين صوره، فتارةً نكون على الأرض، وبعدها نحلّق إلى كوكب آخر، نشاهد مخلوقات غريبة، نسمع قصصاً مذهلة، وتارةً نكون بين الأحياء لينقلنا إلى الأموات الذين تمثّلوا بجثث تتكلّم مع بعضها وتتطلّب الغفران.

هذا التنوّع عكس لنا مقدرة الخيال العلمي بالبعد عن النمطية والبحث في جمالية الأحداث، وتسليط الضوء ومعاينة نماذج مختلفة من الواقع بطريق الخيال، وقد رسم لنا الدكتور عمران في أغلب الأحيان الواقع المأساوي، وطرح مشكلات عدّة أدّت إلى تدهور البلاد واقترح حلولاً لها، وقد استند في بحثه على أسس علمية وأخلاقية واضحة، كان يتأمّل أن يسود السلام والمحبّة، وتفاءل بغد مشرق، وحذّر من الظلام الذي سيعمّ البلادً بسبب الجهل والتخلّف، في حين مثّل عالم الكواكب ملاذاً آمناً، فرسم صور الكائنات من العوالم الأخرى بوصفها كائنات حضارية تنشد السلام، وتغاير الإنسان على كوكب الأرض الذي يقود بلاده إلى الدمار والنهاية المأساوية.

لقد تنوّعت موضوعات أدب الخيال العلمي لنجد موضوعات عدّة تنقلنا في كلّ منها إلى مكان جديد وكائنات جديدة، ومن أهم الموضوعات التي سلّطنا الضوء عليها في هذا الكتاب موضوع الإنسان والطرق التي تسهم في القضاء عليه، ومن هنا كان هذا الأدب أدباً تحذيرياً يقف عند أهم القضايا التي ستؤدّي بحياة الإنسان إلى عالم مجهول يدمّر كلّ ما صنعه، ومن هنا سنجري نوعاً من المقارنة بين الفضاء والأرض، وبين كائنات الفضاء وكائنات الأرض والهدف من ذلك هو إظهار التقدّم والتطوّر الذي تحقّق بفعل الكائنات الفضائية، وهذا ما رسمه لنا د.عمران في روايته التي تحدّث من خلالها عن غزو الكواكب، وعن كائنات الكوكب الأحمر التي مثّلت التقدّم والتطوّر في حين كان حلم الإنسان أسرع من جهوده، وفي المشهد ذاته ينقلنا إلى الأرض لنجد تخلّف الإنسان وتأخّره عن وسائل التطوّر والتقدّم.

ظهرت الكائنات في بعض الروايات مخلوقات غير مرئية يمكن أن تظهر على الشاشة أو تستطيع التحوّل إلى عالم المادّة فتشكّل نسخها وهيئاتها كما تريد، أو تكون على هيئة بشرية مع بعض التحولّات في الرأس والعين أو تعدّد الأذرع[٥].

وتتجلّى صورة الكائنات التي تأتي من الفضاء في أدب الخيال العلمي بصورة كائنات خيّرة ومسالمة تنشد الصداقة مع بني البشر، تنشد الخير والسلامة.

أسلوب أدب الخيال العلمي وميزاته:

لقد عالج أدب الخيال العلمي موضوعات مهمّة، وامتاز في إخضاع العلم للأدب وألبس النظريات العلمية أثوابا أدبية فابتعدت عن

---

٥ - الياسين، محمد - الخيال العلمي في الأدب - ص237

الجمود، واقتربت من الفن الأدبي الجميل، وكانت عناصر الرواية تقوم على أسس واقعية، وتجلّت البراعة في توظيف الحدث العلمي أدبياً وفنياً، يقول محمد عزام: «على الرغم من أن عمران يضع السرد القصصي في خدمة الأفكار العلمية، إلا أنّ هذا لم يجعل روايته أو قصته تتسم بالجفاف العلمي لأنه استطاع بمهارة الفنان أن يحقّق المعادلة المستحيلة، المضمون العلمي في الشكل الفني»(٦)، في شكل ممكن التصرّف في المعنى والإشارة، والاعتماد على لغة عربية بسيطة واضحة محبّبة إلى القارئ من خلال سلاسة العبارة ودقّة الأسلوب التي تفصح عن آمال وأحلام تتجاوز الواقع إلى أزمنة تخلو من المتاعب والآلام، مع أن كاتب الخيال العلمي يدرك أنه لا مجال لتجاوز الحقبة الزمنية وخلاصها إلّا بالتخيّلات والأحلام والآمال البعيدة، ومن هنا مثّلت تلك الرؤى أحلاماً مستقبلية واستشرافاً للمستقبل، ولم تخلُ الناحية الفنية والجمالية من الومضات الأدبية والأحداث الشائعة مع امتيازها بسلاسة الأسلوب وبساطة الطرح.

الزمن في أدب الخيال العلمي:

امتاز أدب الخيال العلمي باختراق الزمن، وهذا ما ميّز هذا الأدب من غيره من الآداب لأنّ الزمن هو زمن افتراضي، نلمس فيه تجميد الحاضر والماضي والمستقبل، فما أن

---

٦ - عزام ، محمد: خيال بلا حدود - طالب عمران رائد الخيال العلمي - دار الفكر - دمشق - ط1- 2000م- ص 17.



نكون بالفضاء مع شخصيات غريبة من كواكب مختلفة إلى أن نهبط إلى الأرض عبر زمن وهمي، وربّما نعبر إلى الماضي من خلال بئر عميق أو حفرة منسيّة بين الآثار، وقد يستحضر الكاتب من خلال المنام جسراً يقودُ المرء إلى مناطق زمانية قديمة، أو إلى المستقبل.

وإن تأمّلنا روايات الدكتور طالب عمران نجدُ الزمنَ يتنوّع بين الماضي: من خلال صورة السراديب والأنفاق والجثث الهامدة، والحاضر: أوراق متناثرة في بلدان هجرها الحب فتحدّث عن زمن نعيش فيه خالٍ من المعالم الإنسانية، والمستقبل: رواية الأزمان المظلمة من خلال الأحداث التي أصبحت واقعاً، وتنقل بين مناطق زمنية ثلاث: المستقبل 2018- عام 2040- منامات د.هاني التي نقلتنا إلى عوالم قديمة وعصور يعيش فيها الناس حكم الإمارة والجند، فاعتمد على طريقة الاستشراف التاريخي على أحداث حاضرة يستشرف من خلالها أحداثاً مستقبلية فاجعة ومظلمة.

اهتمَّ بزمن المستقبل من خلال الرحلة إلى المستقبل التي يكمن في طيّاتها الأمل بمستقبل زاهر للبشرية، أو تنذر بصراعات درامية هائلة تدور على الأرض أو حولها، كما تروي فضول القارئ وشغفه لينظر ماذا أعدّ المستقبل للبشرية من مفاجآت سعيدة أو كارثية.

وهذا هو هدف الخيال العلمي في سنوات النضج أن يقدّم تصوّراً فكرياً وتربوياً يحطّم عاداتنا في الحياة وأسلوبنا في التفكير، فيتهيّأ الخيال العلمي لأن يصبح «أدب الأدب بعد أن ظلّ أدباً هامشياً وتجريدياً، أي أنه بإيضاحاته العقلية وبالمهارات غير العادية لأولئك الذين برعوا فيه قد أصبح المجال الثقافي الوحيد القادر على معالجة المشكلات التي يطرحها النمو المتزايد للتقنية والعلم»٧، فرسم من خلال الزمن الخيالي التقنيات التي سيتوصّل إليها البشر، وبهذا عمد إلى الأسلوب التقليدي في إثارة الدهشة وافتعال المفاجأة.

السرد في روايات أدب الخيال العلمي:

لقد قامت معظم روايات الخيال العلمي على عالم خيالي منه ما ارتبط بالواقع، ومنه لم يرتبط أبداً ومثّل كائنات غريبة، وصور كواكب جديدة، وقد صعد الكاتب بخياله إلى فضاءات مجهولة، إلّا أن ما يميّز الدكتور طالب عمران أننا لم نشعر بغربة الرحلة التي نسافرها بخيالنا، فكان كلّ ما رسمه من صور تتصل بعقول وقلوب كلّ شخص منفتح يدرك قيمة العلم، وأهميته، ويرصد خطورة الأزمنة القادمة التي لم تستفد من العلم إلّا بما عاد بالضرر على مجتمعاتها وعليها.

وقد تنوّعت طرق السرد وتفاوتت في الطول، وفي بعض الأحيان عرض لنا ومضات مضيئة صبّ من خلالها الأفكار والخيال المدهش، وهذا ما وجدناه في أوراق متناثرة في زمن الحرب، فقد عرض اثنتي عشرة ورقة، في كلّ منها فكرة وجيزة تلخّص ما آلت إليه الإنسانية وما فقده الإنسان.

وبذلك كثّف أفكاره وعبّر عمّا يريد بعدد قليل من الكلمات حملت المغزى المُراد، وقد تنوّعت وفق هذا طرق سرده التي كانت في أغلبها تقوم على السرد الطويل للأحداث وتناول تفصيلاتها بأسلوب أدبي شائق، وبذلك جمع بين العلم والخيال، وقد كان يختار الشكل المناسب لعنوان الرواية مراعياً الأحداث المتشابكة والشخصيات العديدة.

الأحداث:

اتخذ أدب الخيال العلمي من النظريات العلمية دعامة حقيقية استندت إليها جملة من المسوّغات، وفسّرت نتائج الأحداث وتصرّفات الأشخاص.

وقد اتّسمت الرواية القائمة على الخيال العلمي باندماج الأحداث الروائية بالعلم الذي سخّر لخدمة الشخصيات الروائية وغايتها إثارة الدهشة والإعجاب، وقد عمد نفرٌ من الكتّاب إلى ما يثير الجدل، فكان الكاتب يبدأ الأحداث وتطوّر بشكل انسيابي

---

٧ - قاسم، محمود: الخيال العلمي أدب القرن العشرين - مكتبة الأسرة - 2008م - ص 78-79

اعتيادي، وسرعان ما يحدث الخلل الذي يهدّد البطل وربّما يهدّد الإنسانية، وهذا الخطر هو الذي يحرّك الحدث فيما بعد.

وقد تضمّنت الأحداث إذابة الفروق والحدود السياسية والطائفية والعرقية بين الناس، على الكوكب الأرضي، وتبيّن فيما بعد أن هذه الأمور من أهم الأسباب التي أدّت إلى انهيار مجتمعاتنا وهي التي أضعفت القوّة الداخلية، وهذا الهدف الذي سعت الدول العظمى لزرعه داخل مجتمعاتنا ليدمّر هذا الكوكب الجميل.

التنبّؤ بطريق الأحلام:

ينطوي الاستبصار على تنبّؤات صوّرت ضمن روايات الخوف من الأزمنة القادمة، ولكن تلك التنبّؤات لم تكن عشوائية أو من فراغ، أو قائمة على الخيال والتخيّل، بل التزمت بالواقعية، إذ إن الخيال العلمي مرتبط بالإبداع الموثّق بنظريات علمية وأفكار واقعية، وقد صدقت التنبّؤات التي ارتبطت بالمستقبل، فكانت أقرب ما يكون إلى الصواب، والحقيقة أن التنبّؤ بالمستقبل كان منوطاً بأفكار منبثقة من الواقع، ونظريات علمية حديثة، وكثيراً ما ظهرت التنبّؤات بطريق الأحلام، وقد ظهرت في أكثر من موضع في روايات الدكتور طالب عمران، الأحلام في رواية الأزمان المظلمة، والأحلام في رواية ممرّات الرعب، والأحلام في رواية الصناديق.

وهذه الأحلام كانت جزءاً من وعي الإنسان، فالذي يشاهد هذا الحلم لم يكن شخصاً عادياً فقد كان متعلّماً يمتلك بصيرة وحكمة.

وهذا دليل على انفتاح الإنسان واستخدام العقل في العلم والمعرفة، وهذه الأحلام عكست ازدواجية بين الحلم والحقيقة، وهذا ما يؤكّد أن شخصية البطل التي تراءت له الأحداث عندما يستيقظ كان يجد أن حلمه هو حقيقة وليس خيالاً، فكانت الرؤية محقّقة على الواقع.

اللغة في أدب الخيال العلمي:

لقد أكّدت الدراسات أن اللغة المعتمدة في أدب الخيال العلمي امتازت في أغلب الأحيان بالاعتماد على اللغة العلمية الجافّة التي باتت تسجيلاً لأرقام ولرموز ومصطلحات علمية في ظاهرة فريدة في الأدب الإنساني، إلّا أنّ الدكتور طالب عمران عمد إلى المزج بين اللغة العلمية والأدبية، فاستخدم عبارات منمّقة، واعتمد على لغة امتاز من خلالها من غيره من الأدباء، لأنه طوّع العلم لخدمة الأدب وبذلك كان فريداً في لغة نصوصه.

بنية أدب الخيال العلمي:

اتخذ الخيال العلمي قالب النثر في معظم الأحيان، فقد عكست الرواية البنى الإبداعية في أدب الخيال العلمي، كما ظهرت القصّة القصيرة نمطاً عالج الكاتب من خلالها قضايا مهمّة، وقد رسم كاتب الخيال العلمي بطريق الروايات والقصص فضاءات خيالية مزوّدة بأفكار جديدة، منفتحة على الخيالين الروائي والعلمي، ومنفتحة على الابتكارات العلمية المحدثة، ولعلّ الكاتب في أغلب الأحيان سعى من خلال الرواية إلى الوصول والبحث عن واقع بديل ليخلق لنا مدناً فاضلة، كما تنبّأ الكاتب من خلال الرواية أحداثاً تهتم بالمستقبل



والتكنولوجيا والتطوّرات، فرسمت لنا مستقبل الإنسان وما سيكون فيه من تطوّرات وتغييرات موثّقة بالتصوّر العلمي.

سعى أدب الخيال العلمي من خلال الشخصيات الروائية إلى رسم عوالم بديلة وذلك لغياب الثقة بالواقع، وعدم الرضا عنه، فكان ذلك هو الهدف الأساسي من أدب الخيال العلمي في الروايات التي سنقف عندها، فلم يعد الإنسان مقتنعاً بما يعيشه من ألم وحزن، ولا يجد جدوى من الواقع لذا سعى بفكره للانتقال إلى عوالم جديدة.

تخطّى الكاتب الزمان والمكان من خلال الرواية القائمة على نصوص علمية بلغة أدبية خبّأت تحت بنيتها الموضوعية اكتشافات علمية وتنبّؤات جديدة.

عالج هذا الأدب من خلال الشخصيات الروائية قضية المصير الإنساني، والخطر المحدق بالإنسان، واهتمّ برسم عوالم جديدة خيالية، جمع بين التخييل القائم على التصوّر والوعي، ويستند إلى وقائع علمية حقيقية للانطلاق منها إلى علم الخيال والرواية والنظريات والوقائع العلمية التي يعتمد عليها أدب الخيال العلمي والتي يمكن تحقيقها في المستقبل القريب أو البعيد، ومن هنا مزج أدب الخيال العلمي في صوره النثرية بين التخييل والإبداع الفني وبين الفكر والافتراض.

لم يكن بناءُ القصّة أو الرواية بناءً تقليدياً، فإن نظرنا إلى روايات الدكتور طالب عمران نجد أنه في كلّ رواية عمد إلى إبداع جديد تلاعب من خلاله بالبداية والنهاية، ففي رواية الأزمان المظلمة كانت النهاية في الفصل الثاني وبقيت الأحداث تدور في الفصول

اللاحقة لتصب في البداية، وهذا يشي ببراعة المؤلّف وشجاعته في قلب البدايات والنهايات، وبعض القصص مثّلت ومضة كما في أوراق متناثرة في زمن الحرب وهي تعكس واقعاً أليماً لا يرتبط ببداية ونهاية بل هي مجرّد تسليط الضوء على مجموعة أفكار تحمل كلّ فكرة مغزى ورسالة.

ومن الجدير بالذكر أن أغلب الكتّاب يعمدون إلى نهاية إيجابية، إلا أنّ د.عمران كان يفاجئنا دائماً بنهايات تخالف أفق التوقّع، فالقارئ للرواية من البداية يرسم بمخيلته نهاية تتناسب مع الأحداث! إلا أنّه دائماً يفاجئنا بالنهايات الغريبة التي تدهش القارئ لما فيها من روعة الصياغة ورصانة التعبير، ففي رواية الأزمان المظلمة سرد الأحداث بطريقة مبدعة فجعل أولاً النهاية ثمّ عرض الأحداث، وبعدها عاد إلى البداية، وقد وفّق في اختيار شكل مناسب لبنيته القصصية أو الروائية تناسب عمله القائم على الخيال العلمي بأسلوب أدبي، وقد أظهر من خلال سرده للأحداث ذوقه الجمالي ومعرفته الأدبية بطريقة السرد الحديثة المبتكرة، فابتعد بذلك عن أدوات السرد التقليدية ليجمع بين العلم والأدب بطريقة فريدة تتناسب مع الواقع المعاصر.

الشخصيات في أدب الخيال العلمي:

يجب أن تكون الشخصية في الأدب عامّة وأدب الخيال العلمي خاصة شخصية مقنعة تتعرّض لجملة من التحوّلات الفكرية والسلوكية، وتحاول الولوج إلى داخل النفس البشرية كي تحاول استنباط الأسباب، ويجب أن تتفوّق على الواقع، وقد عانى أدب الخيال العلمي من أزمة بناء الشخصيات، وهذا بدوره يعود إلى الكتّاب الروائيين الذين لم يرسموا صوراً دقيقة للشخصيات في أغلب الأحيان، في حين وقف الدكتور طالب عمران عند الشخصيات التي تناسبت مع الرؤية العامّة لما يريد أن يصوّره لنا والرؤية الخاصة لما يريد معالجته من خلال القضية التي يطرحها من خلال الشخصية، فصوّر لنا الشخصيات في زمن الحرب الشخصيات التي طالبت بالحرية والشخصيات التي آثرت الصمت ورفضت التظاهر، وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن أغلب الروائيين صمتوا زمن الحرب، وربّما أصيبوا بشيء من الذهول والعجز، والشعور بالإحباط فشعروا أنهم وقفوا عند مفرق حاسم لا يعبّر عنه روائياً، والرواية تعكس الواقع وتعالجه وهي فنّ من الفنون الأكثر انتشاراً لأنها في أغلب الأحيان تعالج مشكلات واقعية وتنقل القارئ إلى عالم جديد بعيد عن الواقع المُعاش فيجب أن تلامس الشخصيات الروائية آلام الحياة وتقدّم حلولاً لتسهم في تطوّر الحياة



وتقدّمها.

وأدب الخيال العلمي ابتعد عن الأدب الذي يخوض المعركة ليوضّح لنا أسباب المعركة ويعالج النتائج، فاستقطب القرّاء لقراءة حقائق واقعية مدفونة خلف ركام من التاريخ الشخصي والعام ومغيّبة وراء الكثير من الأعمال والأقوال السطحية، وعالج بشخصياته الروائية أنماطاً سياسية وأخلاقية وسلوكية، وظهرت بعض الشخصيات التي واجهت الحقيقية، كما أن أدب الخيال العلمي وقف عند شخصيات من القوى المسلّحة التي مارست أعمالاً قتالية وارتكبت جرائم من الصعب أن يتحمّلها العقل البشري، ومن هنا نجد أن بناء الشخصية يقوم على وضع الروائي نفسه أمام الأدب العلمي القائم على الفن والخيال والذي يتطلّب جملة من الشروط أبرزها توفّر العدالة الأدبية والأخلاقية في الكتابة.

وقد يعرض الكاتب شخصيات متناقضة، ومن هنا يحقّق العدالة من خلال البحث عن مسوّغات وأشكال لمواجهة المتغيّرات، ومعرفة أسباب التبدّل السريع في بناء الشخصية، والبحث عن بناء متكامل للشخصية من خلال التفهّم العميق لموقفها.

يتجلّى ممّا سبق أن بناء الشخصية الروائية في أدب الخيال العلمي يُعنى برسم ملامح الشخصية الخارجية والنفسية، وقد ظهرت بعض الشخصيات بهيئة مخلوقات هلامية، وهي التي لا تتخذ شكلاً معيّنا بل نراها تتحوّل من شكل لآخر، ومنها من ظهر بشكل مخلوقات لا مرئية، روحانية تظلّ معلّقة بعوالمها المختلفة عن عوالمنا، أما الشخصيات الإنسانية اتّسمت أغلبها بالابتعاد عن الإنسانية وكياناتها الداخلية، ومن هنا انقسمت الشخصيات إلى الشخصيات الإيجابية التي تبعث على الراحة والطمأنينة والوسامة، والشخصيات السلبية التي تأثّرت بالحضارة المادية والتقنية فتجرّدت من الإنسانية والروحانية والطمأنينة.

كما نجد كائنات فضائية اتسمت بصفات بشرية نبيلة، تسعى إلى النبل والأخلاق في حين مُثلت الكائنات البشرية بسوداوية والتجرّد من الإنسانية.

وقد نجد أن الكثير من الشخصيات رسمت بصور تخالف طبيعة الكائنات وما عرفت به، فنسجت بطبيعة خاصة شكلاً ومضموناً يختلف عن المعهود.

أدب الخيال العلمي والديستوبيا:

الديستوبيا هو أدب المدينة الفاسدة، أثار هذا النوع من الأدب اهتمام الباحثين في أدب الخيال العلمي، فسلّط الضوء من خلال الرواية على مستقبل الواقع الذي خيّم عليه السواد، وقد رسم بعض الرواة أسوأ صورة للمستقبل، وهذا النوع من الأدب يبعث الراحة في النفوس لأن الأمور على أرض الواقع لم تكن فعلاً بهذا السوء، ولم تصل إلى هذا المستوى القاتم المشؤوم، وهذا النوع من الأدب الذي يكون في وجه من أوجهه أدب تحذيري من الواقع الذي سيكون إن استمرّ على هذا الحال وسيلة دمار للإنسان والإنسانية بشكل عام أدخل الخوف والرعب من الأحداث التي ستكون في المستقبل وما سيحدث في البلاد، من خلال العديد من الموضوعات التي رسمت بدقّة تنبّه

من واقع أليم وكوارث حقيقية ستؤدّي إلى إنهاء البشرية.

أدب الخيال العلمي والطوبائيات:

يعنى الأدب الطوباوي بالجمهوريات وهو أدب المدن الفاضلة من حيث تجمّعات بشرية تخضع لقوانين خاصة، وتعيش حياة منزّهة عن النقص والعيب[٨].

هي المكان الحسن أو مستحيل الوجود مشتقّة من الكلمة اللاتينية يوتوبيا[٩]، من أدب الفلاسفة، وقد نشأت عند أفلاطون والفارابي في «آراء أهل المدينة الفاضلة»، تعتمد مبدأ المحاكمة العقلية واستنتاج الأحكام، هو أدب فلسفي يحكي عن تفاصيل مجتمعات متخيّلة، انتقلت من الأدب الغربي إلى العربي، وملامح اليوتوبيا تتناقض مع الديستوبيا بالشكل المتفائل والتحذيري، ويصوّر الأدب الطوباوي مستقبلاً وصل من التطوّر إلى درجة مذهلة من الرفاهية[١٠]. ويقدّم الأدب الطوباوي كنموذج يمكن الاهتداء به طريقاً للسعادة، وقد مثّل هذا النمط من الأدب في روايات الدكتور طالب عمران في الفضاء الخارجي في كواكب تقطنها كائنات تخلّصت من الأنانية والحقد - واتّضح ذلك في رواية كائنات الكوكب الأحمر - فاهتدت بعلمها وعملها إلى الطريقة المثالية للعيش السعيد، فمثّلت الكائنات الفضائية نموذجاً قدّمت للبشر درساً في العلم والفضيلة والسلوك القويم.

وقد تحدّث محمّد عزام عن الدكتور طالب عمران إذ قال: «وهو يحلم بمدن فاضلة ولكن ليست على الأرض، وإنما في الكون، هرباً من جحيم البشر الأشرار، ففي هذا العصر المضطرب يشهد المرء فوضى تتفاقم وتحاصره المشكلات الجديدة، والأمراض الجديدة، والعلاقات الاجتماعية المتفسّخة، والتلوّث والنفايات، وثقب الأوزون - وكلّها مظاهر تسحق الإنسان تحت عجلة الحضارة الحديثة، وأمام ظروف الإنسان الصعبة هذه، والمستقبل المجهول المرعب، يتوهّج الحلم في أعماقه من أجل تجنّب المظاهر المخيفة، والأخطار المحدّقة التي تهدّد الجنس البشري بالزوال ويصبح الحلم بمدن فاضلة يحكمها أناس ذوو نزعة إنسانية خيّرة، لا يحملون حقداً ولا ضغائن ولا جرائم مستقبلاً على الكواكب الكونية، بعيداً عن أذى البشر وحقدهم وأنانيتهم»[١١].

وبذلك يختلف الأدب الطوباوي (اليوتوبيا) عن الديستوبيا بأنها ترسم مكاناً يكتب له الدوام يقوم على أركان لا تحول ولا تزول.

وقد وقف أدب الخيال العلمي على قضية جهل الإنسان بمصيره، فقد أسهم الإنسان بفنائه واندثار حضارته وبات الإنسان جرّاء

---

٨ - **الياسين، محمد: الخيال العلمي في الأدب - وزارة التعليم العالي - جامعة دمشق - ط1** - شباط 2016 - ص106.

٩ - **الياسين، محمد: الخيال العلمي في الأدب** - ص297.

١٠ - **الياسين، محمد: الخيال العلمي في الأدب** - ص 304.

١١ - **عزام، محمّد: خيال بلا حدود** - ص94-95

هذا يشعر أنه واقع في فخ عظيم وهائل، وهذا الفخ يمكن أن يهلك الأرض ومن عليها ويأذن بانتهاء عصر البشرية، وبذلك عرض لنا أدب الخيال العلمي صوراً قاتمة لنهاية الأرض ومن عليها وحاول بثّ الرعب والذعر في نفوس من يعنيهم الأمر لعلّهم يعودون إلى صوت العقل.

وبهذا نجد أن أدب الخيال العلمي في معظم الروايات استمدّ موضوعاته من أدب الديستوبيا، على الرغم من أنه عمد إلى تنويع الزمان والمكان، ولكن ما زالت الفكرة ترتبط بالمصير البشري وتلفّه الديستوبيا والمدينة المظلمة.

المصادر والمراجع:

- أبو قورة، خليل: فلنبدأ بالخيال العلمي لتنمية الإبداع والموهبة - جريدة الشرق الأوسط - عدد 13002.
- إيفاشيا، فالنتينا: الثورة التكنولوجية والأدب - تر: عبد الحميد سليم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1985.
- توفيق، أحمد خالد: خيال علمي عربي - هل هو خيال علمي - مجلة العربي ع624- تشرين الثاني/ نوفمبر 2010م
- سارة: نهاد شريف رائد الخيال العلمي في الأدب العربي - مجلة الدوحة - العدد 110 - شباط/ فبراير 1985م
- الشربيني: أحمد محمّد - عالم الإبداع: المدينة الفاضلة وكابوس الديستوبيا 24 كانون الثاني2014 .
- صحيفة الوطن العمانية - حوار مع د.طالب عمران - العدد 2003/2/2.
- عزام، محمّد: خيال بلا حدود - طالب عمران رائد أدب الخيال العلمي - دار الفكر - دمشق - ط1- 2000م
- عمران، طالب: الأزمان المظلمة، ممرّات الرعب، صناديق الأعضاء البديلة، كائنات الكوكب الأحمر، أوراق متناثرة في بلدان هجرها الحب، سارقو الأحلام - سلسلة أدب الخيال العلمي - الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة 2017.
- غاتينيو، جان: أدب الخيال العلمي - تر: ميشيل خوري - دار طلاس للدراسات والنشر - دمشق - ط1- 1990م- ص147.
- قاسم، محمود: الخيال العلمي أدب القرن العشرين - مكتبة الأسرة 2008م
- ويلز: هربرت جورج، آلة الزمن - نسخة مترجمة للكتاب من قبل مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة - نسخة محفوظة -24 كانون الثاني 2018م - على موقع واي باك مشين.
- الياسين، محمّد: الخيال العلمي في الأدب، وزارة التعليم العالي، جامعة دمشق، ط1 - شباط 2016.



نظريات التنمّر

د. عيسى الشمّاس*

مقدّمة

يوصف التنمُّر بأنّه ظاهرة عدوانية مرفوضة، لأنّها شكل من أشكال الإيذاء، تنطوي على ممارسة العنف من قبل فرد على فرد أو مجموعة أفراد نحو غيرهم، حيث يكون الفرد المهاجِم أقوى من الآخرين؛ أي أنّ التنمّر نوع من السلوك العدواني يقوم به شخصٍ مُتعمّداً إيذاء شخص آخر، أو الإساءة إليه والتسبّب في إزعاجه وإقلاق راحته.

* أستاذ في كلية التربية - جامعة دمشق

ويبدأ هذا السلوك في عمر مبكّر، من بعد السنة الثانية من الطفولة تقريباً، حيث يبدأ الطفل في تشكيل مفهوم أوليّ للتنمُّر، ثمّ ينمو تدريجيّاً حتى يصل إلى الذروة في الصفوف الثلاثة الأخيرة من المرحلة الابتدائية، ويستمرّ خلال المرحلة الإعدادية، ثمّ يبدأ في الهبوط تدريجياً حتى نهاية المرحلة الثانوية؛ وقلّما يوجد سلوك تنمّري في المرحلة الجامعية، باستثناء حالات السخرية التي يمارسها بعض الطلبة على زميل لهم أو مجموعة من الزملاء، في مواقف معيّنة.

أولاً- مفهوم التنمُّر

يعدّ مصطلح «التنمُّر» مصطلحاً حديثاً نسبيّاً، ولذلك اختلف الباحثون في نظرتهم إلى التنمُّر، حيث يمكن تعريفه بأكثر من طريقة للوصول إلى فهمه من خلال أكثر الأعراض وضوحاً، كالأفعال العدائية المتكرّرة أو السخرية، أو العمل على استبعاد الآخرين؛ ويمكن أن تشمل الأعراض التصرّفات التي تنطوي على إساءات جسدية أو لفظية أو مكتوبة، كما يشمل الاستبعاد إبعاد الآخرين عن النشاطات الاجتماعية.

فمن الناحية اللغوية، يعود مصطلح التنمُّر، كما ورد في المعجم الوجيز (2001) إلى الجذر الثلاثي (ن +م+ر) أي الشخص الذي يشبه النمر في طبعه، وأراد أن يخيف رفاقه؛ فتنمَّر وحاول أن يقلّد النمر في شراسته. ويقال: نَمِرَ نَمراً: كان على شيه النمر، وهو أنمَر وهي نَمراء؛ ونَمُرَ فلان: أي غضب وساء خُلُقه؛ وتنمَّر لفلان: أي تنكّر له وتوعّده بالإيذاء.

وعُرّف التنمُّر اصطلاحيّاً بأنّه: الأعمال الضارّة والمتكرّرة التي تحدث نتيجة اختلال توازن القوى، وتتكرّر جسدياً أو لفظياً، أو الهجمات النفسية أو الترهيبية الموجّهة ضدّ الفرد أو الجماعة الضحيّة، من الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، بسبب ضعف حجمهم أو قوّتهم (Sampson, 2002, 4). وهذا يتّفق إلى حدّ بعيد مع تعريف (كيم- Kim) الذي يفيد بأنّ التنمُّر هو ارتكاب سلوكيات «البلطة» تنفّذ بطرائق مختلفة، فإمّا جسدية/ بدنية أو نفسية؛ أمّا الطريقة البدنية فتشمل الركل والدفع واللكم، والاعتداء على الضحية؛ بينما تشمل الطريقة النفسيّة، الشتائم والتهديد والإغاظة.. وغيرها (Kim,2004, 32).

ويعرّف التنمُّر من الناحية الاجتماعيّة بأنّه: السلوكات العدوانية غير المباشرة، وتحدث نتيجة الخلل في الحالة النفسية للأفراد والعلاقات الاجتماعية بينهم، بما يسمح لمرتكبي هذه السلوكات أن يبقوا مجهولي الهوية، ليسلّموا إلى العدالة بطريقة سريّة (Hines, 2011, 11). وإذا كان للسلوك العدواني نوعان هما: العدوان الإيجابي الذي يستخدم في الدفاع عن النفس أو تدعيمها؛ والسلوك السلبي الذي يوجّه لهدم الذات والآخرين؛ فإنّ السلوك العدواني مقبول في بعض أشكاله وفي ظروف معيّنة، ومرفوض في بعضها الآخر، وبالتالي لا نستطيع أن نقرّ ذلك بالنسبة لسلوك التنمُّر، فهو سلوك مرفوض في جميع أشكاله، وفي ظروفه وأحواله كلّها، وهو سلوك متعلَّم، أي مُكتسَب،

ولا يوجّه نحو الذات كالعدوان أحياناً، وإنّما يوجّه نحو الآخرين فحسب (دسوقي، 2016، 19-20).

نستنتج من التعريفات السابقة، أنّ التنمُّر يتضمّن مقداراً كبيراً من العدوان الجسدي مثل: الدفع، ورمي الأشياء، والصفع، والخنق، واللكم والركل والضرب والطعن، وشدّ الشعر، والخدش، والعضّ (Rosse, 1998). كما يتضمّن التهديد بالسلاح والابتزاز، أو مخالفة الحقوق المدنية، أو الاعتداء والضرب، أو العمل ضمن عصابات، ومحاولات القتل أو التهديد، ويُضاف إلى ذلك التحرّش الجنسي (Olweus & Sol 200, berg). وإن كان التنمّر يتضمّن العدوانية، فإنّ العدوانية أوسع وأشمل، لأنّها تتضمّن العدوان على الذات والآخر، بينما يقتصر فعل التنمُّر على الآخر.

ثانياً- خصائص سلوك التنمّر وأشكاله

تتّصف ظاهرة التنمُّر بالتكرار، أي أنّها قد تحدث أكثر من مرّة، إذ يفترض المتنمِّر أنّه الأقوى دائماً، فيلجأ إلى العنف والإيذاء من أجل التسلّط على الآخرين والتحكّم بهم، بل وإذلالهم، طوال الوقت، (حمدي، 2018). ويمكن أن يتصرّف المتنمِّرون بهذه الطريقة كي يُنظَر إليهم على أنهم مقتدرون أو أقوياء، أو قد يتمّ هذا من أجل لفت الانتباه. ويمكن أن يقوموا بالتنمُّر بدافع الغيرة، أو لأنهم تعرّضوا لمثل هذه الأفعال من قبل (Crothes, 2004).. وبذلك يمكن أنّ يتحوّل سلوك التنمُّر، إلى نوع من الانحراف، الذي يطلق عليه في علم نفس الشخصيّة «السلوك المضاد للمجتمع» الذي يعني الخروج عن قوانين المجتمع وأعرافه ومعاييره، وعدم التوافق مع الآخرين.

وبناء على ذلك، فإنّ سلوك التنمُّر يتميّز بالخصائص الآتية: (الدسوقي، 2016، 14-15)

إنّه سلوك إراديّ واعٍ ومتعمّد. ويكون لفظياً أو جسديّاً أو نفسيّاً أو اجتماعيّاً.

هو شكل من أشكال السلوك العدواني السلبي، يفتقد إلى التوازن في القوة بين المتنمِّر والمتنمَّر عليه / الضحيّة.

إن المتنمَّر عليه / الضحيّة، لا يقوم باستفزاز المتنمِّر، أو حثّه للاعتداء عليه.

إنّ المتنمَّر عليه / الضحيّة، لا يستطيع الدفاع عن نفسه، أو يبادل المتنمِّر القوّة بالقوّة.

إنّ المتنمِّر يشعر بالمتعة والسيطرة على الآخرين.

وأخيراً، إنّ سلوك التنمُّر يتّصف بالتكرار المستمر والديمومة.

وبذلك يكون التنمّر هو ممارسة الأفعال



السلبية من قبل شخص تجاه آخر أو آخرين، بقصد الإهانة أو الإزعاج، أو الإيذاء، من خلال الاتصال الجسدي أو اللفظي، أو من خلال طرائق أخرى تعبّر عن رغبة التسلّط والعدوان عند الشخص المتنمّر. وهذا يعني أنّ التنمرُ يتجلّى في ممارسة القوّة أو الاستقواء، بقصد الهيمنة أو التسلّط على الآخر لتحقيق مآرب خاصة بالشخص المتنمِّر. وهو سلوك مكتسب من خلال التعلّم.

وقد صنّف التنمّر وفق طبيعته، إلى تنمُّر مادي وتنمُّر غير مادي: (Sulliven, 2003,at,al)

1- **التنمّر المادي:** هو الشكل الأكثر وضوحاً في أشكال التنمُّر، ويحدث عندما يؤذي شخص شخصاً آخر بدنيّاً، من خلال التعرّض للعض أو الركل واللكم، أو الخدش وشدّ الشعر، أو أي شكل آخر من الاعتداء الجسدي. ويمكن أن يحدث في أي زمان أو مكان، وفي أية لحظة.

2- **التنمُّر غير المادي:** يشار إليه أحياناً بالعدوان الاجتماعي، ويكون لفظياً وغير لفظي:

2/1- التنمُّر اللفظي: يشمل المكالمات الهاتفية المسيئة، وابتزاز الأموال، والترهيب العام أو التهديد بالعنف، وتوجيه الشتائم العنصرية، واللغة الموحية جنسيّاً، أو إصدار تصريحات قاسية، ونشر شائعات كاذبة وخبيثة.

2/2- التنمُّر غير اللفظي: يكون غير مباشر بقصد التلاعب بمشاعر الآخرين، ويكون مستتراً في أغلب الأحيان؛ ويشمل إشارات ذات دلالات معينة، وينظر إليها على أنّها



غير ضارّة نسبيّاً، ويمكن استخدامها للحفاظ على السيطرة من شخص على شخص آخر، بالتخويف والتهديد، ومن المرجّح أنّه يستخدم في أي وقت.

وكان مركز الولايات المتحدة الوطني لإحصاءات التعليم، قد اقترح تقسيم التنمّر وفق طريقة ممارسته إلى فئتين:

1- التنمُّر المباشر: يتمثّل بالضرب والدفع وشد الشعر والطعن والصفع والعض والخدش وغيرها من الأفعال المؤذية. أي أنّه يشمل الأفعال الجسدية، وهو نوع شائع من أنواع التنمُّر، ويُطلق عليه أحياناً «التنمُّر التقليدي».

2- التنمُّر غير المباشر، يُعرف أيضاً باسم العدوان الاجتماعي؛ وقد وضع روس/ Rsse/عام (1998) الخطوط العريضة للأشكال الأخرى للتنمُّر غير المباشر التي تعدّ أكثر تعقيداً، وتكون في أغلب الوقت لفظية، مثل التنابز بالألقاب، والمعاملة الصامتة، ومجادلة الآخرين حتى الاستسلام،

والتلاعب بالشائعات المختلقة والأكاذيب والتحديق الطويل، والقهقهة والضحك على الضحية، وقول كلمات محدّدة تثير ردّ فعل من حدث سابق، والاستهزاء (Rosse,1998).

كما أشار /روس/ إلى أنّ العدوان الاجتماعي أو التنمُّر غير المباشر يتميّز بتهديد الضحيّة بالعزل الاجتماعي، وتتحقّق هذه العزلة من خلال مجموعة واسعة من الأساليب، بما في ذلك نشر الشائعات، ورفض الاختلاط مع الضحية، والتنمُّر على الأشخاص الآخرين الذين يختلطون مع الضحية، ونقد أسلوب الضحية من العلامات الاجتماعية الملحوظة مثل: شكل الضحية، واللباس، والعجز.. وغيرها. وما يلاحظ من مضمونات الأشكال السابقة للتنمّر وطبيعتها الاستقوائية، أنّها ترتبط بعضها ببعض، وقد يعبّر عن أيّ منها باللفظي أو الجسدي.

ثالثاً- المدارس المفسّرة لسلوك التنمُّر

ثمّة مدارس استندت إلى بعض النظريات لتفسير ظاهرة التنمُّر، ومن أبرز هذه المدارس: المدرسة الاجتماعية، المدرسة التحليلية / النفسية، المدرسة البيولوجية / الوراثية، والمدرسة المعرفية.

1- المدرسة الاجتماعية:

تتبنّى هذه المدرسة نظريتين هما: النظرية السلوكيّة، ونظرية التعلّم الاجتماعي:

1/1- النظرية السلوكية: تركّز على أسباب التنمُّر من حيث أنّه سلوك اجتماعي يتجلّى في النقاط الآتية:

❖ يضع المجتمع مجموعة من القواعد التي تحدّد للأفراد المجالات المقبولة وغير المقبولة، من أنماط السلوك الاجتماعي، وتعدّ التنشئة الاجتماعية من أهم الأدوات التي يضعها المجتمع لتحقيق أهدافه الضابطة؛ وعندما تصاب أدوات الضبط بالضعف، يصبح سلوك الأفراد أقرب إلى الانحراف منه إلى التوافق. ولذلك يرى أصحاب هذه النظرية أنّ التنمُّر هو حالة نمذجة لسلوك نموذج مُتنمِّر، سواء كان أباً أم أخاً كبيراً، أم معلّماً، أو رفيقاً في الحيّ، وهذا ما يعزّز سلوك التنمُّر.

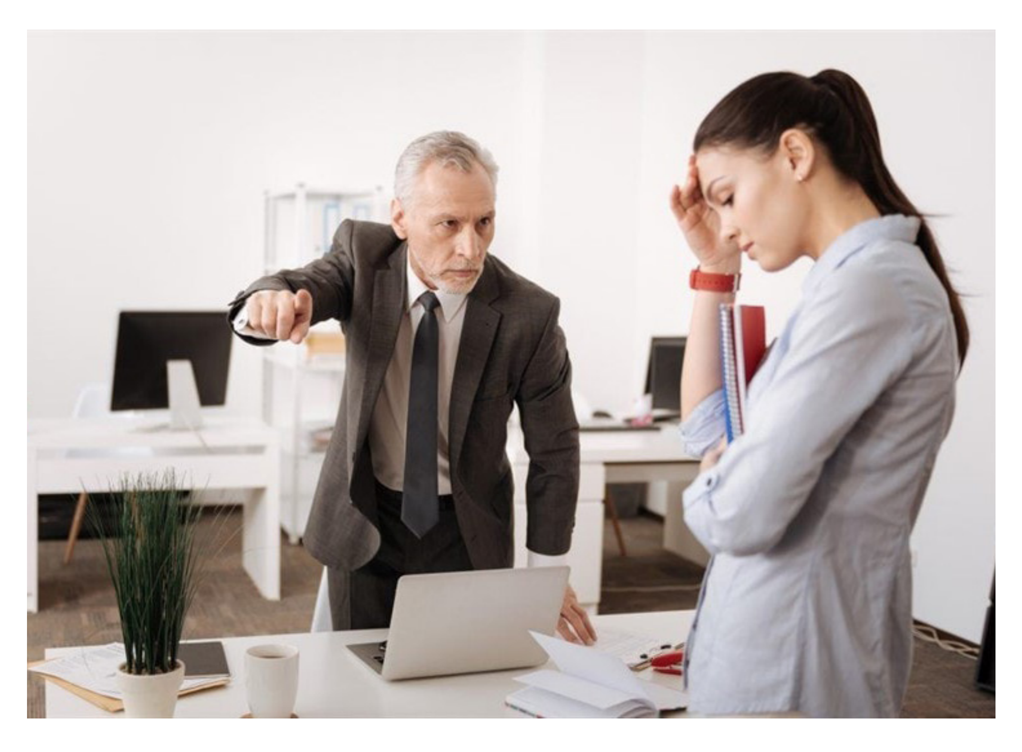
❖ ما يدلّل على ذلك، وجود نموذج يمارس تنمّراً، ووجود حاجة لديه في سلوك التنمُّر، وقدرة المُنمذج على أداء سلوك المتنمِّر وإحراز التعزيز المَطلوب (قطامي والصراريرة، 2009، 87). كما ترى هذه النظرية أنّ التنمُّر لا يورّث، فهو سلوك مكتسب يتعلّمه الفرد أو يعايشه خلال حياته، ولا سيّما في مرحلة الطفولة؛ فإذا ما تعرّض لخبرة العنف في المراحل الأولى من حياته، فهو سيمارسه في الغالب، لاحقاً مع غيره من الناس، وربّما أيضاً مع عناصر طبيعية، نباتاً كان أم حيواناً (عز الدين، 2010، 47). وبذلك يكون سلوك المتنمِّر أو ما يسمّى «الهياج الاجتماعي» ليس إلاّ محاكاة الناس المحيطين به. وكلّما كان النموذج يتمتّع بمكانة مهمّة، زادت محاكاة الفرد لسلوك هذه النموذج. وبذلك يكون التنمُّر- كما يرى السلوكيون - شأنه شأن أي سلوك مكتسب يمكن تعديله من خلال أساليب التربية والتعلّم.

1/2- نظريّة التعلّم الاجتماعي: تعدّ هذه

النظرية من أكثر النظريات شيوعاً في تفسير العنف، حيث تفترض أن الأشخاص يتعلّمون العنف بالطريقة ذاتها التي يتعلّمون بها أنماط السلوك الأخرى. وأن عملية التعلّم هذه تبدأ بالأسرة، فبعض الآباء يشجّعون أبناءهم على التصرّف بعنف مع الآخرين في بعض المواقف، ويطالبونهم بألّا يكونوا ضحايا العنف.

قد تكون هذه النظرية قريبة جدّاً من النظرية السلوكيّة، لأنّها ترى أنّ سلوك الفرد هو سلوك مكتسب، يتعلّمه الفرد من البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها. وتؤكّد هذه النظرية على التعلّم نتيجة التفاعل القائم بين الشخص والمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه. ويعدّ «باندورا» من أبرز روّاد هذه النظرية، إذ يؤكّد أنّ خبرات التعلّم الاجتماعي تؤدّي دوراً مهمّاً في نمو سلوك الشخص؛ لأنّ الأنماط السلوكية يكتسبها الفرد من خلال مشاهدته سلوك الذين يعتنون به. كما يؤكّد «باندورا» على أنّ السلوك العدواني يتعلّمه الشخص من خلال مشاهدة النماذج السلوكية العدوانية، ومن ثمّ يقوم بمحاكاة هذا السلوك أو ذاك؛ على شكل استجابة رمزية يستخدمها في تقليد السلوك الملاحظ. وبذلك يكون العنف عند «باندورا» سلوكاً مكتسباً من خلال التعلّم (Bandora, 1977). ولكن دعاة التعلّم ينقسمون إلى فئتين: ترجع الفئة الأولى، نشأة العدوان إلى الثواب والعقاب والإحباط الذي يتعرّض له الفرد، ولا سيّما في طفولته المبكّرة؛ أمّا الفئة الثانية، فترجع نشأة العدوان إلى التقليد وما يتطلّبه من وجود النموذج المناسب.





بناء على ذلك، يرى أصحاب هذه النظرية أنّ المتنمِّر يعزّز سلوكه من قبل الآخرين المحيطين به، مثل: الأهل والزملاء والأصدقاء، وإحراز النجومية بينهم، وبما يجعله يشعر بأنّه مختلف عنهم ومتميّز. فعلى سبيل المثال: إنّ حصول الطفل المتنمِّر على ما يريد، يدفعه لاتّخاذ مواقف تنمُّرية في الاعتداء علي الآخرين من زملائه، من دون أن يواجه عقاباً من أسرته أو من إدارة مدرسته، فيترك ليمارس اعتداءاته الجسديّة على الآخرين (قطامي وآخرون، 2009). فالسلوك العدواني مكتسب من خلال متابعة الطفل ملاحظة نموذج معيّن، حيث يقوم باستيعاب مواقف هذه النماذج السلكية المضطربة وتخزينها في ذاكرته، إلى أن يجد التعزيز المناسب لإظهار سلوك العدوان التنمّري.

وبما أنّ السلوك العدواني مكتسب من خلال الملاحظة والتعلّم، فإنّه كما يرى «باندورا» مظهر سلوكي قابل للنقل والعدوى، وأنّ الناس يتعلّمون السلوك العدواني من خلال ما يفعله الآخرون أمامهم ومعهم، ويمارسون السلوك العدواني نتيجة المكافأة التعزيزية التي يحصلون عليها . وبذلك حدّد «باندورا» ثلاثة معايير لسلوك التنمُّر، وهي: (خصائص التنمُّر نفسه، كالتنمُّر الجسدي، وشدّة السلوك، وخصائص الشخص المتنمّر «عمره، جنسه، وسلوكه السابق»، وخصائصَ الضحيّة).

3/1- نظرية الضغوط العامة:

تفسّر نظرية الضغوط العامة (General Strain Theory) عمليات الانحراف وخرق القانون والنظام، من خلال القوى والدوافع الكامنة في البناء الاجتماعي، أو من خلال الاستجابة للحوادث والظروف البنائية التي تعمل كضغوط أو مقلقات، ولا سيّما عندما لا تتاح للأفراد الفرصة لتحقيق أهدافهم المقبولة اجتماعيّاً، ولا تتوقّف مصادر الضغوط على الإحباط الذي يعيشه الفرد عندما تُسدّ أمامه الطرق لتحقيق هدف ما، وإنما تتضمّن أيضاً المشاعر السلبية التي تحدث في المواقف الاجتماعية المتنوّعة (السميري، 2009، 35). وبذلك تقترب هذه النظرية من نظرية التعلّم الاجتماعي، من حيث تأثير البيئة المحيطة بالفرد على تكوين سلوكاته الإيجابية والسلبية، وذلك بحسب المثيرات التي يتلقّاها الفرد، وما يرافقها من تعزيزات في المواقف المختلفة.

2- المدرسة النفسيّة:

إذا كانت المدرسة الاجتماعية تؤكّد على التفاعلات الاجتماعية، والعلاقات داخل الأنساق الاجتماعية، وتعتمد على القوّة أو على التهديد بها، إذ يلجأ المتنمّر إلى استخدام العنف والعدوان، فإنّ مدرسة التحليل النفسي، ترى أنّ سلوك المتنمّر هو نتاج التناقض بين دوافع الحياة والموت، وَتحقيق اللذّة عن طريق تعذيب الآخرين وعقابهم، والتصدّي لهم كي لا ينجحوا في حياتهم؛ وما يدعم هذا الموقف هو الاعتداء والتخريب، والتفكير بالانتحار، والاتكالية (قطامي وآخرون، 2009). وهذا يؤكّد آراء زعيم مدرسة التحليل النفسي «سيجموند فرويد» التي مفادها أنّ: العدوان هو الدافع الأساسي والمحرّك الرئيس للإنسان، مثله مثل الدوافع الفيسيولوجية الأخرى، كالمأكل والمشرب.

يرى «فرويد» أنّ الإنسان مزوّد بغرائز للموت، وأخرى للحياة، وأنّ غرائز الموت تسعى لتدمير الإنسان، وعندما تتحوّل إلى خارج ذات الإنسان، فإنّها تصبح عدواناً على الآخرين، وذلك بسبب الطاقة النفسية التي تقود إلى العدوان والتنمُّر (عز الدين، 2010). وهذا يعني – وفق هذه النظرية – أنّ الإنسان يمتلك دوافع غريزية متناقضة، تتمثّل في حفظ حياة الفرد من جهة، وحفظ النوع من جهة أخرى.

فالعدوان هو الدافع الأساسي في حياة الفرد والجماعة، وأنّ الحياة تنحو باتجاه مظاهر العدوان المختلفة، فمن السيطرة إلى التسلّط، والرغبة في التمايز والتفوّق على الآخرين؛ وبالتالي يعدّ العدوان تعبيراً عن إرادة القوّة، المتمثّلة في السيطرة على الآخرين والتحكّم بهم. وترى «كارين هورني-K.Horni» أنّ دافع العدوان مكتسب وليس فطريّاً، وهو وسيلة يحاول الإنسان أن يحمي أمنه من خلالها؛ فالطفل القلق الذي ينعدم لديه الشعور بالأمن، ينمّي الأساليب المختلفة ليواجه ما يشعر به من عزلة وقلّة حيلة؛ إذ قد يصبح عدوانياً ينزع إلى الانتقام من هؤلاء الذين نبذوه وأساؤوا معاملته (حسين، 2007). وقد يؤدّي الإحباط الشديد إلى ظهور بعض الممارسات العدوانية، التي تعتمد على كمية المشاعر الناجمة عن حالة الإحباط؛ لأنّ الإحباط يولّد

الغضب، والغضب يؤدّي إلى العدوان، والعدوان يولّد العنف، الذي يتحوّل بدوره إلى سلوكيات مضطربة، قد تتحوّل إلى الانتقام.

ولكن «فرويد» انتهى بعد مراحل متعدّدة لتفسير السلوك العدواني، إلى صوغ فرضية جديدة، مفادها: أنّ غريزة العدوان لا تتبع غريزة الجنس، بل تتبع من غريزة الموت، ولذلك فإنّ الهدف الأول للعدوان هو تدمير الذات؛ ولا تصبح هذه الغريزة موجّهة نحو الموضوعات الخارجية، إلاّ بعد تحريرها من نظام الذات تحت تأثير الليبيدو النرجسي. وأخذت «ميلاني كلاين»، المرحلة الثالثة من تفسير «فرويد» للسلوك العدواني، ورأت أنّ غريزة الموت تكون فطرية، وهي غريزة أولية وحقيقة ملموسة يمكن مشاهدتها من حيث تقدّم نفسها وهي تقاوم غريزة الحياة، ويظهر ذلك من خلال الطمع والغيرة والحسد، كتعبيرات واضحة عن غريزة الموت (عز الدين، 2010). وكثيراً ما يظهر العنف في حالات قلّة الموارد التي يحتاجها الفرد، والأوضاع الحياتية التي يعيشها، ولا سيّما الفقر والجهل، والشعور بعدم تكافؤ الفرص في العدالة والمساواة، وغيرها من الحاجات الأساسية التي تهيّء للعنف وارتكاب الجرائم.

وثّمة من عارض هذه النظرية، لأنّ الغرائز لا تعمل للفناء الجماعي، وإلاّ لفنيت الغرائز، ولا يوجد في دماغ الإنسان ما ليس موجوداً في أدمغة بعض المخلوقات الأخرى؛ فلا يصحّ أن نجعل من دماغ الإنسان خلايا عصبية خاصة به، ولا يعقل أن تظهر في أرقى المخلوقات وسيّدها، بل إنّ ظهور الوعي يلازمه ظهور العنف الجماعي، والذبح والتمثيل بين الأخوة (الدر، 1983، 362). وبذلك تقدّم المدرسة التحليلية تفسيراً واضحاً للعدوان، إذ إنّ خاصية العدوان تمتدّ جذورها في الطبيعة البشرية، وهي كامنة وتُثار إذا ما اعترض نشاط الشخص استجابات تمنعه من تحقيق هدف ما، وتأخذ أشكالاً متعدّدة، من بينها العنف الذي يصبح استجابة طبيعية من استجابات الشخص، تناسب الموقف المثير.

3-المدرسة البيولوجية / الوراثية:

ربطت هذه النظرية بين التنمُّر والعوامل الوراثية، وبين الصفات العدوانية التي تتّسم بالعنف؛ والسبب الواضح في هذه النظرية، هي الصفات الموروثة والمتأصّلة عند الفرد، حيث يرث الميول الإجرامية من أحد أبوية أو أسلافه. فالسلوك العدواني سلوك بدائي له جذور فسيولوجية، وهناك علاقة بين العدوان والـ (هيبوتلاموس) في المخ، لأنّ هذا الجزء يتحكّم في العمليات التلقائية مثل: درجة حرارة الجسم، وشربات القلب، وإفراز الهرمونات؛ كما تتأثر العمليات الانفعالية بذلك. فقد رأت هذه المدرسة أنّ تغيّر مستوى الهرمونات يؤثّر في سلوك الفرد،، ولا سيّما هرمونات الذكورة (التيستو سيتيرون) فهي مرتفعة لدى المجرمين، مرتكبي الجرائم العنيفة، وذلك بعكس النساء، إذ يرتكب الرجال ستة أضعاف ممّا ترتكبه النساء من جرائم القتل، ولا سيّما في المرحلة العمريّة التي تتّسم بارتفاع معدّل هرمون الذكورة (حسين، 2007). وهذا يشير، وربّما يؤكّد أنّ ثمّة علاقة وثيقة بين وجود

هرمونات الذكورة وظاهرة التنمُّر، وهذا يعني بالتالي أنّ زيادة التنمّر عند الذكور أكثر منه عند الإناث.

إنّ تغلّب الهرمونات وأمينات البيولوجية، تسبّب عنفاً طارئاً أو مزمناً لدى الشخص، ولا سيّما إذا اشتدّت الآليات العصبية الدافعة إلى السلوك العاطفي؛ فالشخص المصاب بخلل في ميزانه الكميائي يشتدّ هيجانه، كما تزيد درجة عنفه وتنمّره إذا حقن بهرمون الذكورة (التيستو سيتيرون) كما يزيد من الثقة بالنفس (الدر، 1983). فالعدوان إذن، يحدث نتيجة استعداد نفسي/ جسدي يولد مع الكائن الحي، يجعله مستعداً لأي سلوك خاص يتناسب مع المثير في هذا الموقف أو ذاك، حيث يشعر بانفعال يدفعه إلى القيام بتصرّف ملائم إزاء الموقف الذي يواجهه.

وفي الجهة المقابلة، يرى بعض الباحثين عدم وجود أية علاقة ارتباطية بين الهرمونات والسلوك العدواني، وأن الهرمونات ترتبط فقط بحدوث تغيّرات فسيولوجية توازي مشاعر الخوف والغضب، والتي غالباً ما تسبق السلوك العدواني. وأن الزيادة في مستوى هرمون الذكورة ليس وحده المسؤول عن السلوك العدواني العنيف، بل إنّ هناك العديد من المثيرات والظروف البيئية التي تؤدّي إلى ظهور السلوك العدواني عند الفرد (حسين، 2007).

وهذا ما يشير إلى أنّ ما يؤخذ على هذه المدرسة، أنّها اهتمّت بالعوامل الوراثية في تحديد سلوك التنمّر والعدوان، وأهملت العوامل النفسية التي تعدّ من مسبّبات سلوك التنمُّر، كما أهملت العوامل البيئية التي تؤدّي دوراً مهمّاً في إكساب الفرد سلوكات معينة، قد تكون سلبية كسلوك التنمُّر، مقابل بيئة تعمل على تعديل سلوك التنمُّر.

4- المدرسة المعرفية:

ترى هذه المدرسة أنّ سلوك التنمُّر يعود إلى فشل المتنمِّر في فهم الموقف الذي يتعرّض له، وتدنّي القدرة على النجاح في عمليات المعالجة



الذهنية، إضافة إلى فشل في الانتباه والتركيز، واستخدام قدرات التعلّم والإنجاز، وتحقيق النجاح. أي أنّ سلوك التنمّر ينشأ من فشل الفرد المتنمِّر في العمليات المعرفية.

وثمّة نظريتان في المدرسة المعرفيّة، هما: نظرية بيركيويز Berkiowiz - ، ونظرية بياجه Biajet -:

4/1- نظرية بيركيويتز وزيلمان Berkiowiz, Zillman:

تنطلق الفكرة الرئيسة في هذه النظرية من أنّ الفرد عندما يواجه مثيرات جديدة، مثل المثيرات العدوانية، فإنّ المعلومات التي يتمّ تخزينها في الذاكرة وترتبط بالمثير الجديد يتمّ استدعاؤها، حيث إنّ المعلومات التي تمّ تخزينها تنتظم من خلال أطراف أو أقطاب، وكلّ منها يمثّل مفهوماً منفصلاً، ولكنّه يرتبط بالآخر؛ وترتبط هذه المفاهيم من خلال مسارات ترابطية في العقل (حسين، 2007). ووفقاً لهذه النظرية، فإنّ ثمّة عمليات معرفيّة تكمن وراء السلوك العدواني، وأنّ المكوّن المركزي في العملية المعرفيّة يتضمّن معالجة المعلومات الاجتماعية، وأنّ الإحباط لا يؤدّي بالضرورة إلى العدوان، ويمكن أن يكون الغضب وسيطاً مهمّاً في ذلك.

4/2- نظرية جان بياجه J.Biajet :

أشار «بياجه» رائد هذه النظرية، إلى أنّ الفرد من خلال عملتي التمثّل والمواءمة يكوّن بنىً عقلية، ومخطّطات إجمالية معيّنة، يستخدمها في تجهيز المعلومات التي ترد إليه وتزيد من قدرته على مواجهة مشكلاته مع البيئة وتفاعلاته معها، حيث يرى أنّ المخطّطات الإجمالية العامّة، هي التكوينات المجرّدة في الذاكرة، التي تسمح بتصنيف المعلومات الجديدة وتنظيمها، وتشكّل الكيفية والطريقة التي ينظر بها الفرد إلى العالم، ويتمثّلها عقلياً (عز الدين، 2007).

وقد حدّد الباحثون عوامل أخرى لحدوث التنمُّر، مثل الاكتئاب واضطراب الشخصية، وكذلك سرعة الغضب واستخدام القوّة، والإدمان على السلوكيات العدوانية، وسوء فهم أفعال الآخرين على أنّها معادية، والقلق من الحفاظ على صورة الذات، والانخراط في أعمال الهوس أو العنف (Kumpulainen, 2008) . وهذا يعني أنّ التفاعلات البيئية، وطريقة الاكتشاف والإثارة، ما هي إلاّ تعزيزات تجعل الفرد يشكّل العالم على طريقته الخاصة، حيث يستخدم أساليب منحرفة يرى فيها المخطّطات السويّة التي يواجه بها أشكال التنمّر في العالم، والناتجة عن زيادة تفاعلاته مع بيئة محيطه الخارجي.

مراجع البحث

- حسين، طه عبد العظيم: (2007) إستراتيجيات الغضب والعدوان، دار الفكر، عمّان.
- الدر، إبراهيم فريد: (1983) الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- الدسوقي، مجدي محمد: (2014) مقياس تقدير أعراض اضطراب السلوك الفوضوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

- السميري، عبد الرحمن: (2009) اتجاهات المحكومين نحو نظام العدالة الجنائية في المملكة العربية السعودية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة، ص 35-36.
- عز الدين، خالد: (2010) السلوك العدواني عند الأطفال، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان
- قطامي، نايفة والصرايرة، منى: (2009) الطفل المتنمِّر، دار المسيرة للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان
- مجمع اللغة العربية (2001) المعجم الوجيز، الهيئة المصرية العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ‹ https://ar.wikipedia.org › wiki
- Bandura A (1977) Social Learning Theory. Englewood Cliffs, Prentice-Hall.
- Crothers, L. M. & Levinson, E. M (2004) Assessment of Bullying: A review of methods and instruments. Journal of Counseling & Development, 82(4), 496-503.
- Hines, H(2011) Traditional Bullying and Cyber-Bulling: are the impacts on self-concept the Western Carolina University in Partial Fulfillment.
- Kim. Y.S(2004)A study of personal and Environment Factors Influencing Bullying, Dissertation at Faculty of Psychology and Educational Sciences at the Ludwig , Maximilians University Munchen.
- Kim. Y.S, Leventhal B (2008) “Bullying and suicide. A review”. International Journal.
- Kumpulainen K (2008) “Psychiatric conditions associated with bullying”. International Journal of Adolescent Medicine and Health,20(2)pp(32-121).
- Ross, P.N (1998) Arresting violence: A resource guide for schools and their communities. Toronto: Ontario Public School Teachers’ Federation.
- Sampson, R(2002) Bullying in Schools, the Office of Community Oriented Policing Services , Washington, U.S.
-Solberg, M; Olweus, D (2003) Prevalence Estimation of School Bullying with the Olweus Bully/Victim ,9 Questionnaire. Aggressive Behavior, 29, 239 268. عن ويكيبيديا
- Sullivan, K:Cleary.M & Sullivan, G(2003) Bullying in Secondary Schools. What it Looks like and how to Manage it, Aseca Publication Company , London.



كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا!

كتاب للمستشرق الألماني «هاينكه زودهوف»

أ.د.عمار محمد النهار*

إنَّ هذا الكتاب[١] من أهم الكتب الموضوعية الوثائقية، يدلّل فيه المؤلّف عن طريق دراسات أثرية واسعة مستفيضة عن حقيقة لطالما شغلت الأوساط العلمية، ولطالما أوقعت العلماء في سجالات طويلة مريرة، إذ يسعى إلى سوق الأدلة حسب مبدأ البيِّنة التراكمية الهادفة إلى إثبات أن عبور الأطلسي قبل زمن كولومبوس لم يكن ممكناً فحسب بل إنّه جرى فعلاً.

(١) هاينكه زودهوف: معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، ت: حسين عمران، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠١م

فهناك العديد من الإشارات التي تبدو مفاجئة كملاحظات فردية، ولكنها في مجملها تندرج في سياق الإثبات المقنع لهذه النظرية، إن الآثار التي خلَّفها بحَّارة العالم القديم في أمريكا القديمة تمت الإحاطة بها وقُوِّمت في شكل سيرورة من القرائن التاريخية الثقافية، ووُضعت في علاقة ذات دلالة وبالتالي رُبطت بعلاقاتها مع تاريخ العالم الثقافي القديم.

وانبثقت في هذا الكتاب حلقات متعدّدة لسلسلة من البراهين من مجالات الحياة والعلوم المختلفة، التي يجري تقسيم الكتاب تبعاً لها، وتمَّ التركيز على المشاهدات في مجال علم الفسيولوجيا وعلم تعابير الوجه، والتي أدَّت إلى تحديد أنموذج الهندي الأحمر مقابل الغرباء «من العالم القديم»، والذي مكَّن من إجراء المقارنة وجود أعداد كثيرة من صورهم وموميائهم وجماجمهم.

المهم أنَّ الكتاب يثبت أنَّه ومنذ أن وجدت سفن بحرية صالحة للنقل البحري توفَّرت حينئذ شروط عبور الأطلسي، وكان لدى الفينيقيين سفن صالحة للنقل البحري منذ الألف الثانية ق.م، كما كانت تتوافَّر لديهم معارف ممتازة في الملاحة، ولذلك امتدح مؤرِّخو العصر القديم الفينيقيين صراحة، واتفقوا على أنَّهم بحَّارة ضالعون تمكنوا من الدوران حول أفريقيا في الألف الأولى ق.م.

أولاً - رسالة إلى كولومبوس:

لقد ابتدأ هاينكه كتابه بتوجيه رسالة قاسية إلى كولومبوس، وبما أنه قد فارق الحياة قبل هاينكه بزمن مديد، فلا أعتقد أن هاينكه يقصده بشكل مباشر، وإنما يريد أن تصل هذه الرسالة إلى الذين لا يزالون يمجِّدونه ويعدُونه المكتشف الأول لأمريكة، وإلى الذين يقفون أمام الحقائق موقف المستهزئين وموقف المنكرين، فهم المقصودون الحقيقيون في هذا الكتاب.

يقول هاينكه في هذه الرسالة المشار إليها: «معذرة يا كولومبوس، أنت لم تكن الأول! ولم تكن أمريكة تنتظرك بكراً، غير مكتشفة، بل عرفت شواطئها قبلك بعضاً من بحارة العالم القديم.

إنَّها النجوم نفسها التي اهتديت بها ونفس التيارات البحرية التي استخدمتها، ونفس الرياح التي قادتك عبر الأطلسي هي التي نقلت قبلك بزمن بعيد بحّارة لم تكن سفنهم أقل شأناً في البحر من سفينتك (سانتا ماريا)، سننزع من فوق رأسك أغصان الغار التي وضعها العالم قبل خمسمائة عام على شعرك المجعَّد الأشيب على أنَّك مكتشف أمريكة، غير أنَّنا لن ننكر عليك إنجازاتك بحَّاراً كفؤاً، ماهراً، ونؤكد لك بكل قوة تقديرنا لتصميمك الذي من خلاله استطعت أن تشقَّ طريقك بعزم من بحَّار مهيض الجناح قادم من جنوة، إلى صاحب حظوة في بلاط الملك الإسباني إلى أن وصلت إلى هدفك بكل فخار، وكان عليك أن تتخطَّى سنوات طوال من العمل المقنع قبل أن تضع الملكة أخيراً تحت تصرفك السفن ومبلغاً زهيداً من المال، احتجته في طريق رحلتك البحرية إلى الهند، كل هذا يلزمنا أن نقدِّم الاحترام لك، وإنها لأحجية كيف أبدعت بالحديث عن خططك الرائعة وفنونك

الملاحية، وحساباتك الجغرافية وأقنعت بها الملك».

بعد ذلك يصل هاينكه إلى إيضاح الأسباب الحقيقية لرحلة كولومبوس ونواياه منها، فيصرِّح بما يأتي: «وكذلك تأثَّرت بكنوز البلدان البعيدة، فالعلامات والإشارات التي كنت تضعها على مقاطع هامة من كتبك الدراسية تنبئ عن اهتمامك بالجواهر واللآلئ والذهب والفضة، هل كنت ضحية لما سُمِّي (الجوع المقدس للذهب)؟ أو الافتتان بالغنى المادي حيثما وجدت القوة المُحركة الكبرى لطموحك إلى الاكتشافات؟. سندع الإجابة عن هذه الأسئلة تنبئ عن نفسها، وبدلاً منها سنتطرَّق إلى النقطة المحيرة الأخيرة في قصة حياتك، ويتعلق الأمر في ساعة انتصارك، ففي الثالث من آب 898 هـ / 1492م، انطلقت السفن بإمرتك كأدميرال ملكي مكلَّف من الملكة إيزابيل، حدث تاريخي نوَّهت عن أهميته في مذكِّراتك بشكل محيِّر وغريب، كلماتك الأولى التي كتبتها وأنت في عرض البحر كانت موجَّهة إلى البيت الملكي الإسباني وسنذكرها هنا بسبب لهجتها غير الاعتيادية: (بعد أن طرد جلالته كلَّ اليهود من المملكة كلَّفني بالإبحار بأسطول ضخم إلى ما يسمَّى الهند).

نسأل أنفسنا ونسألك: ما السبب في الربط الفكري في هذه الكتابة بين اضطهاد اليهود والمهمة الملكية لكولومبوس، لا يوجد علاقة فعلية بين هذين الحدثين، أي اضطهاد اليهود وشروعك في النجاح اللذين كانا لك ذوي أهمية وجودية في علاقتهما القدرية معتبراً إياهما شيئاً واحداً».

وفي نهاية هذه الرسالة يُظهر هاينكه الهدف الرئيس المنشود في كتابه هذا، فيقول: «نطرح هذه الأفكار في بداية كتابنا لكي نؤكد إنجاز عمرك كغازٍ للعالم الجديد الذي قمت به رغماً عن الظروف، غير أنَّه علينا أن ننزع عنك لقب (مكتشف أمريكة) لأنك لم تكن البحَّار الأول الذي عبر المحيط الأطلسي ووصل إلى شواطئ أمريكة بأية حال من الأحوال، ونظنُّ أنك لست متفاجئاً حقاً من أنك سمعت عن الذين سبقوك في طريق الأطلسي، لا بل نؤكِّد معرفتك بالطريق البحري إلى الهند».

بعد هذه الرسالة المؤلمة يبدأ الكتاب باستعراض الحقائق، فيباشر بالحديث عن حقائق وقصص تاريخية.

ثانياً - حقائق تاريخية:

يشير هنا «هاينكه» إلى أن الفينيقيين عمدوا إلى تأسيس مراكز تجارية، أو بالأحرى مدن مستعمرات على الشواطئ الغربية التي يمموا شطرها بانتظام في رحلاتهم التجارية، ولا يعرف شيء عن صعوبات جرت مع سكان الدول الأجنبية، على العكس، حيث ورد أن الفينيقيين لم يتلقوا على الشواطئ الأجنبية كمستوطنين فحسب بل كحملة لثقافة أجنبية، وهذا لا يدل على أن ثمة تسامح ديني فقط، بل على وجود توافق عام بين الشركاء التجاريين.

ومن أقدم نقاط الارتكاز في (السياسة الاستعمارية الفينيقية) مدن ممفيس وقبرص وأوتسيكا في شمال أفريقية، وأسس الفينيقيون في القرن الثاني عشر (ق.م) قادش التي تميزت عن أقدم نقاط الارتكاز التجارية الفينيقية

من خلال كونها لا تقع ضمن البحر المتوسط المحلي بل على الضفة الأخرى «لأعمدة هرقل» المخيفة، أي في ممر جبل طارق على ساحل الأطلسي، إن اختيار موقع هذه المدينة الكولونيالية الفينيقية هو لغز وجواب في آن واحد، فعندما قرّر الفينيقيون خوض مغامرة ممر جبل طارق الخطر، فلا بد أن يكون المشروع يستحق المجازفة بالنسبة للتجار الأذكياء، فكانوا يتوقعون من هذا الاستثمار الخطر مكسباً تجارياً، ولم يكن هناك بد من خوض مغامرة قادش، وبحساب دقيق.

فعلى الشاطئ الآخر من أعمدة هرقل، وعلى الشاطئ الآخر للأطلسي تنتظرهم إمكانيات كسب وفيرة.

وعلى الرغم من توافر مجالات العمل وإمكانيات الكسب للفينيقيين في البحر المتوسط المضمون تجرؤوا على التوجه نحو الأطلسي.

تحديات البحر وآفاق الربح دعت الشعب البحري على ما يبدو لكي يعير تجهيز السفن تجهيزاً ممتازاً، وهذا ما تؤكده قادش.

لقد برهن الفينيقيون من خلال تأسيسهم لهذه المدينة المستعمرة ليس فقط عن رحلاتهم المنتظمة الأطلسية، بل عن استعدادهم للمجازفة.

ومن المعروف أن قرطاجة كانت تُعد أهم مدينة مستعمرة فينيقية مهيأة من خلال موقعها المركزي على ساحل شمال أفريقيا لتتبوأ مركزاً مهيمناً ضمن مدن المتوسط التجارية.

وبعد أن تأسست قرطاجة كابنة لمدينة صور، ارتبطت أولاً ولقرون عدّة بصلات مع المدينة الأم المشرقية، غير أن هذا الوضع تبدل في القرن السادس ق.م، عندما تمكنت قرطاجة من انتزاع السيطرة بسبب تغير الأوضاع السياسية في الساحل الشرقي لغير صالح المدينة الفينيقية الأم.

كان الملك البابلي نبوخذ نصر قد قاد معظم اليهود إلى الأسر البابلي التاريخي، ودمَّر القدس عام 586 ق.م، ثم إن المدن الفينيقية حوصرت وغُزيت في نهاية الأمر، وتمكنت صور في البداية من مقاومة الحصار لمدة ثلاثة عشر عاماً لأنها كانت تقوم على اليابسة ومحاطة كرأس جزيرة جعلت من العسير على العدو اختراقها.

خلال كل تلك السنوات ظلت السفن في المدينة المحاصرة سليمة في مرفأ صور، ومن يستغرب إذن كيف يخمن بعض المؤرخين بأن سكان صور استغلوا الفرصة للهرب؟

ويعرف المؤرخ الروماني (ديودروس سيكولوس) على ما يظهر إلى أين كانت وجهة الهرب، حيث يقول في هذا المجال: «إن القرطاجيين منعوا سكان المدينة الأم المهمومة من تأسيس مستعمرة في الغرب النائي»، وعلى هذا الأساس ولتأكيد المنع هذا وفي آن واحد لإقامة حاجز تجاه هروب اللاجئين الفينيقيين أغلقت قرطاجة في عام 540 ق.م ممر جبل طارق تجاه كل السفن الأجنبية، وهكذا ظل هدف الهروب مفتوحاً فقط أمام القرطاجيين لسنوات عدّة.

كان الفينيقيون أنفسهم قد هربوا قبل مدّة طويلة وبعضهم من السكان

الأصليين لكي يستقرّوا باتجاه الغرب إلى الجزر النائية، في رحلة استغرقت ثلاثين يوماً من الإبحار، هذا ما يدلي به سترابون الذي يقتبس من الأفارقة أقوالهم الدالة على منطقة نائية تقع في الغرب التي لم يعرفوا عنها شيئاً سوى الأحاديث.

وتتفق هذه الكتابة أو الوصف تماماً مع ما أورد أرسطو في كتاب «المنطقة المجهولة» حيث يتحدث عن مدن فردوسية الجمال بغاباتها وأثمارها تقع في الغرب البعيد، أنهارها صالحة لاستخدام السفن، وفيها جبال عالية، ولم يكن يُعرف عن أرسطو أنه خيالي، لهذا يمكن القول إن أرسطو كان يعكس في وصفه الواقع العلمي الدقيق لعصره، ثم إنه ليس من الضروري التمسك بتعبير «جزيرة» ويمكن للمرء أن يتصور كيف أن بحاراً يرى من بعيد عند الأفق أرضاً مجهولة، فمن غير المعقول أن يعتقد بأن ما رآه يمكن أن يكون قارة، بل يخطر له أقرب شيء إلى ذهنه «الجزيرة»، والجزر موجودة بامتدادات مختلفة، يذكر ديودروس سيكولوس على سبيل المثال «جزراً ذات امتداد واسع قبالة شواطئ أفريقية»، ويتحدث أفلاطون عن جزيرة «أكبر من آسيا وليبية (أفريقية) مع بعضهما» وقد تكون بحجم أمريكة .

كان أرسطو قد علم عن هذه الجزر النائية من الكهنة المصريين الذين صنفوا هذا النوع من المعارف كعلم سري، غير أن الجزر النائية في الغرب لم تكن بدورها بهذه السرية.

يشير ديودروس سيكولوس أن الفينيقيين: «أخبروا كل العالم عن هذه الجزر بعد أن تعرفوا على جمال وخصوبة البلاد المجهولة»، وبهذه الملاحظة ينوّه المؤرخ بالتأكيد على فترة ازدهار الفينيقيين، حيث لم يكن رجال البحر الناجحون أولئك يخشون أحداً من المنافسين المحتملين في طريق الأطلسي.

وعلى مدى قرون طويلة لم يكن بوسع أحد اللحاق بالسفن الفينيقية، كانت كل السواحل مجال عملهم، وحتى في زمن هوميروس كانت أفضل الأماكن في السواحل الأجنبية تحت سيطرة الفينيقيين.

وقد مكّنهم موقعهم الذي لم يكن أحد يقدر على منازعتهم إياه من سلوكهم أحياناً ممارسات شتى وفظة: كانوا يسوقون سكان السواحل الأجنبية الذين يريدون تملكهم إلى سفنهم مستخدمين العنف أحياناً ثم يقومون ببيعهم في الموانئ الأجنبية كعبيد، هذا ما كانت تتناقله على أي حال ألسنُ معاصريهم.

واجه الفينيقيون المصاعب اللغوية في السواحل الأجنبية بأسلوب «التجارة الصامتة»، كان يجري تحميل السفن بالبضائع ثم يُصار إلى نشرها على السواحل الأجنبية، بعدها يتراجع العارضون إلى سفنهم ويراقبون عن بعد كيف يقترب السكان الأصليون لتفحّص التحف الفينيقية وليقرّروا بعدها أي سعر يناسب البضاعة، بعدها يضع السكان ما يقابل البضاعة المعنية بعملتهم المحلية إلى جانب البضاعة ثم ينسحبون، وبعدها يأتي الفينيقيون مجدداً من سفنهم كي يقرروا من طرفهم ملاءمة السعر المعروض، فإذا ما لاقى قبولهم يأخذون النقود ويتركون البضاعة مجدداً ويبحرون باتجاه المرفأ الذي يليه.

واستعراض المزيد من نصوص العصر

القديم، لن يقدم معارف جديدة، إلا أن ما يهم القارئ الحصيف هو على الأقل إشارة إلى أن بحارة العصر القديم لم يستطيعوا عبور الأطلسي فحسب، بل إنهم بالفعل أنجزوا ذلك.

ثالثاً - تطابق في الآلهة والأبطال:

هنا يورد الكتاب لكل باحث ومهتم معلومات ثمينة عن اكتشافات أثرية ومن ثم دراسات مقارنة عن هذه الاكتشافات، ففي منطقة المايا التي هي الآن غواتيمالا اكتشف شكل صغير بمقاسات جسم قزم، ولا يبلغ حجم الرأس ثمن طول الجسم الكلي بل ربعه، يتطابق الشكل هذا في كل تفاصيله الإفرادية مع الدراسة الرمزية لـ«بيس» إله الشرق الأدنى في العصور القديمة: أرجل قصيرة ورأس مشوه بلحية شعثاء ولبدة غليظة، ثم جلد الحيوان على الأكتاف بطبيعة الحال، أما مقاسه فيبلغ 20 سم، كما يعتقد العلماء أنه يعود إلى الزمن الإمليكي المتأخر، أو بالأحرى إلى المدة الانتقالية إلى حضارة المايا الكلاسيكية (500 ق. م إلى نحو صفر)، إذن، فهذا الإله القزم الأمريكي يرجع تحديداً إلى المدة الزمنية التي كان ينتشر فيها تقديس (بيس) في الشرق الأدنى على نطاق واسع.

ومن اللافت ذلك التطابق بين شكل أيقونة صورة بيس في منطقة البحر المتوسط التي لا يظهر فيها سوى رأس الجني ذو اللحية، وبين شكل الوجه المشوّه الذي وُجد في منطقة (كورييرو في المكسيك) وعليه اللحية الكثّة التي هي بطبيعة الحال غير معروفة عند الهنود الحمر، فاللحية العريضة هنا تغطي كامل الوجه المعروض بصورة كاريكاتورية، وينقسم جزؤها السفلي إلى قسمين مجدولين كما هو معروف عن شكل بيس في أيقونات الشرق الأدنى، وثمة ملاحظة: الجني الملتحي من كورييرو موجود اليوم في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي الشهير، لكن ليس في إحدى خزائن العرض بل في الدرج، كما يقول (فوتيناو)، ولربما يكون السبب في إخفاء الشكل إلى أن المرء لا يعرف ماذا ستكون مسؤولية الكتابة التوضيحية لهذا «الجنّي الملتحي» من المكسيك ما قبل كولومبوس.

وكما هو الحال عند الشكل (بيس) عَبَرَ (جني) آخر المحيط الأطلسي: إنه هومبابا (أو شوفافا أو خومبابا)، وهو يؤدي في أنشودة جلجامش دوراً هاماً كمنافس للبطل، ويقوم بمهام حماية غابات الأرز المقدسة في لبنان، وهو بدوره هذا له وظيفة هامة جداً في نظر أولئك الذين يقدرون خشب الأرز كمادة ثمينة.

إن اهتمام الفينيقيين الكبير بحامي غابات الأرز المقدسة أمر مفروغ منه، لأن نجاح هذا الشعب التجاري يعتمد كثيراً على ترويج خشب الأرز، الذي تُصنع منه السفن الفينيقية الظافرة.

وثمة مثال جديد عن نوع يحمل مضامين فكرية للجنّي المجعد ذي العلامة على الجبين، وهو قناع أمريكي قديم من المكسيك، يظهر في نصف الوجه الأيسر نموذج هومبابا المجعّد، بينما يظهر في النصف الأيمن رأس ميت، وكما يوجد على الجبين علامة شبه دائرية تحمل رمزاً من الكتابة الأمريكية القديمة لكلمة «موت»، وتُعطي هذه المنقوشة الرمزية النافرة للقناع المقسوم إلى جزأين معنًى

تحذيرياً عن الموت، ويمكن الاستنتاج من خلال ذلك أن القناع المشوه ذا العلامة على الجبين كان له صلة بموضوع الموت في العالم القديم وفي أمريكا القديمة، وكان له وظيفة دفاعية، وليس التطابق الأيقوني وحده بل الوظيفة نفسها تجعل استنباط الصور الأمريكية من أشكال هومبابا أمراً ملزماً.

لقد أضاف القدماء لقصصهم الأسطورية عن آلهتهم المتعدّدة كثيراً من التفاصيل المدهشة، بحيث نستطيع التعرّف على هذه التفاصيل بسهولة كبيرة في صورة ظهورها الأمريكية، فمثلاً يجري الحديث عن الإله المصري حورس الذي ولدته أمه الإلهة إيزيس العظيمة في منطقة البوص في دلتا النيل، وطبقاً لذلك كان حورس يُعرض أحياناً على هيئة زهرة البحيرة، أو على الغالب كإله يافع في شكل صقر.

كان حورس واحداً من أكثر آلهة مصر أهمية، وكان فرعون مصر يرى في نفسه تجسيداً لهذه الآلهة، انتصر حورس على الحيوانات الخطرة، وكان إله بلاد النور، وعُدت عيناه رمزاً للشمس والقمر.

ولم يكن من المفاجئ أن يفضي البحث عن حورس فوق الأرض الأمريكية القديمة إلى النجاح، ففي واجهات المعارض الكبيرة في القارة الأمريكية يصادف المرء صورة حورس الصغيرة التي تبدو على أنها ليست استيراداً ثقافياً، وفيها يكون حورس بحجم الإبهام يجلس في وردة البحيرة المتفتحة التي يحملها ساق طوله 15 سم، ومن يجد صعوبة في التصنيف النباتي سيكون سعيداً حين يستنتج أن ثمة صوراً لا حصر لها من أزهار اللوتس في عالم الصور الأمريكي القديم تدعو للمقارنة، وأنه جرى إعداد فيض من الدراسات التفصيلية والرصينة عن وجود زهرة اللوتس الغامض كعنصر للزينة في الفن الأمريكي القديم.

وتكثر المطابقات وتكثر معها البراهين، فهذا الإله المسخ بات - باتيكو المعروف في مصر وفي فينيقية وُجد له شبيه معاصر في أمريكة، ويرجع علماء الأمريكيات صورته إلى المدة ما بين 1200 - 1400 ق.م.

إن تأثير البحارة المتوسطيين على أمريكا القديمة في الألف الأولى ق.م، ومن ثم لاحقاً بأكثر من ألف سنة من خلال البحارة الأوروبيين في الشمال هو واضح وبيّن تماماً، وبمثل الوضوح عينه تبدو المرحلة الطويلة لاستقلالية الحضارة الأمريكية القديمة في الفترة الزمنية الانتقالية حيث تخبو علامات تأثير العالم القديم تدريجياً، بتعبير آخر: لم



تعد المتوازيات في قرون ما بعد الفترة الزمنية الانتقالية إلا مجرد مخلفات وبقايا للمتوازيات التي كانت سابقاً واضحة ومتعدّدة ما بين العالم القديم والعالم الجديد.

وفي نهاية زمن ما قبل الميلاد ابتعدت القارات عن بعضها مجدداً ثقافياً وجغرافياً في وعي الشعوب أكثر مما تبتعد عن بعضها كل سنة سنتمترين اثنين، حسب النظرية الفينيقية المتبعة في تباعد القارات.

لقد توجه العالم القديم نحو أهداف أخرى، ولم يعد البحارة بعد ذلك يوجدون في رحلات استكشافية ولا كتجار.

ومن الواجب مقارنة صورة مثالين تقريباً في الفترة الزمنية نفسها في عالمين مختلفين: الإنسان الطائر من دائرة حضارة الشرق الأوسط والإنسان من منطقة خليج المكسيك.

وللهيئة البشرية في كلتا الحالتين زوجان من الأجنحة يضمان الشكل جانبياً، ويعتلي الجسد البشري هنا وهناك رأس طائر له منقار قوي معقوف كما يبين الشكل الجانبي له بوضوح، ثم إن أعلى الجسم يظهر على مقطع أمامي وأسفل الجسم والرجل والأقدام وكذلك الرأس يظهر بمقطع جانبي. لكن هذا لا يفي بغرض المقارنة تماماً: لقد بدت ملابس الإنسان الطائر الغريب كما لو أنها صُممت من قبَل الخياط نفسه.

وهذا التشابه مدهش لدرجة بالغة، حيث تشهد كلتا الصورتين على إبداعية تفوق المعدل المتوسط، يرتدي الطائران البشريان نوعاً من السترة مقصوصة دائرياً بشكل جانبي، وتصل من الخلف إلى بطن الساق ومن الجانب إلى الركبة ولا تغطي من الأمام وسط الجسم إطلاقاً، أو بالأحرى فهو محمي بواسطتها، السترة نصف مستديرة مطرّزة بإطار عريض يصل إلى الخصر، وإذا لم تكن مثل هذه العالمية العجيبة لموضة «تناسب» الآلهة تدهش حقاً فلا معنى لهذا، إلا أن الشخص الذي يريد الاندهاش بها لا يريد إلا أن يغمض عينيه.

رابعاً - تطابق في الكتابة واللغات:

اختيرت مجموعة مترادفات لغوية في القائمة التالية، فيها تطابق تاريخي لغوي بين اللغات السامية ولغات المايا قد لا يدركها إلا المختص في اللغات، لذلك سنقدم بعض أساسيات علم اللغة في هذا الشأن: إن الانتقال من (أو) إلى (أي) هو شيء عادي، والشيء نفسه ينطبق على تبدل الحرف (ب) و(بي) إلى (في)، كما أن (ها) و(ش) المهملة متقاربتان في الأصوات، وتخضع الكلمة المبدوءة بحركة ونهايات الأحرف إلى استهلاك متزايد.

ولا تعرف اللغات السامية الأحرف الصوتية، وحدها الأحرف الساكنة هي التي يُؤخذ بها في المقارنة اللغوية، كما لا تعرف بعض لهجات المايا الحرف (ل)، وكانت الفوارق بين لغات المايا قبل 2000 و3000 سنة أقل أو بالأصح لم تكن موجودة، لذا لن تتم مراعاتها في المقارنة الآتية بين السامية والمايا.

وأحياناً تتغير على مر الزمن طريقة الكتابة أو معنى الكلمة، والمثال الحديث في اللغة الأوربية هي كلمة «كيكين» و«تشيكن».

والآن فلننظر وبتؤدة إلى الجداول المقارنة الآتية، ولنتبين الحقائق منها:

لغة المايا المنطوقة	اللغة السامية المنطوقة	المعنى بالعربي
يم	يم	البحر،الموجة، الزبد
ألم	ألم	رجل / ابن
كوبا – كوب	كافا	يلوي
شاك	شعق	زغق
موك	موكش	عقدة
بم	بيما	سمن / سمين
ناهال	ناخال	ملك / كسب
هول / هولول	غالال	ثقب
بات	بيت	منزل
اشي	إشا	امرأة
اشا هان	إشا شام	حماة / والدة الزوجة
أختان	خاتان	زوج
سوكون	ساكن	رجل عجوز
مكيل	ماكار	قريب
بال (ل / ر)	بار	ابن
إن	أني	أنا
أت	أتا	أنت
كوتين	كاتان	صغير
تشابال	شافال	واطيء
دزابال	زبال	وسَخ
شآن	شأن	عمل ببطء
تاك، شيكال	تاكا	ضرب، وضع
تسيل	ذليل	انخفض
ناكال	ناشا	ضرب
توك	تسوج	منطقة
كيعش	كوتس	شوكة
ماليل	ماليل	مساء
باتس	بسياخ	قطع
اتسات	ايتساه	حكيم

بونه	يوناك	رضيع
اتوب	توب	جيد – طيب
ليك	لاكاك	لعق
تسيري	تسار	عدو / سيء
تاها	تسوها	براز
كيتام	كاديم	سابق
ميل	ميليل	تحدث
روك	أروك	طويل
ليكاب	لاكاب	لهب
تساكول	ساكيل	حزر
شاما	شامال	شمال
نوهيل (ل / ر)	ناهاز	جنوب

إن ما جرى هو اقتباس لتعابير إفرادية من قبل الأمريكيين القدامى من لغة الأغراب بحيث وُجدت المتشابهات جزئياً وإفرادياً، ومثل هذا التدخل اللغوي يمكن تأكيده في مناطق لغوية أخرى وفي الأوقات كلها.

وفي تلال مستري في نيوهامشاير، عُثر قبل بضع سنوات على جدران المغليث على نقوش غامضة عديدة، وفي غضون ذلك تم فك رموزها لتظهر على أنها مكرسة للإله بعل، ولقد وجد (جيمس ويتال) - الخبير المشهود له في آثار العصر البرونزي في شبه الجزيرة الايبرية - أول قطعة إثبات في غرفة حجرية على تلال مستري، كانت تستخدم سابقاً لمراقبة انقلاب الشمس الشتوي، تبرهن على تقديس بعل في نيو إنجلند، وجد على لوح حجري ثلاثي الزوايا مكتوباً بالأحرف الإيبيرية – البونية، الكلمات التالية: «هذا إهداء مخصص لإله الكنعانيين بعل»، ولا يظهر من هذا النقش أي دور لعبه بعل بالنسبة لمريديه، إلا أن غالبية النقوش الأخرى التي تذكر اسمه تتحدث عن بعل «إله الشمس».

كما اكتشفت أحد أبواب معابد المغليث في فيرمونت (نيو- إنجلند) الأحرف الأغمية (د) - ج، وكذلك (ب) - ل، وترجمها العالم (باري فل) على النحو التالي: «دبجو بل»، أي معبد بل.

بهذا يصبح واضحاً الموقع الذي تبوأه إله الحماية الفينيقي بعل في القارة الجديدة كإله الشمس، غير أن هذا يظل بالنسبة لنا أقل أهمية، لأننا نتبع مهمته بقدر ما نقتفي آثاره.

ويلفت (شيلدمان) الانتباه إلى أن إله الشمس أبولو هو نفسه من وجهة نظر أصل الكلمة، فالكلمة السامية «بعل» يشتقها شيلدمان من أ - بعل (قوي جداً)، أو بالأحرى من الكلمة الهندية الأوربية «بلوس» وتحمل المعنى نفسه «قوي للغاية» وبهذا لا يكون أبولو

من أصل إغريقي، وإنما له الوظيفة الإلهية نفسها مثل إله الشمس الأمريكي القديم، التي تزين عينه معبد المغليت.

ما يثير العجب أيضاً المربع المقسم لأجزاء أربعة والعجلة الحجرية والأشكال السُلمية والحقول الشبيهة برقعة الشطرنج، التي كانت تستخدم في صلتها مع عبادة الشمس في العالم القديم تماماً كما في العالم الجديد: فكل رمز على حدة لا يمكن مبادلته مع الآخر، لكن عندما تكون الأشكال الرمزية مع بعضها في صلة ويجري ربطها في كلا المحيطين الثقافيين مع عبادة الشمس، فلا بد أن يكون في ذلك إشارة إلى الاتصالات بين العالمين كليهما اللذين أوجدا وبالتالي استخدما هذه الرموز في عبادتهما للشمس.

ونقدم لكل هؤلاء الذين لا يستسيغون تصور وجود حركة سفن نشطة في الأطلسي قبل عام 898هـ / 1492م، نقشاً لساحة تجارية فينيقية في شمال أمريكا، فلعل في ذلك خطوة تساعدهم، هنا عُثر على نقش كلتي - إيبري بالأغمية يبين ساحة تفريغ للسفن الفينيقية، ودون أن يكون في ذلك شيء من الجرأة في التفسير غير المنطقي، نورد الأحرف في النقش بتسلسلها: «ف - ن . ك» وتُقرأ فينيقي، وهذا بحد ذاته فيه من القيمة ما يكفي.

لكن هل وجود ساحة لتفريغ البضائع الفينيقية من السفن أمرٌ غير جدير بالتصديق؟.

ومن يشك بأن القدماء استطاعوا تنظيم تجارتهم البحرية بهذا الشكل، بحيث كانت توجد طرق محددة وأماكن رسو لسفنهم، عليه أن يعلم بأن ثمة وثائق محفوظة تعود إلى فترة ما ق.م تتحدث بالتفصيل عن عقود واتفاقيات تجارية ومداولات لتحديد التسليم، وتسوية الأسعار، كُتب جزء من الاتفاقات على صفائح معدنية وألواح فخارية، ويمكن استخدامها حتى اليوم كقاعدة لاتفاقات تجارية معدة بكثير من التروّي والدقة، لم يُترك فيها نقطة للصدفة، ولم تكن فيها نقطة غير ذات أهمية لم يرد لها ذكر في الاتفاق، كما كان يُتفق مسبقاً على خط مسار السفينة التجارية والمرافئ الأجنبية الإضافية التي تتوجه إليها، فقد كان يتقاضى عنها التاجر (صاحب السفينة) أجراً إضافياً، أما من يتحمّل حالات الحوادث مثل فقدان البضاعة فكان التاجر، ويعني هذا أن خطوط النقل البحرية القديمة كانت تعرف معنى المجازفة، وعبور الأطلسي كان واحداً من مجازفات محتملة عديدة توجب على المرء أخذها بالاعتبار إذا أراد الكسب من التجارة، وبالتأكيد لم يكن الكسب قليلاً من البضائع في القارة الأمريكية، كما اعتُبرت جلود الحيوانات والأخشاب والمعادن بعضاً من السلع التجارية التي لاقت رواجاً في أسواق العالم القديم.

ولنعد مرّة أخرى إلى المقارنات اللغوية بين لغات العالم القديم والعالم الجديد، في بداية هذا القرن أخذ المختص في الأنتولوجيا (فرانك روسل) على عاتقه، وبتكليف من مكتب الأنتولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية البحث في لغة الهنود الحمر البيما في أمريكا الشمالية، وحدثنا عن نص طويل لأغنية تتحدث عن «الخلق» سائرة على لسان «الماجير» (الحكيم)، ويدعوه أفراد القبيلة بلفظ «ماكاي» وهي الكلمة القريبة من الكلمة

السابقة ماجي أو «المجير».

ثمة قائمة تبين متشابهات إضافية بين مفردات لغة البيما واللغة السامية، نذكر منها كأمثلة واضحة:

اللغة السامية	لغة البيما	اللغة اليوم
سامي	بيما	المعنى
هاوا	هوا	فضاء
أمارا	مار	سماء
رسوب	رسسو	قمر



ويطلق (باري فل) على لغة البيما على أنها شكل من اللغة البونية المحورة، ويعزو السبب في ذلك إلى نوع من البساطة في البيما، إذ إن الهنود الحمر أخذوا هذه اللغة عن أناس تعلموا هم بدورهم اللغة السامية - البونية - كلغة أجنبية.

ولربما كانت نوعاً من الإسبرانتو التي كانت تتم المعاملات التجارية العالمية بواسطتها؟ لكن حتى هذه البونية الساذجة ينطقها هندي أحمر من البيما لها جرس كالموسيقا يشنف آذان الباحثين عن الآثار، بيد أن البحث في اللغات الأمريكية القديمة يترك أسئلة عديدة دون إجابة، فكثير من المساهمات العلمية عن هذا الموضوع المعقد تقدم مجرد نتائج أولية، ولها أهمية في كونها دوافع فكرية بناءة لأبحاث إضافية، إحدى هذه المهام غير المنجزة من الأعمال البحثية يبقى تفسير «لوحة الآجر» في كومالكاكو في المكسيك، وعليها مئات الرموز والرسوم والعلامات، أو نقوش ما تزال تنتظر حل رموزها.

ولكن رغم العدد الكبير من الأسئلة المفتوحة ثمة تقدم في استقصاء تاريخ أمريكا القديم، ولم يعد التاريخ بهذا الغموض بحيث لا تطل منه آثار لزوار من العالم القديم قدموا إلى أمريكا.

خامساً - تطابق في تفاصيل العبادة والكون:

على الرغم من اختلاف المعايير ثمة تشابه عبر الأطلسي في التفاصيل، وخاصة في العرض الرمزي للعبادة الفلكية، فرمز اليد والرقم 4,5 الرقم الرمزي لكوكب المشتري، وتظهر الكف المبسوطة بأصابعها الأربعة والإصبع الإبهام كرمز مناسب لهذا الرقم الرمزي، أي للكوكب والإله المشتري، فوظيفة المشتري كإله يحمي التجار والباعة نشأت من السرعة التي يدور فيها هذا الكوكب حول الشمس المواجهة له، وعلى المنوال نفسه يسهل

المشتري عمل التجار في رحلاتهم التجارية.

كما يُعد رمز اليد في هذه الأيام في بعض دول الشرق الأدنى والدول العربية كجالب للحظ فيما يُسمى «يد فاطمة».

ورمز الكف المبسوطة للأعلى وعليها سوار، أصل الرمز موجود في الحسابات الفلكية عن صورة كوكب المشتري التي جرت فيما مضى في بابل القديمة، لكن أمر وصول رمز اليد الممتدة إلى أمريكا القديمة يبقى أمراً غير معروف، فالحسابات التي وضعها البابليون عن مسار المشتري هي كذلك معروفة من العالم الجديد، لذا من الحق التكهّن أن أفكار ودافع يد المشتري وصلت إلى أمريكا القديمة من خلال البحّارة القدماء الذين كانوا يقدسون المشتري غاية التقديس، وعلى أي حال يشير البعد والموقع لرمز اليد في بعض الحالات، كما هو في مثال الجدار الصخري العالي في كالكاتسينجو المكسيكية، إلى الوظيفة العظيمة لرمز اليد وليس إلى مجرد شكل تزييني.

صورة أخرى تدل على رمز اليد وتشكل بينة مذهلة لعبور الأطلسي قبل كولومبوس، وفيها تكون العين في باطن الكف، هذه الصورة توجد في بعض البلدان العربية، وهي صورة مألوفة في أمريكا القديمة، لكن (فيلي) يعلق بشكل مقتضب عليها قائلاً «صورة تزيينية ليد وعليها عين»، كما لو أن أمر هذه الزينة أمر يومي مألوف.

سادساً- الفن والزراعة والحياة اليومية:

يفاجئنا الفن عند المايا بعنصر زينة ليس له قيمة وظيفة يمكن أن تطلق عليه بحق «انتحال» من العالم القديم، إنها زهرة اللوتس «نيمفايا ألبا»، وتعد زهرة اللوتس مرغوبة جداً ضمن المجموعة النباتية، في كونها تقدم مادة إلهام لصناعة الزينة على شاكلتها، وذلك في



كلتا المنطقتين، كما استخدمها الهنود في العالم الجديد لهذا العرض، وأدّت دوراً في العالم القديم خاصة في مصر وبلاد آشور والهند.

يعرف المرء عن حضارات العالم القديم أن زهرة اللوتس كانت مقدسة وترمز للجمال، والصفاء، والحياة الأبدية، ولا يُعرف ماذا كانت تعني زهرة اللوتس بالنسبة للمايا، بيد أن السياق الذي تعرض فيه الزهرة في أمريكا القديمة يشير إلى تشابه محتمل في معناها هنا، فطريقة عرض زهرة اللوتس على رسوم جدران «بونا مباك» في غواتيمالا، متداخلة مع صورة الآلهة والحكام، توضح أهمية زهرة اللوتس في هذا المجال الحضاري أيضاً.

لقد نشر معهد سميثونيان في واشنطن عام 1373هـ / 1953م، وهو آخر مكان مختص في قضايا «الأنترولوجيا والأنثروبولوجيا الأمريكية» دراسة مستفيضة أعدها الباحث (روبرت راندز) حول «كناية ومعنى زهرة اللوتس»، ويتطرق فيها إلى مقارنة موقع زهرة اللوتس في العالمين، إذ يقول: «حقاً يجب الاعتراف بتشابه مذهل»، هكذا كانت الفكرة الرئيسية لبحثه، ويمكن التعرف على أن المقصود من زهرة المايا هي زهرة اللوتس بالفعل، وليست زهرة بحيرة أو زهرة «شاي» من تكوين الصورة، التي تعرض دائماً مع زهرة اللوتس، وهي زهرة مائية، كما يتضح من صورها ويؤكد عليه راندز.

ومن ناحية أخرى لم يدرج فنانو المايا كل النباتات التي تخطر على البال في أمريكا الوسطى في رسوماتهم، ولو كان تم ذلك لما أبدينا تعجبنا من ظهور زهرة البحيرة، كلا إنها زهرة اللوتس وحدها التي أدّت دوراً في فن المايا، انطلاقاً من مستوى العلم الراهن الذي يسمح بمثل هذا التأكيد الجازم.

ولا بد أن التقدير العالي الذي يحظى به «الأرز المقدس» أحضره البحارة الفينيقيون معهم إلى أمريكا القديمة، فالشجرة هذه هي من أهم المواد التجارية عند الفينيقيين، وبقيت على مدى قرون طويلة مصدراً مربحاً لتجارتهم، إذ إن سفنهم الناجحة كانت تُبنى أيضاً من خشب الأرز، لكن لم تكن النوعية والقيمة السلعية وحدها التي جعلت من خشب الأرز يحتل عند الفينيقيين مكانة خاصة بين الأخشاب، وإنما أدى الاستخدام الطقوسي للأرز دوراً هاماً، فعلى أبعد تقدير ومنذ الألف الثانية ق.م، استخدم المصريون خشب الأرز لقضاياهم المقدسة مثل صناديق المومياء، وأوعية البخور، وتحنيط الأموات، وكانت الزيوت العطرة ذات الرائحة الطيبة التي كانت تستخدم في الطقوس، تعد من المنتجات الإضافية المستعملة في معالجة خشب الأرز، ويؤكد هومبابا «الجني» الذي أدى دوراً مهماً في ملحمة جلجامش كحام لغابات أشجار الأرز المقدسة، المكانة الخاصة ًالتي حظيت بها هذه الشجرة، ومن ناحية أخرى كان الأرز مقدساً عند المايا، إذ يشير (إريك تومبسون) إلى أن مخطوطة دريسدنر مثلاً التي تتحدث عن احتفال رأس السنة إنما تقرن رمز الخشب - على لحاء الشجرة - مع العلاقة بالإله.

وتشير المخطوطة أن مكانة خشب الأرز هي مكانة مقدسة «كوتشي»، وبالطريقة نفسها التي يقدس فيها المرء شجرة

السايبا «شجرة الإنسانية الأم»، كانت تتم فيها حماية أشجار الأرز ووضعها تحت رعاية وعناية فائقة، وهذه طريقة نجدها متشابهة تماماً على جانبي الأطلسي.

المثال الآخر على عبور الأطلسي البطاطا الحلوة، لقد قدمت هذه المادة الزراعية منذ سنوات موضوعاً لنزاع حام بين مؤيدي ومعارضي نظرية عبّور الأطلسي قبل كولومبوس، لأنها كانت تعدُّ لمدة طويلة البرهان الذي لا يُنكر على الاتصالات قبل كولومبوس بين أمريكا والمحيطات، مما أدى إلى البون الشاسع بين الفريقين المتنازعين، كيف تم التواصل إلى أن البطاطا الحلوة وجدت في المنطقتين؟.

لقد أثبت علماء النبات أن المزروعات الأخرى كانت إما موجودة في القارة الأمريكية أو في باقي العالم، فقط البطاطا الحلوة قُيِّض لها أن تقفز فوق العالم والبحار!. والحقيقة أنه لم يكن بالإمكان انتقال البطاطا الحلوة إلا بالسفن، وهذه السفن جاءت بالتأكيد عبر الأطلسي، وينطق بهذه الحقيقة ما أطلقه الهنود الحمر الكويتشوا في البيرو عليها «كومار» والتسمية نفسها موجودة عند البولينزيين «كومار»، وهل هناك تجانس لفظي أكثر من ذلك؟.

ولا يمكن التأكيد إذا كان الأمليك قد تمرسوا بفن النسيج المتطور، لأنه لم يعثر على منسوجات تثبت ذلك، لكن يُتوقع أن يكون السبب وراء ذلك هو الطقس الرطب في مناطق خليج المكسيك، الذي أدّى إلى اندثار المنسوجات في منطقة أعالي البيرو أسرع من مناطق أخرى، لأن في حضارة المايا ثمة بقايا من أقمشة حفظتها مياه البئر المقدسة في شيشن إتسا (يوكاتان) على مدى قرونٍ من الزمن، إضافة إلى ذلك فإننا نعرف شيئاً عن المنسوجات القديمة من خلال الصور الكثيرة التي تظهر عليها نماذج أقمشة رائعة، وهي بديعة للغاية، لكنها ليست مصممة طبقاً لنموذج العالم القديم، ويتوافر لدينا قدر من المعطيات عن تقنية النسيج، ففي البيرو عثر على آلاف من بقايا المنسوجات من فترة ما قبل كولومبوس تجعل الحكم على التقنيات المبكرة المستخدمة هناك أكثر سهولة ودقة. وكما تؤكد نتائج الأبحاث أن الأعمال الأولى كانت تُنجز بطريقة تقنية العروة في إنتاج أقمشة الغرز والنسيج المضفر.

وتعد هذه التقنيات النسيجية من أبسط الأنواع في كل مكانٍ من العالم، لذا لا يدهشنا هنا التطابق كثيراً، إنما الذي يبعث على الدهشة هي الدقة المتناهية للمنسوجات من باراكاسا (9 - 2 ق.م) التي تلاشت في الأزمنة اللاحقة.

كما يدهشنا أيضاً التطابق في التفاصيل التقنية لآلات النسيج في الشرق والغرب، فثمة تطابق في معدات النسيج البروانية وآلة نسيج مصرية وجد لها شكل مشابه في أحد القبور من طيبة.

وكانت بعض آلات النسيج تتألف في كل من المنطقتين من أحد عشر عنصراً، تنظم على المبدأ نفسه وعلى درجة كبيرة من التشابه بتلك من العالم الجديد على درجة كبيرة، بحيث يصعب حتى على المختصين التفريق بينهما.

من هنا يتضح أن التقنيات كانت عالمية، بينما

كانت أعمال الحرف اليدوية أمريكية الطابع جداً، وكما يبدو أخذ الهنود الحمر «المعرفة الفنية» عن الغرباء، لكنهم استخدموها في إبداعهم الخاص الأمريكي الطابع.

ومما يؤكد مقولة إن الهنود الحمر تعاملوا مع آلة النسيج من العالم القديم بشيء من الرهبة، هو حقيقة، وإن فن النسيج في أمريكا القديمة كان يعد مقدساً، ما كانت تفعله نساء المايا حينما يصلين أمام آلة النسيج أكشيل قبل البدء بأعمالهن، والتي كانت في الوقت نفسه إلهة القمر.

وهناك ثمة متشابهات عديدة أخرى في مجال الطب والتقنية والعبادة الدينية، ونعني بها ثقب غطاء الجمجمة، فمن الناحية الطبية يبقى موضوع ثقب الجمجمة ضرورياً، إذا أريد إجراء الجراحة في الأوعية الدموية أو في المخ تحت قشرة الجمجمة، ومما يبعث على الدهشة أن هذه المداخلة الجراحية كانت تجري كثيراً في الشرق الأدنى منذ نحو عام 1500 ق. م، وفي الفترة نفسها مارس الهنود الحمر فن ثقب الجمجمة وبشغف وتكرار، قد يتجاوز الحالة الطبية، وهذا مدعاة للملاحظة لأن العملية بحد ذاتها لم تكن بهذه السهولة بالتأكيد، كانت تنشر الجمجمة بمنشار المحار، أو بسكين حجرية، ولم تكن تنتهي العملية دائماً بموت الشخص، إذ تثبت جماجم الموتى التي عثر عليها أن المريض، أو القربان البشري، توفرت لديه فرص الحياة حتى بعد ثقب جمجمته.

إضافة إلى ثقب الجمجمة وتشويه الجمجمة ورد ذكر الطهور، كل هذه الممارسات غير الاعتيادية يمكن أن تنبئ عن التبادل الثقافي بين تلك الشعوب، ثم إن كل هذه الممارسات لا توجد بشكل إفرادي، بل جماعي، ففي المكان الذي يُمارس فيه العرف هذا تجد الآخر معمولاً به أيضاً، وبذلك ترتفع قوة البرهان



لهذه الممارسات الخاصة كونها مجالاً إضافياً للدلائل المتوافرة.

ونعرج على موضوع فرح هو الموضة وخياطة الملابس، لأنه احتل موقعاً مهماً في اهتمامات البشر في كل مكان وزمان، ومن دون هذا الاهتمام لم يكن بالإمكان التوصل إلى التنوع في اللون والمادة والتصميم كما توثق كل المراحل التاريخية للبشرية، وهنا نشير إلى بعض الأمثلة من موضة «القبعات» المثيرة التي يشترك أسلوبها على طرفي الأطلسي بطريقة خاصة لا تخطئها العين.

فمن المؤكد أن غطاء الرأس مثل أي شيء في حياة أسلافنا، كان له صلة وثيقة بالطقوس والعبادات والتقاليد، وطبقاً لذلك تكون صورة هذه الأساسيات في صورة ظهور الإنسان في الشرق والغرب صحيحة وثابتة.

وكانت قد جرت المقارنة فيما مضى بين غطاء الرأس لشكل إلهي مصنوع من الحجر من منطقة كويريرو في المكسيك، مع العمامة من الشرق الأدنى، كما جرى اكتشاف القبعة الصغيرة المدببة لأحد الكهنة الساميين وقد اعتمرها الشخصان اللذان يحمل أحدهما الآخر على ظهره في بنما، وفي العديد من الصور الأمريكية القديمة الأخرى.

وتظهر أمامنا قضية أخرى، هي قضية العربة، فمن المحتمل ألا يكون الأمريكيون القدماء استخدموا عربة أو واسطة نقل، لكن فكرة هذه الأخيرة لم تكن مجهولة لديهم، إذ وُجد البرهان على هذا التأكيد في الأرض المكسيكية في مجسم لأشكال حيوانات على عجلات وهو في حجم لعب الأطفال، يربط كلاً من الأرجل الأمامية والخلفية لهذه الحيوانات محور عجلة مركب عليه عجلتان بحيث يستطيع الحيوان الفخاري الحركة.

هل هذه وسيلة النقل الوحيدة في أمريكا القديمة؟ وفي شكل لعبة أطفال؟ هنا تطرق الآذان كلمات الشاعر هومير الذي كان على معرفة كبيرة بكل تفاصيل أعمال الفينيقيين حيث يقول: «اشتهر الفينيقيون بأسفارهم البحرية وبصناعة المعادن، كما كانوا يأخذون معهم في سفنهم ألعاباً لا تُحصى».

سابعاً - خاتمة الكتاب:

على عجلات لعبة الفخار ينهي «هاينكه» رحلته الاستكشافية بحثاً عن آثار زوار أمريكا القدماء. وإليك انطباعه الأخير: «معذرة يا كولومبوس، العجلة أيضاً لا تنقذ سمعتك كمكتشف لأمريكة، منذ أن اكتشف علماء الآثار العربة الفخارية العائدة لأزمنة أمريكا القديمة، لم يترك مناصرو نظرية عبور الأطلسي قبلك للذين يحترمونك ويقدرونك مجالاً لكي ينسجوا على منوالك، لقد انبثقت آثار من سبقوك من بين ضباب تاريخ أمريكة القديم، ويمكن لهذه الآثار أن تنطق بوضوح ودون ثغرات، الفضل لهذه العربة الفينيقية الصغيرة. وأن تكون لعبة الأطفال تحديداً قد جعلت قلعة المناوئين لنظرية عبور الأطلسي قبلك تتهاوى فهذا أمر لا يخلو من التهكّم، وكم هو محزن أن يُسحب من أيديهم آخرُ سلاح في نضالهم ضد مؤيدي النظرية على هذه الشاكلة.

إلا أنك نفسك لم تغادر مسرح أحداث

التاريخ خالي الوفاض، على العكس من ذلك، ستحتفظ بك ذاكرة الأجيال رجلاً امتلأت يداه بالذهب والفضة، كانت كنوز العالم الجديد كافية لكي تجعل مملكة بكاملها تتعافى وتتحول لتغدو قوة عالمية، واستغل أولئك الذين كلفوك ذهب الهنود الحمر في حروبهم الباهظة الثمن باسم الصليب، وهكذا تحولت أمريكا إلى كنز لا ينضب للملوك الإسبان، وكلما كانت بركة المعدن الثمين أغلى كلما ازداد الجشع عليه، وعندما كان الهنود الحمر يقصرون أحياناً كموردين في يوم ما، كنتم تتدخلون بمنتهى القسوة لأنه كان يناسبكم ألا يستحق الهنود الحمر أية شفقة، ألم يكونوا وثنيين؟ والأدهى من ذلك أنهم رغبوا في البقاء على وثنيتهم، لكنكم عرفتم كيف تعملون من أجل الكنيسة الكاثوليكية في مسائل العقيدة! وبسرعة كبيرة استجاب الهنود الحمر لعملكم المقنع، أو لسيفكم، ولم ينقصكم الحزم والشدة في مسائل الفن والثقافة، فبعض الناس كانوا يلزمون إلزاماً بقدرهم، وهكذا أجبرتم الهنود الحمر على الاعتراف بحضارتكم والأخذ بها كحضارة وحيدة صالحة.

نعم لقد تعلم الهنود الحمر بسرعة كبيرة منكم وفتحتم لهم أبواب رحمات العالم المسيحي، وأظهرتم لهم خلال اعتناقهم الدين المسيحي كفاءتكم وحبكم ووعيكم بالرسالة، شيء واحد لم تبينوه لهم، التسامح وكم هي قليلة الاستثناءات من هذه القاعدة.

ويا للفارق العظيم بين مكتشفي أمريكا الحقيقيين، وكم هم مغايرون أولئك الذين جاؤوا للتجارة قبل آلاف السنين من ميلاد المسيح، لقد وطئت أقدامهم الأرض الأمريكية زواراً ومعلمين وناصحين، وغدت أفكارهم الشرارة والإلهام والحافز لتطوّر الحضارات الأمريكية القديمة التي تدفعنا لاحترامها، لأننا بدأنا الإحاطة بها وفهمها تدريجياً، وعلى النقيض من ذلك لم يظهر الهنود الحمر تجاه الغرباء سوى التسامح الذي قدر على تحويل اللقاء بين عالمين إلى عيش مشترك بينهما، وارتبط الهنود الحمر والأغراب برباط استمر عبر قرون طويلة ما تزال أصداؤه ترن في آذاننا، وما زالت صورته ماثلة أمام أعيننا.

لقد عدّ الأمريكيون القدماء وصول الغرباء حدثاً لم يغب لحظة عن ذاكرتهم، كما احتفظوا بصورة (الإله الأبيض) في مقام رفيع ليصبح محور أساطيرهم ومعياراً لتفكيرهم وعملهم، وما زالوا ينتظرون رجوعه عندما جئت، يا لسخرية الأقدار! لأن ذكرى الإله الأبيض كانت ما تزال حية وتحظى بمكانة رفيعة لديهم، تمكنت أنت ومن جاء بعدك من استغلال عالم الهنود الحمر استغلالاً بشعاً وبسرعة كبيرة ودون مخاطر.

خطأ قاتل ارتكبه مونتيزوما وشعبه من الأستيك لأنهم رحبوا بالغازي الأبيض كورتيس معتقدين أنه الإله الأبيض، الذي وعد الهنود الحمر في السابق أن يعود من الشرق، وها هو الآن قادم إليهم فرحبوا به ترحيباً حاراً.

معذرةً يا كولومبوس لأنه عندما فتح الهنود الحمر أذرعتهم لاستقبالكم، كان عليكم أن تدركوا أنكم لستم الأوائل، وأنك أيها المحترم كولومبوس لست مكتشف أمريكا الذي من أجل ذلك يُحتفى بك منذ خمسمئة عام».



النار في التراث الطبّي العربي

أبو بكر الرازي (نموذجاً)

محمّد علي حبش

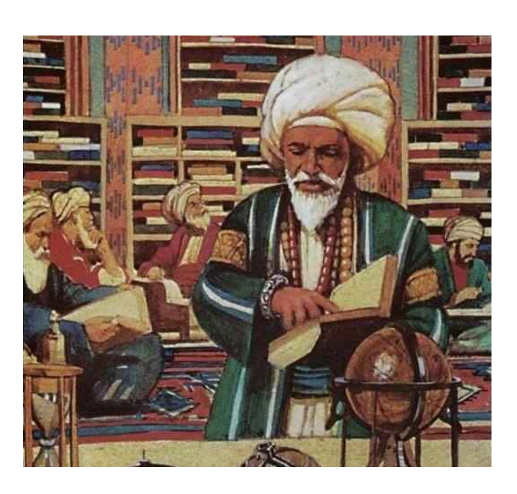
لم يكن أبو بكر الرازي(1) طبيباً بارعاً في الطب فحسب؛ بل يعدُّ من أعظم فلاسفة الحضارة العربية والإسلامية، ووضع نظريات فلسفيةً تجعله في مصافّ الفلاسفة الحقيقيين، إذ له إسهامات في مجالات العلومِ الطبيعية مثل علم الفيزياء، وكان يدعو العلماء وخاصة الأطبّاء إلى الأخذ بالعلوم الطبيعية، تميّزت فلسفته بجرأة وروح نقدية عالية، حيث انتقد «أرسطوطاليس» وخرج على كثير من افتراضاته الطبيعية والميتافيزيقية. وتمتاز فلسفته أيضاً بنزعة إنسانية واضحة تعمّ الإنسان والحيوان.

شملت إضافاته الفلسفية حقول الميتافيزيقا والطبيعيات، واهتمّ بالعقل وعرف مكانته وأعطاه اهتماماً كبيراً. من أشهر نظرياته الفلسفية نظريته في الميتافيزيقا، نظرية المكوّنات الخمسة، حيث اعتقد الرازي بوجود خمسة مكوّنات أبدية وهي: (الله، الروح، المادّة، الفراغ، الزمن). كما يرى أن الإله لم يخلق الكون من عدم، والروح عنده تمثّل الطابع الروحي للكون، حيث يقول: إن الإله يعمد إلى إعادة تشكيل تلك الروح ومنحها خصائص فيزيائية بما يتناسب مع رغبته.. كما أن نظريته في الأخلاق تعدُّ من النظريات التي توضّح عمق فلسفته وآرائه الرائدة في هذا المجال.

في هذا البحث نتناول كيفية تناول هذا العالم الطبيب الفيلسوف لقضايا الطبيعة والنار من الناحية الفلسفية والطبّية والعلمية، في مؤلفيه المهمّين (رسائل فلسفية) و(الحاوي في الطب)..

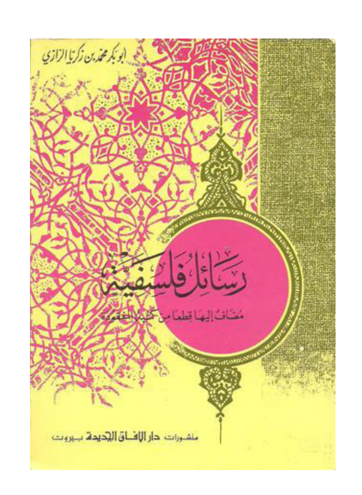
1- في كتاب (رسائل فلسفية):

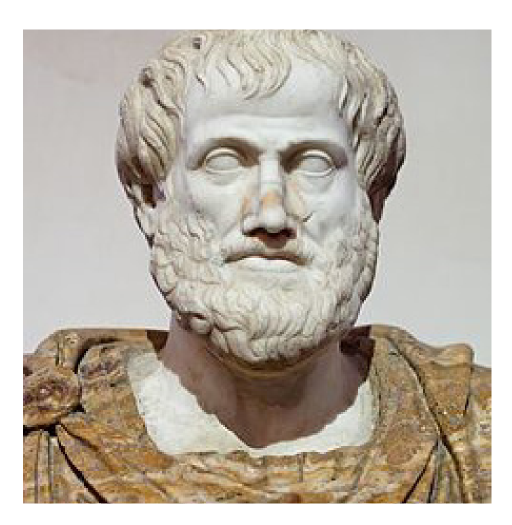
في مقالة فلسفية له بعنوان (فيما بعد الطبيعة)، ضمن كتابه (رسائل فلسفية)[2] يناقش الرازي ما زعمه أرسطو طاليس[3] ومَن فسّر كتبه في أنّ الطبيعة لا تحتاج دليلاً لظهورها واعتراف الناس بها وإقرارهم بوجودها، وما زعمه فلاسفة آخرون أنّ الدليل على وجود الطبيعة أفعالُها وقواها المنبثّة في العالم الموجبة للأفعال، كذهاب النار والهواء من المركز وذهاب الماء والأرض إليه، فيقول: «أمّا قولهم إنهم لم يدلّوا على وجود الطبيعة لإقرار الناس بها، فالشيء لا يصحّ لإقرار الناس به كما لا يفسد لاختلافهم فيه. ولو كان حقّاً لإقرار مَن أقرّ به لكان فاسداً باطلاً لامتناع مَن امتنع منه، فيكون الشيء فاسداً صحيحاً في حال وباطلاً حقّاً في حال وهذا محالٌ»، ويضيف: «لمَ زعمتم أنّ الطبيعة لا تحتاج إلى دليل وقد خالفكم في وجودها قوم من الفلاسفة القدماء! وما رأيتم إن قال خصماؤكم إنهم لا يحتاجون على قولهم، إنه لا طبيعة إلى دليل؟ وإنما لا تحتاج إلى دليل، الأشياءُ المشاهَدة وأوائل البرهان العقليّة وليس الطبيعة بمحسوسة، ولا العلم بها أوّل في العقل. وأمّا استدلالهم بالقُوى التي ادّعوها فيُقال لهم ما أنكرتم أن يكون الله جلّ وعزّ هو الموجب بذاته لقوى سائر الأفعال ولطبائع الأشياء؟ وإن لم نقل بنسق قولكم في الطبيعة فتكون له لا لها. ويقال لهم إن كانت حركة الأشياء وسكونها بطبيعة واحدة كحركة الحجر وسكونه ونمو الإنسان ووقوفه، فقد صارت الواحدة توجب شيئين متضادّين وهذا محال. وإن قالوا إن تحرُّك الأشياء بقوة



أخرى، قيل فيجب أن تكون هذه الحركة قد بطلت من الساكن، وإذا جاز أن تبطل جاز أن تبطل أيضاً قوة السكون، وجاز أن تبطل الطبيعة من الأشياء. وإذا جاز أن يتحرّك الحجر ويسكن بقوّتين فما أنكرتم أن تبرد النار وتسخن بقوتين تردان عليها؟. فإن قالوا إنّ قوةً في الأرض بها تحرّكت نحو المركز لم تكن أولى بذلك من النار، قيل لهم فانفصلوا ممّن زعم أنه لولا أن قوةً في جرم الأرض بها قبلت القوة التي فيها جاز أن تحلّها القوة الذاهبة بالنار عن المركز» (ص116-117).

وينتقد الرازي الفيلسوف يحيى النحوي[4] ويصف إجاباته في حدّ الطبيعة بأنها فاسدة، حين يزعم أن الطبيعة ابتداءُ حركة، والفلك متحرّك وليس بساكن، ويزعم أن جملَة الفلك ساكنة لأنه لا يتغيّر عن حركته وأنه لا يتنقّل عن جملة موضعه. فيردُّ عليه بالقول: «صار الفلك متحرّكاً وهذا محال، فإن لم يكن قول القائل إن جسماً واحداً أسود أبيض في حال محال... وإذا كانت أجزاء الفلك كلّها دائمة





أرسطوطاليس

الحركة والكلُّ ليس غير الأجزاء، فالفلك متحرّك غير ساكن» (ص117).

كما يصف قول «أرسطوطاليس» في: «أن الطبيعة ألهمت بالحكمة من قبل النفس وهي مبثوثة في العالم»، بأنه كلام خرافي، وينقضه بالقول: «من زعم أن في الموات نفساً فقد جحد الضرورة».. وينتقد «جالينوس» الذي يصف الطبيعة بوصفين متضادّين، حين يقول نقلاً عنه: «إنما فعلت الطبيعة ذلك -يعني الأسنان والفم- تعمّداً، ثم قلت إن الحركة الإرادية من أعمال النفس، والعمد لا يكون إلا للنفس كما أن الإرادة لا تكون إلا للنفس. وقلت إن الطبيعة تدُبِّر الحيوان، وهذا معكوس وإنما الحي هو الذي يدبّر الطبيعة فيحمى مرّة ويأخذ ما يراه من الأدوية مرّة. ولو جاز أن يدبّر الموات الحي لجاز أن يأمره وينهاه» (ص120).

وحين ينقل الرازي عن «فرفوريوس»[5]

قوله: «إن الطبيعة أجلُّ من المهنة، وأعظم قدراً، كما أن الإنسان الحي الذي هو طبيعي أجلُّ قدراً من الإنسان المصوّر.. وإذا كان كذلك وكان صاحب المهنة يفعل ما يفعل من أجل شيء ما، فكذلك الطبيعة إنما تفعل ما تفعل من أجل شيء ما، لا تجيئ بالحبط والاتفاق»، إنما يردُ عليه بالقول: «أليس صاحب المهنة إنما يفعل من أجل شيء ما، وهو حيّ قادر، مريد، مفكّر، عالم لما في الشيء الذي يقصده، ويفعل من أجله من المنفعة؟ فلا بدّ من نعم، يُقال له أفكذلك الطبيعة؟ فإن قال نعم، نقضَ قوله، وإن قال لا، فقد خالف موضوعه مثله» (ص121).

ويضيف: «إن المهنة عندنا لا تفعل شيئاً! ولكن ذا المهنة هو الذي يفعل، لأنّ الفاعل هو النجّار والبنّاء، لا البناء والنجارة، والنجّار والبنّاء حيّان، وهما أعلى من الطبيعة الموات. وإذا كان الإنسان الحي هو الفاعل فهو الطبيعي عندكم، فكأنكم قستم الشيء على نفسه. واحتجّوا أيضاً ببناء الخُطّاف لوكره والزنابير لبيوتها وبآثار الحكمة في ذلك وأنها فعلت ذلك لغرض ما، وأن فعلَها ذلك بالطبع» (ص121).

ويقول الرازي لهم: «إنكم تخالفون في ذلك، لأن فعل هذا الحيوان ليس هو بالطبع، لأن الحي لا يفعل بالطبع، وإنما المطبوعات كالنار وما جرى مجراها، فكيف يكون أمثال هذه بالطبع ولها أفعال مختلفة كالطيران إذا احتاجت إليه، والسكون إذا تعنّت واستغنت عن الطيران، وكاختيارها كلّ شيء مما يغذّيها دون غيره، وتخيّرها لأوكارها المواضع العالية الكنينة.. لكن الحيوان وإن كان غير مطبوع فله اختيار ما، وتمييز، وإن لم يكن له كلّ التمييز ولا يبلغ منزلة العقلاء بعد. فهذه حيّة، فاجعل الطبيعة حيّة، وإلا فقد خالفتَ حكمَ ما استشهدتَ به، فأرنا في الطبيعة وقصدها مثالاً من الأشياء الموات كحرارة النار وهوى الحجر وإلا فدع التلبيس. فإن قالوا إن الطبيعة تدبّر تدبيراً طبيعياً وتقصد وتفعل قصداً وفعلاً طبيعياً، قيل لهم انفصلوا ممن زعم أنها تختار اختياراً طبيعياً وتؤثّر شيئاً على شيء إيثاراً طبيعياً، وأن النار تحرق إحراقاً اختيارياً. وهذا يتمّ، وليس يجوز أن يفعل ويقصد ويريد ويؤثّر إلا المختار الحي، والمطبوع الموات لا يوصف بذلك، وأما زعم من زعم أن الطبيعة لا تفعل ولا تقصد وأنها ابتداء حركة فيقال له ما تريد بابتداء حركة وسكون؟ أتريدُ أنها إذا كانت حدثت الحركة والسكون والنمو والغذاء وترتبت الأشياء ووضعتها مواضعها ووضع شيء لشيء بها ومن أجلها؟ فقد وافقت القوم في المعنى وخالفتهم في الاسم. وإن أردت أن ما يحدث ليس بها ومن أجلها تركت القول بالطبيعة» (ص122).

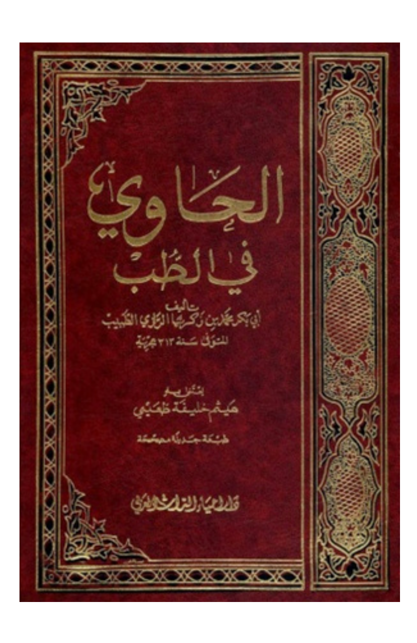
وحول ما تحدّث به «فلوطرخس»[6] عمّن زعم من الفلاسفة أن العوالم بلا نهاية، يقول الرازي: «إنما هي حجّة -إن صحت- على من يزعم أن الأشياء لا نهاية لها وأن العوالم واحدة منها عالم واحد» (ص132). ورداً على ما قاله «أرسطو طاليس» في المقالة الأولى من كتابه في السماء: «ليس يخلو عناصر هذا العالم من أن تكون موافقة لتلك العناصر في المعنى أو في الاسم، فتلك النار ليست بمُحرِقة، وكذلك سائر العناصر ليست

كهذه»، يقول الرازي: «علق هذا القائل أسماء العناصر على غيرها، إن كانت في المعنى وكانت نار هذا العالم تذهب عن مركزه، فلو توهّمنا عالماً فوق هذا العالم لكانت النار تذهب إلى مركزه، وهذا خطأ، وهو داخل في القسم الأول. فإن قالوا إن كلّ عالم يذهب عن مركزه يفسد، قيل لهم إن النيران ليست تختلف حركاتها لاختلاف أماكنها، فالنار التي في المشرق تذهب عن المركز، والنار التي في المغرب أيضا تذهب عنه. ويقال لهم إذا جاز أن يكون في نار هذا العالم مذهب عن مركزه فقد اختلف حكمها، فما ينكر قائل هذا القول من أن تكون نار هذا العالم مُحرقة، ونار ذلك العالم ليست مُحرِقة؟» (ص133).

٢- في كتاب (الحاوي في الطب):

في كتابه (الحاوي في الطب)[7] تناول الرازي مفردة النار من الجانب الطبّي، حيث ركّز على مختلف استخداماتها وتأثيراتها، ففي الباب الثامن من الجزء الأول يتحدّث الرازي عن التشنّج والتمدّد والكزاز، حيث يورد تأثير النار في التشنّج الذي يحدث نتيجة الامتلاء أو الاستفراغ، فيقول: «إن الأوتار إذا قربت إلى النار انكمشت وتقبّضت، وكذلك الحال في العصب فإنه قد يحدث فيه تشنّج من الرطوبة واليبس» (ج 1 ص 107)، فالتشنّج إنما هو انجذاب العصب نحو أصله بلا إرادة، وقد يكون من الخلط السوداوي ومن الخلط البلغمي..

وينقل الرازي عن كتاب بولس[8] أن من تأثيرات النار حدوث حمّى أو كزاز[9]، فيقول: «الحمّى علاج عظيم لهم، وقد يكون كزاز



من التعب والنوم على الأرض اليابسة وحمل شيء ثقيل ولسقطة أو خراجات أو كي أو نار فيعرض معه شبيه الضحك بغير إرادة وليس به حمرة في الوجه وعظم في العين..» (ج 1 ص 109).

وفي الجزء الأول يتحدّث أيضاً عن استخدام النار في تحضير علاج للقروح في الأنف، فيقول: «للقروح في الأنف خبث الأسرب[10] يعني الكمنة وشراب ودهن الآس يسحق بالشراب ناعماً، ثمَّ يُدقّ الآس ويطبخ في إناء على نارٍ ليّنة فحم حتى يغلظ، ويُرفع في إناء نحاس، ويعالج به قروح الأنف، أو عالجها بماء الرمّان الحامض، يطبخ في إناء نحاس حتى يصير على النصف وادخل فيه فتيلة والطخه داخل الأنف أو اطبخ رمّانة حلوة مع قشرها بشراب وضعه خارج الأنف...» (ج 1 ص 387).

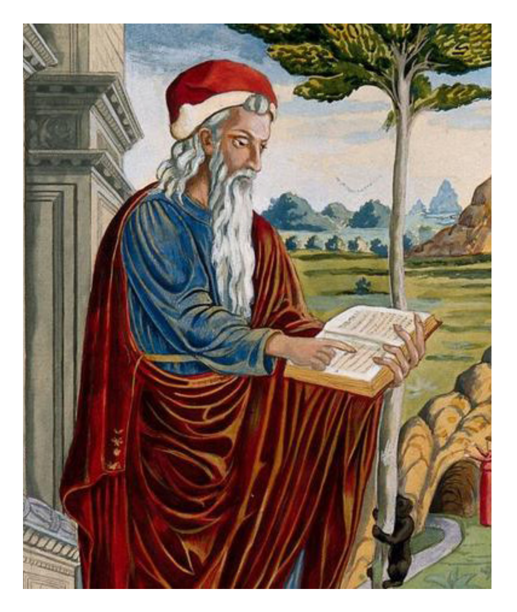
ويكرّر هذه الجزئية في موضع آخر، من هذا

الجزء أيضاً، فيقول: «لين الأنف، يُؤخذ ورق الياسمين؛ فيسحق بالماء، ويطلى به الأنف، فإذا عالجت بواسير الأنف بالأدوية الكاوية الأكّالة فعطّسه بعد ليخرج ما أكلت. مرهم جيد لقروح الأنف بخبث الأسرب، شراب عتيق، ودهن الآس بالسوية يجمع الجميع ما يسحق ويجعل على نار لينة في إناء نحاس، واحفظ به، وداوِ به قروح الأنف، أو خذ أسرباً محرقاً مغسولاً فاخلط بالشراب ودهن الآس واجعله مرهماً فإنه جيد» (ج 1 ص 401).

وفي باب جوامع العلل والأعراض، ينقل الرازي عن «جالينوس»[11] استخدام النار على الفحم في تحضير علاج لأمراض اللثّة، فيقول: «دهن الآس في نحو هذا الدواء والشراب الذي يطبخ فيه ورد يابس، وإذا عرض في اللثّة بلّة استرخت فليتمضمض بطبيخ الجلنار ويلصق عليها منه ونحوه.. والتمضمض بماء الزيتون المملوح يشدّ اللثّة ويطرد العفونة.. ومن أبلغ ما يعالج به اللثّة التي يسيل منها الدَّم التمضمض بماء لسان الحمل وثمرة الكرم البري حين

جالينوس





ابن ماسويه

يعقد إذا أُحرق قليلاً على نار فحم، وتُرك حتى يحترق ثم يُسحق ويُطلى على اللثّة بماء لسان الحمل والتمضمض بالخل» (ج 1 ص 441 - 442).

وحول أورام اللهاة، ينقل الرازي عن ابن ماسويه[12] استخدام النار في تحضير علاج لها، عن طريق إلقاء نار في قارورة ووضعها على النقرة، على طريقة الحجامة، فيقول: «ممَّا رَأَيْته للخوانيق إذا كان يخنق صاحبه تلقَى نار في قارورة وتجَعل على النقرة فيأخذ كالمحجمة ولا تُؤخذ إلى أن يسقط وإن احتجت فأعدها فإنها بُرّؤه» (ج 1 ص 491).

ويوصي الرازي باستخدام النار في تحضير علاج للوزتين من الخطاطيف[13] التي تُحرق ويُستفاد من رمادها، فيقول:

«وينفع من اللوزتين خطاطيف بريّة تُحرق ويُؤخذ رمادها أربعة مثاقيل وزعفران وسنبل من كلّ واحد مثقال يعجن بعسل ويعالج به بحسب ما يُحتاج إليه، تُؤخذ فراخ الخطاطيف فيُنثر عليها مع ريشها ملح، ويسدُّ فم الفخارة وضعه في نار جمر حتى تحترق وتصير رماداً» (ج 1، ص 511).

النار لتحضير علاجات لأمراض المريء والمعدة

في الجزء الثاني من كتابه (الحاوي في الطب) يتحدّث الرازي عن استخدام النار في تحضير علاج للربو، متمثل في طبخ نوع من البصل على نار فحم وسقيها للمريض، فيقول: «للربو يُعصر بصل العنصل[14] ويُطرح على العصارة مثلها عسل فايق، ويعقد على نار فحم ويسقى منها ويكون مسطرن قبل الطعام وآخر بعده» (ج 2 ص 9).

وفي باب أمراض المريء والمعدة، ينوّه الرازي إلى استخدام نار فحم البلّوط في تحضير العسل لعلاج أمراض المعدة، فيقول: «العسل أيضاً وحده إذا طُبخ صار من أجود الأشياء التي يتغذّى بها أصحاب المعد الباردة، فأمّا أصحاب المعد الحارّة فضار لهم، فلا تقدّم لأصحاب المعد الباردة على العسل شيئاً، واهرب منه عند المعدة الحارّة، وإذا كان على هذا فاجعل أكثر أغذيته العسل الذي نُزعت رغوته بإحكام على نار فحم البلوط أو الكرم أو بلوط قد ذهب دخانه، فاختر له من ذلك النوع من الشراب أعتقه، ولا يكون مرّاً فإنه يجفّف أكثر ممّا ينبغي وأطل على معدته وبطنه» (ج 2، ص 140).

وفي باب الأدوية التي تصلح لأورام المعدة والكبد، ينقل الرازي عن الطبيب روفس[15] في المالنخوليا[16] أن: بوليموس[17] يعرض للمسافرين في البرد الشديد والثلج الكثير وعلاجه الإسخان بالأغذية والخمر والجلوس بقرب نار» (ج 2، ص 236).

وفي باب الأدوية المفردة يشير الرازي إلى شراب يُطبخ على نار ليّنة لعلاج الحرارة

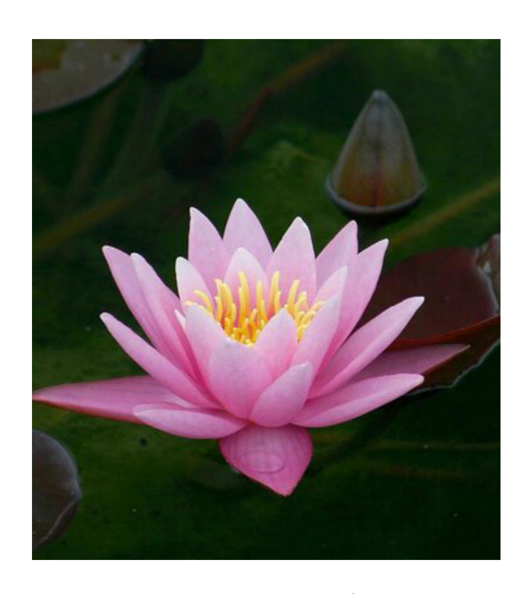

بصل العنصل


النيلوفر

والسعال، فيقول: «بنفسج نيلوفر(18) أصل السوس ويغمر بماء وينقع يوماً وليلة ويطبخ بنار لينة حتى يغلظ قليلا ويُؤخذ منه رطل ومن لب خيار شنبر[19] أربع أواق ترنجبين رطل يجمع ذلك كلّه ويطبخ على فحم وتُؤخذ رغوته حتى يصير له قوام العسل الرقيق ويسقى منه أربع أواق بأوقيتي ماء فإن أردته أقوى فألق فيه ماء البنفسج حتى تطبخه تريدا مصمغاً عشرة دراهم ويجب أن تطبخ فلوس الخيار شنبر ويصفى ويعقد وهكذا فافعل بالترنجبين[20]» (ج 2 ص 315).

النار لتحضير علاجات القولنج، والمفاصل

في الجزء الثالث من كتابه (الحاوي في الطب)، يعرض الرازي كيفية استخدام النار في علاج وجع القولنج الناجم عن ريح فقط، على طريقة الحجامة، فيقول: «رأيت رجلاً من القرويين كان إذا أحس بوجع القولنج بادر فشدّ وسطه ويأكل خبزة بثوم ويقوم إلى عمله طول نهاره ولا يشرب شيئاً البتّة فإذا أمسى شرب شراباً صرفاً فيصبح صحيحا وقد نام ليلته أيضاً نوماً طيباً»، ويضيف: «الوجع الحادث عن ريح غليظة بخارية دواءه خاصة دون غيره محجمة تعلق مراراً كثيرة مع نار كثيرة فإنه مجرّب ويذهب الوجع ساعة تعلق إن كان ريحاً فقط وإن كان معه خلط غليظ فإنه سيعود بعد ساعات كثيرة أو بعد يومين أو ثلاثة وخاصة إن كان عرض في التدبير خطأ وكان العضو العليل يلح عليه بالتكميد والإسخان وإذا كان مع الرّيح أخلاط غليظة كما ذكرنا فلا تسخن



العضو إسخاناً شديدا لكن عالجه بالأشياء اللطيفة وحينئذ تنتفع بالحقن الحادّة ولكن ارفع نوبة العلّة بالمحجمة ثم خذْ في استفراغ الخلط الغليظ بحقنة حادة فإنه سيقوم عن هذه الحقنة ببلغم لزج زجاجي ويسكن الوجع البتّة» (ج 3 ص 60).

وفي باب علل المفاصل والنقرس، يشير الرازي إلى استخدام النار في تحضير علاج النقرس، وعرق النسا، والمفاصل عن طريق ضماد، فيقول: «تُطبخ الحلبة بخل حتى تتهرأ على نار جمر، فإذا طبخت نعماً فخذْها وألق عليها عسلاً، واطبخها طبخة أخرى، ثم أنزلهَ واسحقه نعماً حتى يندبق، واطْله على خرقة كتّان وألزمه الموضع ومتى احتجتَ إلى رطوبة فاستعمل الخل الذي طبختَه فيه، ويلقى من العسل ما يعطيها قواماً يُطلى على خرقة ويشدُ على الموضع ثلاثة أيام» (ج 3 ص 517).

ولتحضير علاج الأورام في الأعضاء

في الجزء الرابع من كتابه (الحاوي في الطب)، وضمن باب جوامع الغلط الخارج عن الطبيعة، ينقل عن حنين بن اسحق العبادي، في شرحه لكتاب جالينوس إلى غلوقن، استخدام النار في تحضير علاج للأورام في الأعضاء عبر الضمادات، القول: «إذا يئست من تحلّل الورم فاستعمل الأضمدة المتخذة بدقيق الحنطة، فإن هذه تعين على التقيّح معونة بالغة، ثم بعد أن تبطّها إن رأيت ما حول موضع البط نقياً من الورم أصلاً، فاستعمل المرهم، ويجب أن تكون قوة هذه المراهم قوّة مجفّفة لا لذع معها، ولا تركيبها من أدوية قابضة، لكن يكون تركيبها إما من أدوية محلّلة فقط ليس معها في ذلك عنف ولا مكروه، وإما من أدوية فيها مع التحليل شيء من القبض. وقد استعملت مراراً كثيرة في مثل هذه الأحوال مرهم الخمير ومرهم القلقطار المحرق ومرهم القلقطار بدهن ثم انزله من النار واتركه حتى يبرد قليلاً ثم ألقه على صلابة، ورشّ عليه شيئًا من نبيذ وادلكه بكفيك».

ويضيف الرازي تعقيباً على ما ورد أعلاه: «على ما رأيت، هذا المرهم يقوم مقام الحديد عجيب فعله في ذلك جداً: زفت سائل رطب جزء وعسل البلادر جزءان يجمع في قدر على نار ليّنة حتى ينعقد كالمرهم الأسود، ويُوضع عليه فإنه عجيب واستعمل بدل الدواء الحاد هذا في النواصير وما تريد آخر: يُؤخذ ذراريح منزوعة الرؤوس والأرجل والأجنحة فألقها في دهن ما يغمرها واقلها وشطّها حتّى تصير كالقطران، وضع منها على الموضع. ومتى كنت في موضع لا تجد هذه فاستعمل لبن اللواعي التي تحمّر الجسم إذا طليت عليه، والصابون ولعاب الخردل ولبن التين ونحو ذلك» (ج 4 ص 46 - 47).

وينقل الرازي عن كتاب جالينوس (في البحران) تشبيهه الحمّى بنار حطب يسيرة، فيقول: «صحَّ لي ممّا قرأت في كتاب البحران أن نافض الرّبع بارد بالإضافة إلى نافض (21) الغب ونافض الغب كأنه شيء يوعد ويلذع البدن بثقل شديد مؤلم للعظم بثقله ونافض الرّبع مثل جليدي يماس. من النبض الكبير إذا رأيت النبض زائداً فانظر أن وجدته بعد ساعة أخرى بحسبه زائداً فإنه ابتداء نوبة حمّى يوم وإن كان بنفض فذاك لأنه أخذ دواء حارّاً» (ج 4، ص 290).

ويضيف: «والحميات الكائنة مع ورم من هذا الجنس فلذلك معها هذه العلامات إلّا أن الفرق بينهما أن في الورمية النبض، مع سرعَة الانقباض، فيه صلابة، وإنما ينضغط النبض ويصغر، ويبرد البدن في أول النوبة، لأنه يصير إلى باطن البدن من الأخلاط الباردة على غلبة البرد ما يكاد يطفئ حرارته الغريزية بمنزلة حطب كثير يلقى على نار يسيرة فأن لم تنطفئ النار وأخذت تعمل فيها فإنها لا تزال تظهر قليلاً قليلا حتى تقوى وهذا يشبه صعود الحمّى» (ج 4، ص 291).

وفي باب جوامع الحميات غير المفصّلة يتحدّث الرازي عن الحمّى البلغمية النائبة، نقلاً عن كتاب البحران، ويشبهها بنار نقيّة لا يخالطها دخان، ويربط بينها وبين الشتاء والبلد والسن والمزاج والتدبير، فيقول: «من

الحميات الخالصة المفردة؛ حمّى تكون من بلغم قد عفن تدفعه الطبيعة فتجريه في أعضاء حسّاسة وابتداء هذه الحمّى يكون مع برد في الأطراف وشيء هو بالاقشعرار أشبه منه بالنافض، ويعسر استيلاء الحرارة بعد البرودة فتطول مدّة ألف، تزيد نوبة الحمّى إلى أن تبلغ منتهاها وذلك أن الخلط الذي يتولّد منه هذه الحمّى هو في مزاجه بارد رطب وفي قوامه لزج. فلذلك هو بطيء الاشتغال بطيء الحركة ويمتنع من النفوذ في مواضع كثيرة من المجاري فيضغط ويثقل القوّة أحياناً فيجعل النبض مختلفاً وتكون النبضات الصغار الضعيفة منه أكثر، وذلك يكون في ابتداء النوبة وأول تزيدها. وليست حرارتها كحرارة الغب التي كأنها نار نقيّة لا تخالطها كدورة دخانية كأنها نار مشتعلة في حطب رطب دخاني ضبابي، ولذلك يكون الاستفراغ فيها يسيراً وطول النوبة أطول من الغب وفترتها غير نقية، ولكن تبقى فيها العلامات الدالّة على العفن في

الاسكندر الأفروديسي



حرارة البدن وفي النبض، وعلامة العفونة في العروق في ابتداء نوائبها وتزيدها على أبين ما يكون» (ج 4 ص 461-462).

ويتابع الرازي الحديث عن الحمّى في مواضع أخرى، فنجده ينقل عن الإسكندر[22] ضرورة استخدام النار طلباً للدفء في علاج الحمّى بعد أن يعدّد أنواعاً لها وردت في كتاب العلامات مثل: (حمّى لوناس، وحمّى أريطاروس، وليفورس، والبطروس)، فيقول: «وقد كان يجيء صبيّاً نافضٌ فيتقيّأ، إذا جاءه ما في جوفه ويشتدُّ عليه وجع بطنه وظهره فسقيته ماء حارّاً شديداً جرعاً جرعاً فسكن عنه وجع بطنه وظهره، واعتراه النّوم وسخنت حمّاه بسهولة، وعرق، وينبغي أن يسقى في النافض الشّديد الماء الحار، ويكبّه على بخاره فإن ذلك يسهّل سخونته وخاصة إن شكا عند النافض وجع الجوف فلا تغفل عن الماء الحار... يسقى قبل النافض: ميعة مرّ أفيون جاوشير فلفل بالسويّة يعجن بعسل ويعطى منه قدر باقلاة قبل الساعة التي تعلم أن النافض تجيء فيها ولا يسقى حتى يرقد على سريره ويجعل حوله نار أو دثّرة فإنه ينيمه ويعرقه فإنه تخف لذلك الحميات الطويلة البلغمية وينقضي أمرها» (ج 4 ص 497-498).

استخدام مفردة النار مجازياً

في الجزء السادس من كتابه (الحاوي في الطب) الذي يتحدّث فيه عن الأدوية المفردة، يتابع الرازي طرح ما جاء في كتب من سبقوه ويبدي رأيه فيها، تأييداً أو نقداً ورفضاً، ويشير إلى استخدام النار في هذا الموضع

أو ذاك، إذ يصف أن للمعدة ناراً يهيّجها الزنجبيل - مجازياً بطبيعة الحال - ويشعر بها المريض، فيقول نقلاً عن ابن ماسوية والفارسي: «قال ابن ماسويه: الزنجبيل حار في آخر الثالثة، رطب في آخر الأولى، يدلّ على رطوبته تأكله وتعفّنه وهو بليغ النفع في السدد العارضة في الكبد من البرد والرطوبة، معين على الجماع، هاضم للطعام، محلّل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة، مليّن للطبيعة، نافع من ظلمة البصر المتولّدة من الرّطوبة إذا اكتحل به.. والزنجبيل المربّى حار يابس لأن العسل زعم أذهب رطوبته، مهيّج للجماع، يزيد في حرّ المعدة والبدن، ويهضم الطّعام، وينشف البلغم، وينفع من الهرم والبلغم الغالب على الجسم.. وقال الفارسي: إنه يهضم البلغم الذي في الرأس والحلق ويهيّج نار المعدة ويمسك البطن ويهيّج الباه» (ج 6 ص 188).

كما أن السل[23] يوقد نار المعدة أيضاً، فيقول الرازي: «سل ماسرجويه[24]: هو جيد لوجع العصب، وهو حار يابس، وكذلك الفل والبل»، وينقل عن سندهشار[25] أن: «السل مرٌّ قابض حريف يوقد نار المعدة، ويعقل البطن وينفع الأرواح والقيء»، كما ينقل عن بديغورس أن: «السل والبل والفل خاصتها النفع من أوجاع العصب» (ج 6 ص 205).

أما ما يطفئ نار المعدة فهو اللبن الرائب وفق الرازي، إذ يقول في باب الأدوية المفردة: «أفضل الألبان كلّها في جودة الكيموس[26] لبن الحيوان المخصّب الصحيح إذا شرب ساعة يحلب فأمّا ما طبخ من اللبن حتى فنيت رطوبته أعنى مائيته فان كيموسه يكون غليظاً، وأمّا الجبن فإنه غليظ في طبعه أي جبن كان، فإن كان عتيقاً فهو مع ذلك رديء الخلط» (ج 6، ص 371).. وينقل عن «جالينوس» قوله: «اللّبن المعتدل في الرقّة والغلظ يخصب الجسم»... ويقول: «ألبان المواشي الأهلية التي تأكل الفت والنخالة ثقيلة مرطّبة جدّاً والراعية في الصحارى بالعكس، والرائب الذي فيه حموضة يزيد في الشهوة ويطفئ نار المعدة وينفع من انطلاق البطن» (ج 6، ص 372).

وفي هذا الجزء أيضاً يورد الرازي أسماء نباتات يتركّب اسمها من اسم النار، مثل: نار مشك، ونار دين، ونار جيل، فنَار مشك[27] وفق ما ينقل عن بديغورس أن: «خاصته الترقيق والتلطيف»؛ ووفق ماسرجويه: «إنه يابس في الثاني حار في الأولى ويرقق ويلطف»؛ ووفق ابن ماسويه: «قوته كقوة النار دين»[28]، أمّا نار جيل[29] فوفق ابن ماسويه: «إنه حار في وسط الثانية، رطب في الأولى، ودليل رطوبته سرعة تغيّره، وهو بطيء الانهضام في المعدة، والمختار منه الحديث الأبيض العذب الماء ويجب للمحرورين أن يجتنبه. والعتيق منه يخرج حب القرع. ودهنه نافع من الرّيح العارضة في الظهر والوركين والبواسير المتولّدة من البلغم والسوداء إذا شرب مع دهن نوى المشمس أو الخوخ. وإن طليت به البواسير نفع منها. وماؤه يزيد في الباه». ووفق سندهشار: «إنه يحدُّ الذهن ويسهل وينفع من وجع المثانة» (ج 6، ص 432 - 433).

نار المعدة بين الإطفاء والإضرام

في الجزء السابع من كتابه (الحاوي)

في الطب)، يورد الرازي باباً حول قوانين الصيدلة، فيشير إلى كتاب صيدلة الطب في الصيدلة، وينقل عن كتاب بوثيوس[30] في العلاج ما يطفئ نار البدن أيضاً، فيقول نقلاً عن أبقراط[31]: «لا تأكل في الصيف حارّاً بالفعل، ولا في الشتاء بارداً به. الشراب على الطعام ردي مفسد للهضم، وبعد الطعام يعين على انحدار الطعام والغذاء، إنما يحتاج إليه المحرورون. وأفضل أوقات الأكل الأوقات الباردة من النهار، ومن أحسَّ بثقل وتجشأ جشاء حامضاً فليتقيّأ بسكنجبين ويأخذ شيئاً من الكموني بعد أن أحسّ بثقل في كبده... فإذا أكل فلينم على يمينه قليلاً، ثم ينقلب على يساره وينام نومه... ولا يكثر التقلّب فإنه يهيج الرياح ويعين على الهضم، أن ينام على البطن ساعة، ويجعل على بطنه ثياباً، ويدثّر بها، ويجعل وسادته مرتفعة».

وينقل عن الطبري من بعض كتب الهند: «الإكثار من الأغذية اليابسة يُذهب القوة واللون ويجفّف البطن، والإكثار من الدسم يورث الكسل والكلل، ويذهب بالشهوة، والإكثار من البارد يطفئ نار البدن، ويُورث الثقل والكسل، والإكثار من المالح يضرُّ بالعين والإكثار من الحريف والحامض يجلب الهرم ولا ينبغي أن يُؤكل شيء ممّا يكون في الماء مع العسل والفانيذ[32] والحبوب التي لم تدرك والألبان خاصة، ولا يُؤكل اللبن مع شيء من الحموضات والبقول والثمار الحامضة، فإن ذلك يُورث الجذام، ولا يُؤكل الماست مع الفجل، ولا مع الدجاج، ولا السّمك مع البقول، فإنه رديء جداً، ولا يُؤكل سمن في إناء نحاس وصفر، ولا يشرب سويق على أرز مطبوخ بلبن، ولا يشوى الكباب على جمر حطب الخروع فإنه رديء جداً... ولا ينبغي أن يشرب ماء بئر على ماء نهر، ولا ماء نهر على ماء بئر، ولا ماء بلاد على ماء بلاد أخرى، حتى يستمرئ الماء الأول. (شرب الماء البارد على الريق) يهزل البدن ويطفئ نار المعدة، وشربه بعد الطعام يسمّن البدن ويصحّحه، ويزيد في البلغم، وشربه على المائدة يطيب النفس، ويصحّ البدن، ويعين على الهضم... ولا ينبغي أن يُطيل ويبطئ بمدة الأكل جداً ويكثر ألوانه لأن أوائله يخالف في الهضم أواخره، ويكثر منه ويثقل على المعدة، وليخطُ بعد الطعام مائة خطوة ويتّكئ على اليسار، ويجتنب بعد الطعام الاغتسال والركوب وأكل الحبوب المقلوة... وأفضل الغذاء ما كان دسماً خفيفاً مسخّناً لأن الدسم يسمّن الجسم ويُقوّي الحواس، والطعام السخن الخفيف يسرع الاستمراء ويبطّئ الهرم والطعام السخن يزيد في نار المعدة» (ج 7، ص 334).

وفي باب الراحة جيدة في نضج الأخلاط وفي استفراغها. ينتقد الرازي هذا القول والتفاسير: «النّوم يرطّب البدن في جميع الأحوال، وليس من شأنه أن يسخن أو يبرد في جميعها، لكن يسخن في بعض الأوقات، ويبرد في بعض، ويسخنه في حال ويبرده في حال أخرى، لأن الحرارة في أبدان الحيوان جنسان: أحدهما غريزي، والآخر غريب، فمتى صادف النّوم في البطن أطعمة، وفي العروق أخلاطاً بلغمية نيّة وبالجملة باردة كيف كانت هضمها وأنضجها حتى يتولّد منها دم



نبات الدخن (الجاروس)

جيد أسخن، لذلك البدن الحرارة الغريزية فيه، ومتى كانت في البدن حرارة غريبة نارية وحمّى بسبب ورم في بعض أحشائه فأطال النّوم، وكان ذلك في ابتداء النوبة، فإن البدن يسخن حينئذ بحرارة خارجة عن الطبع، ويتزيد لذلك النّوم، فيزيد في الحمّى، ومتى نام الإنسان وليست في بدنه مادة الغذاء ولا في عروقه خلط يحتاج أن ينضج بل نام بعد النضج الكامل فإن حرارته الغريزية تقل»..

فيقول: «هذا قول ضعيف وإنما يبرد البدن وتقلّ حرارته الغريزية إذا نام بعقب النضج، لأن المادة بعقب التحلّل، وإن لم يكن كحاله في اليقظة، فإنه على حال باق، وخاصة في داخل البدن، فحال النّوم بعد النضج كحال نار لا تمدّ بالزيت، فلذلك يكون كلّ ساعة أضعف» (ج 7، ص 367).

وفي علاج من أصابه السموم، من كتاب العين، يذكر الرازي أن كمد العين والأذن عند الوجع الشديد من ريح ممدّدة يمكن بالتكميد بالجاروس، واستخدام المحاجم بالنار، فيقول: «التكميد بالجاروس[33] أفضل فإنه أجف الأشياء التي يكمّد بها، وهو مع هذا يابس، والبخار المتولّد منه غير لذّاع، ولا مؤذ، والمحاجم بالنار تحلّل الأوجاع التي من الريّاح الغليظة، أين وضعت أسرع ما يكون حتى يكون... ويجب أن تعلّق عليه مرّات كثيرة بلهيب نار. إذا رأيت التكميد يزيد في الوجع فاعلم أن هناك خلطاً غليظاً تحلّله الحرارة ولا تقدر أن تفشه فتحدث تمدّداً أكثر، فاعمل في إنضاجه بالصوم والحركة والأشياء التي تسخن إسخاناً شديداً وتفش الرياح» (ج 7، ص 404 - 405).

الهوامش:

1 - هو أبو بكر محمّد بن يحيى بن زكريا الرازي (251هـ/864م - 313هـ/925م) طبيبٌ وكيميائي وفيلسوف ورياضيّاتي من علماء العصر الذهبي للعلوم، ألّف كتاب (الحاوي في الطب)، الذي ضمّ كلّ المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام 925م، وظلّ المرجع الطبّي الرئيس في أوربة لمدة 400 عام بعد ذلك التاريخ. له ما يقارب من 200 مؤلف بين كتاب ورسالة في مختلف جوانب العلوم، وله الكثير من الرسائل في شتّى مجالات الأمراض. كتب في كلّ فروع الطب والمعرفة في عصره، وترجم بعضها إلى اللاتينية، ومن أعظم كتبه «تاريخ الطب» وكتاب «المنصور» في الطب وكتاب «الأدوية المفردة» الذي يتضمّن الوصف الدقيق لتشريح أعضاء الجسم. وهو أول من ابتكر خيوط الجراحة، وصنع المراهم، وله مؤلفات في الصيدلة ساهمت في تقدّم علم العقاقير، جمع في نتاجه فكر الأقدمين، وحصيلة تجاربه وتأمّلاته واستنتاجاته، وكان شخصية أدهشت المؤرّخين والعلماء في جميع حقول المعرفة.

2 - أبو بكر، محمّد بن زكريا الرازي: رسائل فلسفية، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، طبعة خامسة، 1402هـ - 1982م

3 - أرسطوطاليس (384 ق.م - 322 ق.م): هو فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون، ومعلّم الإسكندر الأكبر. هو مؤسس مدرسة الفلسفة المشائية والتقاليد الأرسطية، وواحد من عظماء المفكّرين. تغطّي كتاباته مجالات عدّة، منها: الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقا والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان.

4 - يحيى النحوي، هو جون فيلوبونوس (490 تقريباً - 570 تقريباً)، معروف أيضاً باسم يوحنا النحوي، فيلسوف اهتم بالتعليق على كتابات أرسطو وألّف عدداً كبيراً من الأطروحات الفلسفية واللاهوتية كان مثيراً للجدل في بعض الأحيان، بخروجه على الفكر الأرسطي-الأفلاطوني الحديث التقليدي، وطرح أسئلة منهجية تؤدّي في النهاية إلى التجريبية في العلوم الطبيعية.

5 - فَرفوريوس الصّوُري (نحو 234 - 305 م)، فيلسوف سوري مواليد صور، يُعدُّ أحد أبرز ممثلي الفلسفة الأفلاطونية المُحْدَثة تتلمذ على يد أفلوطين، ووضع ترجمةً لحياته، من أشهر آثاره هي إيساغوجي، وهي مقدّمة لمقولات أرسطو.

6 - فلوطرخس: يُعرف باسم بلوتارخُس أو بلوتارخ (نحو 45 - نحو 125 م)، هو فيلسوف ومؤرّخ يوناني تلقى تعليمه في أثينا عن الفيلسوف الأفلاطوني أمونيوس، من أهم مؤلفاته كتاب «السير المقارنة لعظماء اليونان والرومان»، وكتاب «الأخلاق» أو «موراليا».

7 - أبو بكر، محمد بن زكريا الرازي: الحاوي في الطب، تحقيق: هيثم خليفة طعيمي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - لبنان/ بيروت الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م، عدد الأجزاء: 7.

8 - بولس الأجانيطي (القرن 7 ميلادي): هو طبيب يوناني بيزنطي، يُعرف أيضاً بـ «بولس

الاجيني» وبـ «القوابلي»، اشتهر في كتابة الموسوعة الطبية خلاصة الطب في سبعة كتب لسنوات عديدة تضمن هذا العمل مجموع كلّ المعارف الطبيّة الغربيّة في الإمبراطورية البيزنطية، عاصر صدر الإسلام، وعُرف عند العرب جرّاحاً متخصّصاً في أمراض النساء، فلقّبوه بالقوابلي.

9 - الكزاز، هو تصلُّب مفصل الفك، مرض خطير يسبّبه سم بكتيري يؤثّر على الجهاز العصبي، ويؤدّي إلى تقلّصات مؤلمة في العضلات، لا سيما في عضلات الفك والعنق، يُعرف بـ «التيتانوس»، ويمكن أن يعوق القدرة على التنفس.

10 - الأسرب: الرصاص.

11 - جالينوس: هو طبيب إغريقي، (129 – 216)، مارس الطب في أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وعالج العديد من الأباطرة الرومان. كان أكبر أطباء اليونان وأحد أعظم أطباء العصور القديمة. أثر بشكل كبير في العديد من الاختصاصات الطبية كعلم التشريح، الفسيولوجيا، علم الأمراض وطب الجهاز العصبي، كما تنسب له العديد من الإسهامات في الفلسفة والمنطق. يعد بجانب أبقراط أحد أعمدة الطب في العهد الروماني الإغريقي وأحد من وضع أسس الطب الحديث.

12 - ابن ماسويه: هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه الخوزي، عالم موسوعي بالطب والنبات والصيدلة، وناقل مترجم، وعالم أرض، اشتهر بالطب، توفي سنة 243 هجرية، ولد في مدينة جندسابور، عاش في القرن التاسع الميلادي.

13 - الخطّاف: طائر يشبه السنونو، من فصيلة السنونيات، طويل الجناحين، قصير الرجلين، أسود اللون، يلتهم الحشرات.

14 - بصل العنصل: هو ما يُعرف ببصل البحر، أو بصل الفأر، أو بصل فرعون، وبصل الحنش وسم الفأر، وعادة ما يُشوى هذا البصل أو يُسلق حتى تزول مرارته وحرقته، ويُؤخذ ما في جوفه للعلاج. وهو نوعان: بصل العنصل الأبيض، وبصل العنصل الأحمر. ويستخدم في صناعة أدوية السرطان. يحتوي بصل العنصل على: مادة الجلوكينين الشبيهه بالانسولين وفيتامين ا، ب، ج، والسعرات الحرارية والألياف والصوديوم والكالسيوم والفوسفور والمغنيزيوم والبوتاسيوم والكبريت والحديد والدهون والبروتين والكربوهيدرات والرماد والسكريات، ومن خواصه الطبية: منقٍّ للصدر بطبخه بالعسل، مدرّ للبول، طارد للبلغم، مانع لتجلّط الدم والانسداد في الشرايين، مقوٍّ للكبد والكلى، ومن الأمراض التي يعالجها نبات بصل العنصل: اليرقان، الربو، المغص الكلوي، الذبحة الصدرية، تشقّق القدمين، الشقيقة، الأكزيما. إلخ.

15 - روفس الأفسسي (ازدهر نحو 100م) هو طبيب يوناني، قال عنه ابن النديم في الفهرست: «كان من مدينة إفسس، قبل جالينوس، مقدّم في صناعة الطب، ولم يكن في الروفسيين أفضل منه»، درس الطب في الإسكندرية في أيام الملك تراجان الروماني (98 - 117 م)، كان العرب يعتمدون على آرائه ويرجعون إلى تصانيفه التي نُقل أكثرها إلى العربية.

16 - المالنخوليا: هي متلازمة اكتئابية محدّدة تتمثّل بحالة مزاج سوداوية ودرجة من الحزن العميق والأسى وفقدان الأمل، وعدم القدرة على الاستمتاع بالنشاطات المختلفة.

17 - بوليموس: سُعار، جوع مرض شديد مع ضعف.

18 - النيلوفر: يُعرف علمياً باسم NYMPHAEA ALBA، وهو نبات مائي معمّر ذو جذور عميقة، ينبت في المياه الراكدة له ساق أملس يطول حسب عمق الماء، أوراقه صفيحية على سوق أسطوانية، وأزهاره بيضاء كبيرة جميلة المنظر وبتلات الأزهار تكون أحياناً مشوبة باللون القرنفلي.

19 - خيار شنبر أو كاسيا فستيولا، يُعرف بالخرّوب الهندي، وهي شجرة نصف متساقطة الأوراق تصل إلى ارتفاع 10 أمتار، أوراقها ريشية طولها 30 - 40 سم.

20 - الترنجبين: هو طلٌ يسقط على الأشجار، فيه حرارة يسيرة في الدرجة الأولى، وله لطافة مكتسبة من النبات الذي يسقط عليه، يليّن البطن بها تليينا يسيراً، وتدلُّ على الحرافة عن المزاج المعتدل إلى الحرارة اليسيرة، عذوبته، فلذلك صار مليّناً للصدر.

21 - إذا أخذت الإنسان الحمَّى بحرارة وإقلاق، فهي مليلة، ومنها ما قيل: فلان يتململ على فراشه، فإذا كانت مع حرّها قرّة، فهي العرَوَاء (نافِض، كما في المعجم الطبّي الموحَّد)، فإذا اشتدّت حرارتها، ولم يكن معها برد، فهي صالب.

22 - الاسكندر الأفروديسي: فيلسوف وجدلي، من أكبر شرّاح أرسطو في العصر اليوناني - الروماني، وهو ينسب إلى أفرو ديزياس في منطقة كاري من آسيا الصغرى عاش في الربع الأخير من القرن الميلادي الثاني والربع الأول من القرن الثالث وقد أهدى كتابه «في القدر» إلى الامبراطورين سيفيريوس وأنطونيوس بين سنتي 198 و208م، وعهد إليه تدريس فلسفة أرسطو في أثينا بين عامي 197 -211م وثمّة ما يشير إلى أنه أقام مدّة من الزمن في روما حيث يحتمل أنه لقي «جالينوس».

23 - الأسل: نبات طبي ذكره ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. والأسل في اللغة هو الشوك، ولكنه أصبح علماً على هذا النبات لكثرة شوكه وحدّته.

24 - ماسرجويه: طبيب وفيلسوف عراقي يهودي، عاش في القرن الأول الهجري القرن السابع الميلادي، دخل تاريخ الطب العربي من أوسع أبوابه، فهو أوّل مترجم لكتاب طبي إلى العربية، ذلك أنه نقل من السريانية إلى العربية كتاب كناش أهرن للقسّ الإسكندري لقب ماسرجويه بمطبّب البصرة، وسمّاه الرازي باليهودي. نقل ماسرجويه بعض مؤلفات الفيلسوف السكندري اهرن القس من السريانية إلى العربية، والف إلى جانب هذا كناشاً وكتابين في طب الغذاء وطب العيون و(الكناش) هو الدليل الطبي، وهو كتيب صغير يحوي معلومات وإرشادات عامّة للأطباء. بسبب المقالتين التي أضافهما في ترجمته لكتاب كناش أهرن فإن ماسرجويه يعدُ أول مؤلف في تاريخ الطب العربي، كما عُدّ أوّل مترجم لكتاب طبي عربي.

25 - سندهشار: طبيب ورد اسمه في كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء) لابن أبي أصيبعة، ص159. حيث ورد الآتي: «ليوحنا داوود بن سرابيون من الكتب كنّاشه الكبير اثنتا عشرة مقالة، كناشه الصغير، وهو المشهور سبع مقالات، ونقله الحديثي الكاتب لأبي الحسن بن نفيس المتطبّب في سنة ثمان عشرة وثلاثمائة، وهو أحسن عبارة من نقل الحسن بن البهلول الأواني الطبرهاني ونقله أيضا أبو البشر متى، ومنهم أنطيلس وبرطلاوس وسندهشار والقهلمان وأبو جريج الراهب وأوراس وبوينوس البيروتي وسيورخنا وفلاغوسوس وعيسى بن قسطنطين ويكنى أبا موسى وكان من جملة أفاضل الأطباء وله من الكتب كتاب الأدوية المفردة كتاب في البواسير وعللها وعلاجها.

26 - الكيموس: كتلة حمضية شبه سائلة، وهي تتكوّن بفعل العصارة المعدية وحركات الطحن في المعدة وناتج الهضم الأولي الذي ينتقل من المعدة إلى الأمعاء الدقيقة بعد أن يطحن الطعام ويهضم جزئياً ويمتزج بالعصارات المعدية الحامضة، وله قوام لزج لبني وله درجة حموضة مرتفعة ويحتوي الكيموس على: السكريات الناتجة عن هضم النشاء، والبروتينات، والدسم وبالتالي يتم انتقال كامل محتوى المعدة المهضوم وغير المهضوم من إلى الأمعاء الدقيقة حتى إكمال عملية الهضم النهائي والامتصاص.

27 - نارمشك: إسحاق بن عمران: تأويله بالفارسية مشك الرمان وهو رمانة صغيرة مفتحة كأنها وردة لونها يميل إلى البياض والحمرة والصفرة وفي وسطها نوار لونه كذلك وطعمه عفص ورائحته طيبة يؤتى به من خراسان وهو حار في الأولى يابس في الثانية الرازي في الحاوي: هو فقاح شجرة يقال لها نارماسيس وخاصيته الترقيق والتلطيف سواء. ابن ماسويه: قوته كقوّة الناردين. ابن سينا: لطيف محلل جيد للمعدة والكبد الباردتين وبدله ربع وزنه زنجبيلاً ونصف وزنه قشر الفستق وسدس وزنه سنبلاً. ابن عمران: وبدله وزنه كموناً كرمانياً وثلث وزنه قسطاً بحرياً.

28 - ناردين: باليونانية إذا قيل مطلقا يراد به السنبل الهندي ويقال بكسر الدال المهملة وإسكان الياء المنقوطة باثنتين من تحتها ويخطئ من يفتح الدال ولا يحرك الياء على لفظ التثنية، وإذا قيل ناردين قليطي يراد به السنبل الإقليطي وهو الرومي وناردين أورى وهو السنبل الجبلي وناردين أعربا معناه سنبلى بري ويقال على السنبل الجبلي وعلى الفرو وعلى الأسارون لأن هذه كلها تدعى سنبلاً برياً.

نافوخ: إسم ببغداد لأصل النوع من السوسن الأحمر المسمى باليونانية كسيفيون وهو الدليوث وقد ذكرته في حرف الدال المهملة.

29 - جوز الهند أو النارجيل (الاسم العلمي: Cocos nucifera) هي نوع نباتي يتبع جنس النارجيل من الفصيلة الفوفلية وهي إحدى الفواكه الاستوائية المشهورة والتي تنمو على الشواطئ وتدخل في صناعة العديد من المواد الغذائية والتجميلية النارجيل هو الاسم المستخدم في سلطنة عمان لأشجار جوز الهند حيث تنمو هذه الأشجار في الجزء الجنوبي من سلطنة عمان وذلك في

محافظة ظفار بصورة كبيرة، لتلائم مناخ تلك المنطقة مع المناخ الملائم لنمو هذا النوع من النخيل.

30 - آنيسيوس مانليوس سيفيرنيوس بوثيوس (480 – 524م)، هو فيلسوف وسياسي روماني اشتهر بعجلة الحظ وعزاء الفلسفة التي أصبحت واحدة من الأعمال الفلسفية الأكثر شعبية وتأثيراً في العصور الوسطى.

31 - أبقراط أو أبقراط الكوسي (ولد: حوالي 460 قم - توفي: حوالي 370 قم)، معروف أيضاً باسم أبقراط الثاني؛ هو طبيب يوناني عاش في عصر بريكليس (العصر الكلاسيكي اليوناني). يُعدُّ من أبرز الشخصيات في تاريخ الطب عبر التاريخ. هو سابع الأطبّاء العظام في تاريخ اليونان. ينتمي إلى عائلة آل أسقليبيوس الذين بدؤوا بالأخير وخُتموا بجالينوس المُلقّب من قبل الرازي بـ«ثاني الفاضلَيْن»، بعد أبقراط الذي سُمّي لدى العرب بـ«الفاضل»، تكريماً له. هو «أبو الطب»، كما لقّبه العرب، ثم شاع تلقيبه به في العالم حتى لا يكاد ينازعه على هذا اللقب أحد ممن سبقوه أو لحقوه، اعترافًا بإسهاماته في المجال الطبي. ونظرًا لتأسيسه أول مدرسة طبية عملية عُرِفت لاحقًا باسم مدرسة أبقراط الطبية، حيث أحدثت هذه المدرسة الفكرية ثورة في الطب اليوناني القديم، حتى أصبح الطبُّ ذا نظام متميز عن المجالات الأخرى التي ارتبطت بِه تقليديًا مثل السيمياء والفلسفة، ليُعرف بعدها مهنة قائمة بذاتها كما هو اليوم.

32 - فانيذ: ضربٌ من الحلواء معروف، مُعرّب: يانيد، أهمله الجوهري، وقال الأزهري، هو ضرب من الحلواء.

33 - الجاروس: هو الدخن، نبات الدخن، ويسمّى البشنة أو ايلان، يستخدم كمصدر للغذاء للإنسان والطيور، وله قيمة غذائية، إذ يحتوي على كمية كبيرة من البروتينات والفيتامينات، إضافة إلى عناصر معدنية، مثل: الفسفور، الحديد، النحاس، البوتاسيوم، الكالسيوم، المغنيزيوم، والسيلينيوم ويحتوي نبات الدخن على العديد من العناصر الغذائية المفيدة والصحية لجسم الإنسان، فهو غني بالبروتين والألياف والأحماض الدهنية والأمينية المفيدة للبشرة، كما يحتوي على مضادّات الأكسدة المفيدة لخلايا الجسم ـ ويفيد في تخفيف حدّة تشنّجات وآلام الدورة الشهرية، بسبب احتوائه على نسبة عالية من معدن المغنيزيوم الذي يخفض ضغط الدم، ويساهم أيضاً في التخفيف من تواتر الصداع النصفي، ويقلّل من حدّة الربو، ويقوّي الدورة الدموية في فروة الرأس، وبالتالي يساعد على نمو الشعر بشكل أكثف وبصورة أقوى، يخفض مستوى الدهون الثلاثية في الدم، وبالتالي يوفّر الوقاية من الإصابة بتصلّب الأوعية الدموية والشرايين، يحافظ على البشرة مشدودة، ويؤخّر من علامات تقدّم السن، بفضل غناه بالعديد من الأحماض الأمينية، ويساعد في تجديد الخلايا التالفة وبالتالي تكون البشرة أكثر إشراقاً.

❖❖❖



طقوس شامانية

«ظل الإنسان.. شعائر سوداء»!

د.هاني حجاج

بعد فترة من الزمان (تطول أو تقصر)، يعود الميّت مرّة أخرى ليقضّ مضاجع الأحياء. هكذا كانت التصرّفات الغريبة في أماكن مثل جبال الهيمالايا وبين قبائل الليبو والشربا تعزى جميعاً إلى عالم خاص، عالم مجهول شديد الغموض.

الميّت العائد حسبما يؤمن القوم في شعب الليبو، هو الإنسان عندما يموت ميتته الطبيعية فإن الشاماني (الذي يؤدّي شعائر الدفن) يذهب في صحبة هذا الميّت إلى العالم الآخر... ويعتقد أهل الليبو أن هذا العالم يقع إلى الغرب من عالمهم إلى جانب الشمس والقمر، وعلى الرغم من هذا فإن ضوءهما لا يخفي هذا العالم، بل إن ضوءهما يسطع خافتاً إلى جواره...

وفي نهاية رحلته يصل الشاماني بالميّت إلى منطقة البحيرات، ليغرقه في بحر الدموع، الذي يمتدّ وراءه أول حدّ لقرية الموت، وهناك ينادي على الأسلاف البادية ظلالهم على الصفة الأخرى، ويطلب منهم أن يعتنوا به... وفي هذه الأثناء، تتعلّق به بعض الأرواح، وتصاحبه إلى عالم الأحياء... عالمنا.

على أية حال فإن هذه الطقوس ليست سرّية تماماً بالنسبة للأحياء هناك، إذ إن هذه الشعائر تؤدّى أمام أهل القرية الذين يتجمّعون في منزل الفقيد.

ويعيش كلّ سكان القرية في منازل صغيرة، ويقيم حديثو الموت في مساكن تشبه مساكن الليمبو هذه الأيام، أما الموتى منذ فترة طويلة فإنهم (بطبيعة الحال) يعيشون في منزل كبير نسبياً.

وفي المقابلات التي توالى إجراؤها مع شيوخ القبيلة هناك وأشهرهم تارابيه الذي ادّعى أنه قد بلغ قرية الموتى هذه في عالم الأحياء، وإمعاناً في تصديق ما يقول يروي الحلم بتفاصيله الدقيقة، فيقول: «إن الموتى هناك يلبسون عمامة ورداء من القماش زاهي اللون، أما الحقول فسوداء اللون تماماً!!» وبالطبع، فإن هذه الأقوال تضاربت إلى حدٍّ كبير في كلّ شيء.

فلماذا يعود هؤلاء الموتى لتنغيص حياة الأحياء؟

لعلّ تفسير هذا يمكن في كون بعض هؤلاء الموتى لا يستطيعون بلوغ قرية الموتى هذه إطلاقاً وإنما يبقى معلّقاً في رحلة الـ «ما بعد» الذي لا يستطيعون استكمالها إلى قرية الموتى...

في «ليبانج» ظهرت إحدى الحالات، وذلك عندما نسي أهل الدار قطّة داخل الدار التي أغلقت في ليلة التهجّد على جثمان الجدّة المتوفّاة، هذه القطّة راحت تتمسّح في الجسد المسجّى، فعلة هذه القطّة نجّست الجسد المتوفّى، ممّا جعل هذه الجدّة لا تصل أبداً إلى مرحلة الأسلاف.

ونادراً ما تحدث مثل هذه الحالات، فقد جرت العادة أن الميّت يصل إلى منتهاه في قرية الموتى، وذلك بفضل الأحياء الذين يوفون بالعهد دائماً.

الشاماني في زعم البدائيين هو كالعرّاف أو الطبيب، إلا أن الفارق هنا أن دور الشاماني يبدأ بعد أن يموت المريض أو الشخص المعني بالعناية، والنشاط الشعائري ليس هو النشاط الوحيد الذي يمارسه الشاماني، فهو يتاجر بخدماته في التطبيب ليكسب قوته كأي فرد في المجتمع، وفي الحقيقة فإن معايير التقاليد هناك تتطلّب ألا يطمح الشاماني في الربحية طالما أن روحه الحارسة تطالبه بأن يكون زاهداً، أما بالنسبة لمركز

الشاماني الاجتماعي فقد انحطّ على مرور الزمن خصوصاً بعد اعتناق الإسلام.

والشاماني مثل العديد من المهن يمكن أن يكون رجلاً أو امرأة، فالشامانيون في شعوب الأوزبك والتادجيك يغلب عليهم أن يكونوا من النساء، وبالنسبة للقوقازيين، والتركمان، والقرغيز، والكاركلباك، والأوجر فيغلب عليهم أن يكونوا رجالاً، ومرّة أخرى فإن دخول الإسلام - الذي حدّ من انتشار النشاط الاجتماعي للشامانية هو الذي أدّى إلى أن يقتصر النشاط الشاماني تقريباً إلى محيط المرأة.

أما الأدوات التي يستخدمها الشاماني، فإنه يرتدي ثياباً بيضاء غالباً (على الأقل أثناء تأدية الشعائر) وبعض الشامانيين الرجال يحبّون ارتداء أزياء النساء (وهذه العادة كانت منتشرة في واحة خوارزم ووادي فيرجانا)، ويمكن تفسير عادة التخنّث في الثياب هذه (والتي يعود تاريخها إلى الفترة السقيتية) بالمعتقد القديم الذي كان سائداً في آسيا الوسطى بأن الروح الحارسة للشاماني كانت أنثى في الأصل، لهذا فإنها تحبّ أن ترى نفسها وهي محتواة في الشاماني (في المظهر الخارجي على الأقل)، هذه الفكرة يعارضها باحثون مثل «بوجوراس» و «سترانبرج» الذي يعتقد بوجود علاقة جنسية بين الشاماني وروحه الحارسة.

والشاماني يحتاج في عمله إلى آلة موسيقية، إنها آلة تشبه الطبلة، تخترق جلدها فتحات صغيرة لاستقبال الأرواح التي يستدعيها الشاماني أثناء أداء الشعيرة.

ويستخدم الشاماني أداة تشبه السوط يستخدمها في طرد الأرواح التي سبب أذى للمكابدين، أما العصا والخيرزانة التي كان يستخدمها الشاماني من قبل فلم يعد يستخدمها إلا الدراويش.

ومع شعائر معينة يستخدم الشاماني مرآة، ودلواً ممتلئاً بالماء، كما أنه يستخدم في بعض الأحيان - كنتيجة لتأثير الإسلام - المسابح وكتب الصلوات (التي لا تقرأ، بل ولعلّها لا تفتح من الأصل في أغلب الأحوال).

والشاماني يقيم مذبحاً صغيراً يحتفظ فيه بأدواته والأطعمة التي يقدّمها إلى الأرواح، ولذلك يحجز منطقة شديدة الخصوصية في حالة طهارة شعائرية وذلك كي تستخدمها الأرواح التي يعتقدون إنها ترتبط بمصير عائله الشاماني.

وعمليات الرصد البحثية تجد أن لجلسة تحضير الأرواح الشاماني معنى واضحاً بالنسبة للمشاركين فيها، لأنها تمثّل رحلة الشاماني إلى العوالم الأخرى بحثاً عن روح المكابد، أو زيارة روح يتوقّعون منها المساعدة، أو في البحث عن روح شريرة والمحاولة في التخلّص منها.

والمعلومات المتاحة الآن تؤكّد وجود حاجات اجتماعية معينة كانت السبب في ظهور الشامانية، وليس على خصائص نفسية معينة لعدد محدود من الأفراد، واختيار المرشّحين محدود بصفات معينة مثل أن يعرف كيف يغني وكيف يدقّ على الطبل وأن يملك كامل السيطرة على جسده، وأن يتّسم بالحساسية وخفّة اليد وثقة زائدة بقدراته الخاصة وأن يكون متأكّداً من مساندة الروح الحارسة له قبل أن يضع هذه القدرات موضع الاستخدام.

والشاماني يبدأ مهمّته بالسقوط في غيبوبة



هي أقرب إلى حالات الهياج، نوبات التشنّج يعتقدون أنها تطوّر طبيعي ومنطقي من إملاء الروح الحارسة، ثم يبدأ ابتهالاته الشامانية وهي مزيج عجيب من الموسيقا والشعر والمقامات، ويؤمن الأوزبك أن موهبة الشاماني الفنائية هي من تأثير الأرواح، وأن منشد الشعر الملحي «ماناس» هو الذي يعلمه هذا الفن في الأحلام.

ولا ينبغي النظر إلى النجاح غير العادي للشامانية المدنية على أنه أمر محدود بدوره الطبي كما يقول الباحث «جان بييرشوميل»، فمن الواضح أن الشامانية قد أصبحت الآن جزءاً من الحياة السياسية لمعظم دول أمريكا اللاتينية، فالعديد من المرشّحين للوظائف المهمّة يتقدّمون ويفوزون بها (جزئياً على الأقل) على أساس أنهم على علاقة (حقيقية أو غير حقيقية) بالشاماني المعروفين.

ففي أيار/مايو 1991 دعي «البرتو فوجيموري» رئيس بيرو شخصياً إلى ليما المعالج البرازيلي الشهير لعلاج «فوجيموري» من كسر كان مؤلماً للغاية، وقد امتلأ ستاد ليما الكبير بعشرات الآلاف من المرض الذين جاؤوا للعلاج بجانب رئيسهم، وعلى الرغم من أن معجزات البرازيلي كانت محبطة إلا أن خزانته كانت تحوى معجزات أخرى: إذ إن تمثالين من تماثيل العذراء في ميناء كالو بالقرب من ليما، بدأ في البكاء وبعدها كان آلاف المؤمنين المحبطين من صانع المعجزات البرازيلي قد اندفعوا ليتجمّعوا أمام التمثالين الباكيين، وكان من بينهم الرئيس فوجيموري، وقد اعترف فيما بعد بأنه طلب من العذراء المساعدة في إعطاء الأمل للشعب.

وإن أكثر الكلمات شيوعاً في الاستخدام لتسمية الشامانية قد اشتقّت في الأصل من المصطلح التركي (كام kam)، حيث تدين أشكال الشامانية في وسط آسيا في ما يتعلّق بتجانسها النسبي إلى تقليد عام مشترك وإلى تأثيرات الديانة الإسلامية، التي تتميّز في اتجاهين واضحين يتوافقن مع مجموعتين عرقيتين تسكنان هذه المنطقة، المجموعة الأولى تتحدث التركية، والأخرى تتكلّم الإيرانية.

والواجبات التي يشترك فيها كافة الشامانيين في منطقة وسط آسيا هي تشخيص أسباب المرض وعلاجها، البحث عن الأشخاص المفقودين، الكشف عن الأشياء المسروقة، وهذه الواجبات التي يقومون بها قد تقلّصت إلى حدّ كبير عندما بدأ العرّافون والمعالجون يحلّون محلّهم، والانتشار الشعبي هنا ليس بالضرورة في صالح الشاماني، لأن العرّافين والمطببين يجرون بدورهم مراسم احتفال تشبه بدورها طقوس الشاماني. ومثله فإنهم يحاولون الاتصال بالأرواح.

أما البداية البحثية الحقيقية لمحاولة إثبات أن كلّ هذا هو محض هراء، فكانت عندما بدأ «تايلور» (1871) يؤكّد أن الشاماني ليس إلا وارثاً لتركة من الأمراض العصبية الهستيرية كالصرع، وقد سارع كثير من الباحثين الروس (ومنهم خاروزين وميخائيلوفيسكي وأنوكسين وبوتانين وكاجاروف وكسينوتوف وغيرهم) إلى متابعه هذه الدعوى، كما استمر بعض منهم (فينشتاين والكشيف وميخائيلون وسميتشوف) في دعم وتأييد هذا الجدال، حتى على الرغم من أنه قد ثبت بالفعل خطؤه بعد تفنيده منذ زمن طويل.

واعتماداً على المعلومات التي جمعت من منطقة وسط آسيا، يعدُ حامل الأرواح التي يتمّ التحرّر منها من خلال الممارسات الشامانية محمّلاً بالعلل والإسقام، والحقيقة أن هذا المرض يعدُ أمراً لا بدّ منها منه، ويري فيه الأوزبك والقرغيز عرفاناً بالجميل وعلامة على رضاء الأرواح، وحتى وإن كان واضحاً بالنسبة للجميع أنه يتم استدعاء الشاماني لكي يتأكّد من التشخيص الصحيح، ويعتقدون أن الأرواح لا بدّ وأن تحمل الشاماني الصغير إلى العالم السفلي وأن سبب المرض يكمن في كونها تخفيه هناك في خلال أغصان شجرة الحياة وأن توفّر له القوّة وأن تحيطه بالرعاية والحنان بغرض إعادة خلق هذا الشخص المختار.

إنها تقطع جسمه إرباً وتطهوه حتى تستطيع أن تأكل اللحم، ثم إنها بعد ذلك تقوم بتلفيق



أعضاء معينة من الجسد بعضها مع بعض وذلك قبل أن تردّه إلى الحياة مرّة أخرى.

ويحدّثنا «رادولف» (1893) عن شامانية من الأوزبك اسمها «أوتشيل» من منطقة «سمرقند»، هذه المرأة كانت روحها الحارسة (حسب أقوال رجل عجوز صالح هناك) إنها كانت لرجل تقي أمرها أن تصبح شامانية حتى تنقذ البشر، لقد جنت هذه المرأة وصار سلوكها مثيراً للخزي والعار، حتى بلغ بها الأمر إلى حدّ إلقاء ابنها من سطح الدار، حتى طفح الكيل بزوجها فقيد يديها ورجليها وحبسها في غرفتها.

ويقول القوم إن تلك المرأة التي حبسها زوجها في الدار خشية أن تستمر في ممارساتها المخبولة قد تمكّنت من الفرار رغم القيود، وذلك أن روحها الحارسة قد أطلقت سراحها عبر المدخنة، وهذه الروح، أتت من رجل تقي صالح في زعمهم، فاصطحبها معه إلى الجبال المحيطة، وهناك تولي مهمّة تعليمها وتعريفها بالأزمنة الخوالي، وعلمها الكثير من الممارسات الشامانية: «ابتهلي من أجل الحياة الحاضرة، ومن أجل الحياة الآخرة، ابتهلي من أجل الناس، ابتهلي من أجل السعادة والعمر المديد، ابتهلي من أجل الرخاء والخصوبة».

وفي هذا ما يدلّ على نوع من التعليم تمّ تلقينه من خلال الأحلام، وهذه الأحلام لا تلعب دوراً مهمّاً في الممارسات الشامانية فحسب؛ بل إن لها دوراً مهمّاً جدّاً في الإدراك بكافة المعارف الخاصة بالشعيرة الشامانية.

وفي الواقع ليس هناك تقليد معين لتلقّي الشخص المختار تعاليمه عن طريق شاماني ذي خبرة، فهذا الاتجاه مشكوك في صحته، ولكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال الإنسان الطموح من السؤال والاستفسار عمّا يعني له، الحقيقة إن الأمر كلّه يتوقّف على استعداده لاعتناق دوره...

إلّا أن معظم المعلومات الإثنوغرافية التي تشكّل حيثيات الأحكام في موضع شخصه الشاماني إنما أتت من مجتمعات تطبّعت ثقافياً أو - على الأقل تمرّ بعملية تحوّل ثقافي عديد التسارع - مثل منطقة سيبيريا (وهي إحدى المناطق المحقّق وجود الشامانية بها)، كانت في غمار مرحلة تحوّل ثقافي في الوقت الذي بدأت فيه أول البحوث، والأمر ذاته بالنسبة لأمريكا الجنوبية، ومن هذا المنظور يمكن اعتبار الشاماني بأنه شخص هامشي، شخصيته غير مستقرّة، يعاني من عدم القدرة على الاندماج والتوافق! لهذا فهو ينزع إلى العزلة والتصوّف، ويجد في الشامانية وواجباتها حلاً لمشكلاته الشخصية وأزماته النفسية، إلا أنه في بعض الأماكن في أمريكا الجنوبية يكون للشاماني تألّق اجتماعي أكبر، إذ إن استدعاءه ليؤدّي الشعائر الشامانية يتمّ عن طريق الجماعات وليس الأفراد، وحتى في أثناء تلك الشعائر التي يؤدّيها فإنه يتحوّل إلى تجسيد حيّ لكلّ قيم جماعته، ومثل جميع الشعائر الأخرى فإن شكل هذه التجربة ومضمونها وقيمها الروحية والمادّية تحتشد في أنماط ثقافية، هذه الأنماط يجب أن ينقلها الشاماني المخصوم في النهاية إلى الشاماني المبتدئ والذي سوف تحكم الجماعة على قدراته في نهاية الأمر، وهذا التدريب على الشامانية



يتطلّب قدرات غير عادية مثل الصوم والنسك والاعتزال والإمساك عن الممارسات الجنسية، هذا إضافة إلى المجهود العقلي الذي قد يكون أكثر صعوبة، حيث يجب أن يُظهر الشاماني قدراً هائلاً من البراعة الحرفية، ولا بدّ أن يمتلك الشاماني سعة الخيال والقدرة على الابتكار، وأن يكون قادراً على ارتجال التراتيل وخلق مساهمات شخصية إلى التراث الجمعي للطقوس المقدّسة.

وفي حقيقة الأمر فإن اختيار الشاماني يتحكّم فيه بالدرجة الأولى المجتمع الذي يكافح تحت وطأة تغييرات اجتماعية وثقافية لا ترحم، وتصرّفات الأفراد الذين يعانون من هذا التغيير، وصنع الشاماني هنا يعدُّ استجابة للقلق الاجتماعي والنفسي من جرّاء هذا التغيير، وفي هذه الحالة فإن تبنّي دور الشاماني (والذي يتحقّق بدرجات متفاوتة من النجاح) يتمّ السعي وراءه وتبريره كدفاع ضدّ أحداث لا يمكن السيطرة عليها، كما يؤكّد «ليفي ستراوس» في نص شهير له لكي يضرب مثلاً على الدور الذي تلعبه الشامانية في مواجهه نزعات علم النفس المرضي، فإنه إذا كانت نسبة حدوث العصابيات والذهانيات تحت تأثير الاحتكاكات الحضارية، تتجه إلى الارتفاع في الجماعات التي لا تلعب فيها الشامانية أي دور، بينما في المجتمعات الأخرى فإن الشامانية نفسها هي التي تتطوّر، وإنما من دون نمو مناظر في المشكلات العقلية.

الذين تمكّنوا من حضور بعض جلسات الشاماني، قد استطاعوا تسجيل شيء من التراتيل التي تعدُّ جوهر هذه الجلسات، والكلام عن هذه الجلسات وما يدور فيها شرحه يطول لذلك سوف نقتصر هنا على تحديد الملامح الرئيسة لتلك الجلسات.

إن أساس هذه الجلسات كان يتجلّى في هذه الفترة التي كان يتمتّع فيها الشاماني بالقدرة في

تجسيد الأرواح، كما أن تلك الجلسات المحدودة قد خلت بالطبع من التأثيرات المسرحية الأخرى على غرار قرع الطبول والرقص والألاعيب السحرية بغرض تهيئة الحاضرين، وتبدأ الأرواح في الكلام من خلال الشاماني وأيضاً تجري حواراً مع المشاهدين وتلقي بعض التنبّؤات بالمستقبل، ثم تبدأ الروح بتعريف نفسها للحضور (من خلال صوت الشاماني الرخيم) ويضع الشاماني أثناء هذه الجلسة غطاء الرأس المعروف باسم «السيميدي» وهو أشبه بـ (الطرحة) التي تغطّي وجه العروس، وهذا يعني انفصاله عن العالم، وتحوّله في تلك اللحظة إلى بلورة شفافة جاهزة لاستقبال كلّ ما تبثّه الروح التي تتقمّص جسده، وفي نهاية الجلسة يرفع هذه الطرحة ويبدأ في العودة إلى حالته الطبيعية.

وكان الملفت للنظر بشكل مثير في خلال هذه الجلسات هو تكرار العديد من الكلمات والتعبيرات الروسية الأصل مثل (الطبيعة السرمدية لجواز المرور بين العوالم - الرفيق الموثوق به - آلاف من الرجال الروس، مصدر كل الآلات الثقة في محرّكات القوارب) الأمر الذي يفتح الباب أمام الباحثين للعديد من الاحتمالات.

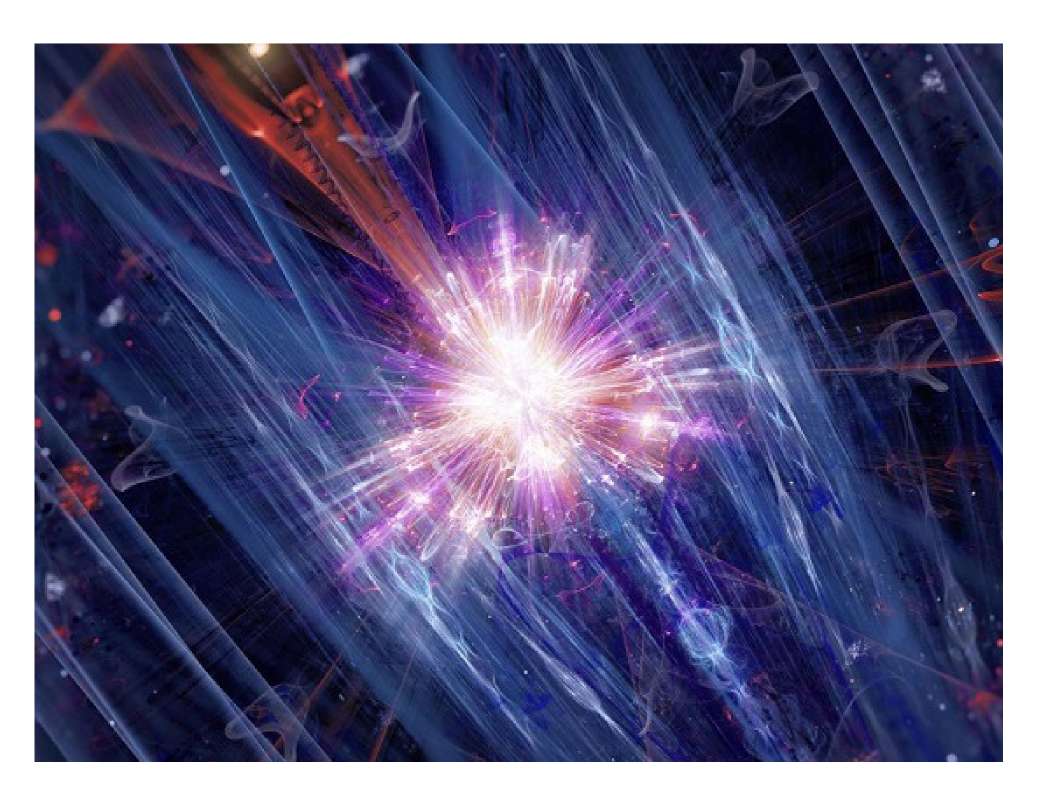
على أية حال فإن الحدود التي توضع معالم المجازات والتصوّرات الذهنية عن موضوع الشامانية دائماً تميّز مجالاً تثور فيه تساؤلات معينة لا بدّ من الإجابة عنها من خلال طريقة معرفية يصبح فيها ما يقبله العقل واقعاً في نطاق الحقيقة، ومن ثمّ فإن أنشطة الشاماني لا بدّ أن تربط العقل بالواقع الاجتماعي والأنثروبولوجي وأيضاً السياسي، فهو مع انتشاره يعدُ موضوعاً معرفياً وأخلاقياً في الوقت نفسه.

وإذا وجد أن موضوع الجنون بكافة تعبيراته الاجتماعية يمثّل جزءاً متمّماً للتصوّر البشري أو تمثيلها في المجتمعات الشامانية على الأقل، يمكننا وقتها أن نفوس الجنون في التصنيفات المرضية لهذه المناطق، أي إنه عندما يتمّ الربط الصريح بين الجنون وبين أنثروبولوجيا هذه المجتمعات فإن تطوّرها (كجزء من التطوّر العالم للبشرية) سوف يتمّ تفسيره بمجموعة من التجلّيات المرتبطة بأسلوب وجود المجتمع بأكمله.

وبينما تنتظر بعض هذه المجتمعات وبعض الباحثين كذلك اليوم الذي سوف تأتي أرواح أخرى وآلهة أخرى لتغنّي ترانيمها وترقص بين الناس، وتنتظر بعد كلّ هذا وفي حينه التهليل والتبجيل بين الجموع، فإن تلك الأصوات التي ألهمت الشاماني لأزمان قد أصبحت اليوم تمتمة خافتة لا تكاد تسمع.

كما أن كافة الإيهامات التي تضخّمت كثيراً جدّاً قد وقعت في المأزق المعروف بين الإيمان والمعرفة، لكونها تشتمل على الادّعاء بما يؤمن به الآخرون، وتصديق ما يدّعيه آخرون غيرهم، هذه الإيهامات سوف تختفي هي الأخرى بلا جدال...

هكذا يتحدّث العقل، وهكذا يقول صوت مجتمعات عقد الصلح مع نفسها ومع الطبيعة منذ زمن طويل، وأن آخر جنود الهذيان الإثنولوجي والسياسي قد دفن أحقاده منذ زمان أطول...



الكونُ الكَمومي

المبدأ الأنثروبي النهائي

فرانسوا آروش - ترجمة: د.عادل داود

قَدَّم «جون بارو» و«فرانك تيبلر» إسهاماً مهمّاً في فهم المبدأ الأنثروبي الذي تضمَّنه بيان «كارتر» والبيانات اللاحقة، وذلك في كتابهما: المبدأ الأنثروبي الكوني. وأعطى الكاتبان بيانات دقيقةً، للتعريف بمختلف الإصدارات. فوُصِف المبدأ الأنثروبي الضعيف على النحو الآتي:

«القيم التي جرى رصدها لجميع المقادير الفيزيائية والكوزمولوجيّة ليست محتملة بنحو متساو، لكنها محدودة بمقتضى وجود أمكنة يمكن فيها تطوّر الحياة القائمة على الكربون، وبمقتضى أنَّ الكون عتيق لدرجة أتاحت حدوث ذلك».

بل ينطوي المبدأ الأنثروبي القوي على التعريف الآتي:

«يجب على الكون امتلاكُ خواصّ تسمح للحياة – في وقت معين من تاريخه – بالتطور ذاتياً».

ونتجَ عن هذا التعريف (المتضمِّن الفعل: يجب) رؤيةُ الكثيرين في المبدأ القوي تعبيراً عن غرض وعن غائية في تاريخ الكون. فوُجِّه تاريخ الفضاء الكوني بصورة إجبارية، منذ اللحظة الأولى، نحو ظهور الحياة والوعي.

ويضيف «بارو» و «تيبلر» لهذين التأويلَين (الضعيف والقوي) «المبدأ الأنثروبي النهائي»، المتمخِّض عن عملهما الفكري، إذ يُعزِّز «الوجوبُ» بصورة كبيرة وفقاً له:

«يجب على المعالجة الذكية للمعلومة التطوُّر – بضرورة الأمر– في الكون، وما إنْ تظهر المعالجة، فلن تزول أبداً».

وثمّة اختلاف بين تطوّر «الحياة البيولوجية» وتطوّر «المعالجة الذكية للمعلومة». فالحياة البيولوجية ليست في واقع الأمر ذكية بالضرورة. ولا يَدخل – من وجهة النظر هذه – وجود حياة بيولوجية بسيطة في صراع مع النظرة المادية. وتَفترض المعالجة الذكية للمعلومة تدخُّل الوعي عوضاً عن ذلك. فيَتعرَّض الذكاء الواعي لتكييف الكيمياء الجسدية، ولكنه لا يخضع لها خضوعاً تاماً. ويمكن للوعي معالجة المعلومة، وتخيُّل سيناريوهات تمضي أبعدَ من الكيمياء المادية. فيطوِّر الوعي المقرون بالذكاء مفاهيمَ، تكفّ عن أن تكون رواسبَ فضولية تخلِّفها كيمياءُ الجسد؛ بل تمتلك كياناً خاصاً بها، ومستقلاً بكامله عن تكييفات المادة.

ويبيِّن «المبدأ النهائي» أنَّ القدرة على معالجة المعلومة بذكاء، حين تبرز، «فلن تزول أبداً» من الكون.

ويستوجب ذلك بعضَ التفكّر في مصير الكون. فماذا سيحدث في المستقبل؟ وكيف سيتطوّر الكون، وفقاً للنظريات الكوزمولوجيّة؟

ويتكهَّن النموذج الموحَّد للانفجار العظيم بقدرة الكون على التطوّر بطريقتين ترتبطان بالكمية الكلية للمادّة، وبتأثير الجاذبية في هذه المادة. ففي إحدى الفرضيَّتين، تتغلَّب الجاذبية – عند لحظة معينة – على القوّة التوسّعية؛ ليبدأ الكون بالانضغاط حتى يعود إلى تفردُه البدائي، أو بتعبير أدقَّ إلى حدث يُسمَّى: الانسحاقَ العظيم (Big Crunc)، وفيه يُلغى الكون. وفي فرضية أخرى، سيستمر الكون بالتوسُّع، حتى يذوب في ظلام دامس بارد؛ وسيشتدُّ تباعد النجوم بعضها عن بعض في هذا الظرف. وسيمسي كل نَجم معزولاً في الكون. وكلّ حياة في هذا الموقف ستزول، لتُفسح المجال أمام حدوث «الفناء الأنثروبي».

غير أنَّ البعض يخمِّنون أنَّ الإنسان سيكون قادراً على التأقلم مع هذا الظرف المتطرّف، وسيستمرُّ في الوجود بأنماط حياة غير بيولوجية تُنتجها التكنولوجياَ. فستَكون

أنماطَ حياة تتوقَّف عن الحاجة إلى أجساد بيولوجية، لكنّها ستحافظ على الوعي بالذات. وربّما سيكتشف الإنسان سرَّ البقاء.

ويستطيع «بارو» و «تيبلر» التأكيد – إزاء هذه الفرضية – أنَّ النُظم الذكية في الحياة، ما إنْ تظهر في الكون، «فلن تزول أبداً».

«المبدأ الأنثروبي التشاركي» وميكانيكا الكم

تتوقَّع صياغاتُ المبدأ الأنثروبي، المدروسةُ حتى الوقت الحاضر، إشراكاً قويّاً للوعي الإنساني في تحديد غايات الكون.

وأطاح مفهومٌ مختلف بالمفهوم الذي ينصّ على أنَّ الكون، لمّا تطوَّر بطريقة عشوائية تماماً، أتاح من فوره ولادة أنماط حياة متوائمة مع هيئته. وهكذا تطوَّر الكونَ، ليتيح ظهورَ أنماط حياة مزوَّدة بالوعي. فليس الكون يكيِّف وجودَ الكائنات الواعية، بل الوعيُ يسمح بوجود الكون.

ولا يتأتّى الوعي من قدرة كمالية، تطوَّرت بالمصادفة لدى بعض الكائنات البيولوجية؛ بل إنه الغاية النهائية التي تطوَّر من أجلها الكون بالنحو الذي هو عليه.

وهذه تأكيدات مذهلة. غير أنها نظريات تدعمها حُججٌ نافذة، اقترحها علماءُ يحظون بتقدير عالٍ. بيد أنه يمسي من اليسير على العلم المادّيّ التأكيدُ على أنّ تلك تخميناتٌ ميتافيزيقية لا قيمة لها. ويرى المادّيون أنه لا يوجد في الواقع أيُ دليل على الأمر، والحُججُ المقدَّمة لا يدعمها أيُ ناتج تجريبي.

ويتدخَّل على هذا الصعيد فرعٌ علميٌ آخرُ معترَف به، يَقترح برهاناً أكثر إدهاشاً: «الكون موجود لأننا هنا بهدف مراقبته».

وثمّة – هذه المرّة – تجاربُ محكَمةٌ، باتت منتشرة في مخابر عدّة. فقد أشارت الفيزياء الكمومية، إبّان العقود الأخيرة، إشارةً دقيقة إلى دور المراقب في التجريب العلمي. وينطوي دور المراقب بالطبع على إرادته في المراقبة، أي على وعيه. وتحدِّد طرائق المراقبة ناتج التجربة؛ أي يرتبط سلوك المادّة بالمراقب. وهذا يعني أنه لولا وجودنا هنا لمراقبة المادّة، أي الكون، لَمَا وُجدَ الكونُ نفسه، أو لكان مختلفاً اختلافاً كاملاً. فنحن، إذ نراقب الكون، نتيح له الوجود بالصورة التي هو عليها.

تجربة الشق المزدوج

أجد أنه من المفيد – سعياً إلى بلوغ فهم أفضلَ لأهمية دور المراقب في الفيزياءً الكمومية – ذكرُ التجربة المكرَّسة للتأكيد بأن المراقب يحدِّد الحقيقة.

وهذه تجربة قديمة نوعاً ما. هدفتْ بنسختها الأولى إلى حلّ مسألة معرفة تكوّن الضوء من موجات أم امتلاكه طبيعةً جسيمية. كان «نيوتن» يظنّ أنَّ الضوء مكوَّن من جسيمات. وظهرتْ في مطلع القرن التاسع عشر فكرةُ امتلاك الضوء طبيعة موجيَّةً تفرض نفسهَا. لذا صمَّم توماس يونغ، عام 1801، تجربةً تستند إلى مصدر ضوئي وحاجز مانع للضوء في شقَّين.

ألقى يونغ حُزماً ضوئية على حاجز. وكان هنالك في الخلف شاشةٌ حساسة للضوء.

حين يتجاوز الضوءُ الحاجزَ، يجري تفحُّص

الشاشة في الخلف. فإذا ظهرتْ عليها نقاطٌ، كان الضوء بالطبع مكوَّناً من جسيمات. وإذا ظهرتْ عوضاً عن ذلك أشكالُ تداخلٍ، كان جليّاً أنَّ الضوء ذو طبيعة موجية.

ويمكن تخيُّل شكل التداخل على أنه مجموع الموجتين. ألقِ حَجرَين بصورة متتالية في بركة ماء، لترى أنَّهما يُحدثان حلقات على الماء، ثم تتسع هذه الحلقات، وينضمّ بعضُها إلى بعض. ويحدُث الشيء نفسه في التجربة. فالضوء، إنْ كان موجةً، يمرّ عبر الشقّين. وتتشكَّل موجتان جديدتان، عند الخروج، خلف الحاجز. وتتمدَّد الموجتان، وتلتقيان إذ تنضمّ إحداهما إلى الأخرى. فتولِّدان بهذه الطريقة ما يُسمَّى: «شكل التداخل». ويَظهر هذا الشكلُ - عملياً- على شاشة موضوعة خلف الحاجز، على نحو نوع من رمز شريطي (باركود). فقد أكَّدت التَّجربة على طبيعة الموجات، إذ ظهرت أشكال التداخل.

ونعلم اليوم أنَّ الأمر ليس كذلك بدقّة، فالضوء موجةٌ وجُسيمٌ في آن معاً. وجاء التأكيد على هذه الطبيعة المزدوجة للضوء حين لم تسمح التكنولوجيا الحديثة، الأكثرُ تطوّراً وتعقيداً بكثير، إلا بإلقاء فوتون (ضوءٍ) واحد في وقت واحد على الحاجز.

ونَفَّذ التجربة ذات الشق المزدوج أولَ مرّة -في هذه النسخة الحديثة - كلوس جونسونٍ، من جامعة تيوبنغن، عام 1961. وكرَّر التجربة بعد ذلك بيير جيورجيو ميرلي، جيانفرانكو ميسيرولي، جيوليو بوزي عام 1974 في مدينة بولونيه. فأرسل كلٌّ من الثلاثة إلكتروناً واحداً في وقت واحد إلى صفيحة فوتوغرافية، خلف الحاجز. ونُشرت نتائجُ تجربة عام 1974 أيضاً بصيغة َفيلم، لكنها أُهملتَ بطريقة غير مفهومة. وحين أعاد «أكيرا تونومورا»، وهو فيزيائي ياباني من مركز هياتشي للبحث، التجربة عام 1989، ظَنَّ أنه أول من قام بها. وليس هذا بصحيح. ولكن، لم يمنع النشرُ السليمُ لنتائجه من تحقيق أعلى نجاَح. فقد أكَّد «تونومورا» على النتيجة المذهلة التي تنبَّأ بها الفيزيائيون الكموميون. وأُجريَ عام 2002 استفتاءٌ بين قرّاء مجلة Physics World، فأثبتَ وجوب عدّ التجربة ذات الشق المزدوج بإلكترون واحد «التجربةَ الأَجملَ التي لم يُنفَّذ مثلها قَط».

ويمكننا فهم الطبيعة غير العادية للنتائج إذا تتبّعنا التجربة خطوةً بخطوة في أثناء تطوّرها.

فتخيَّلوا وجود مرسل فوتونات، موضوع أمام حاجز ذي شقين. ووُضعت شاشة شبيهة َبفيلم فوتوغرافي في خلف الحاَجز، تكون قادرة على تسجيل مجملِ الضوء الذي يمكنه التسلّل عبر الشقّيَن.

وهذا المفهوم هو نفسه في التجربة الأصلية. فحين يُرسَل فوتون وحيد، قد يعبُر ذلك الشقَّ الأول أو الثاني، ليرسم بقعة ضوئية على الشاشة الفوتوغرافية الموجودة خلفه.

وقد أَرسل المجرِّبون - بادئ الأمر- فوتونات وحيدة، مع إبقاء شقّ واحد فحسب مفتوحاً. وتصرَّفت الفوتونات طبقاً للتوقّعات، إذ عبَرت الشق الوَحيد المتوفّر، ودلَّت على عبورها ببقعة ضوئية على الشاشة الفوتوغرافية.

ثم أرسل المجرِّبون فوتوناً واحداً، مع ترك الشقّين مفتوحَين. وعندئذ ... عبَر

الفوتون الشقّين، ومضى يرسم نقشَ تداخل على الشاشة. وبدا أنَّ اثنين من الفوتونات قد أُرسلا. بيد أنَّ فوتوناً واحداً قد أُطلق. فهل يستَطيع فوتون وحيد عبورَ شقّين في الوقت نفسه؟ وهل يمكن لفوتون واحد المرورُ عبر شقين، ثم التداخلُ مع نفسه؟

نعم، كان هذا ممكناً. والواقع أنَّ الفوتون المرسَل نحو شقّ واحد تصرَّف على نحو جسيم؛ في حين أنَّ الفوتون نفسه، المرسَل إلى الشقّين، تصرَّف على نحو موجة، لأنه تمدَّد وعبَر الاثنين.

ولكنَّ الغرائب لم تتوقّف عند هذا الحد. فالأكيد هو أن الفوتون كان وحيداً، وكان هنالك شقَّان اثنان. وأنتج العبورُ موجات تداخل، ويعني ذلك أنَّ الفوتون قد عبَر الشقّين. فقرَّر العلماء التحقُّق بطريقة تجريبية أيُّ واحد من الشقّين، اللذين سنُطلق عليهما (أ) و (ب)، قد جرى عبوره فعلاً. ثم وضعوا مجسّاً خلف الشق (أ)، وبدؤوا بإطلاق الفوتوناتَ.

وحصلوا بالنتيجة على سلسلة من النقاط المضيئة على الشاشة، خلف الشق (أ). وبعبارة أخرى، عبَرت الفوتونات – بلا أدنى شك– الشقَّ المجهَّز بمجس.

ثم نزعوا المجس، وأطلقوا فوتونات أخرى، فعادت أشكال التداخل إلى الشاشة. فالفوتونات قد عبرت إذاً الشقّين، مع غياب المجس.

ووضعوا المجسَّ خلف الشق (ب)، فلم تعبر جميع الفوتونَات هذا الشق إلا حين رُسمت نقاط مضيئة على الشاشة، الموجودة خلفهَ.

وانجلتْ، في هذه المرحلة، حقيقةٌ لَا تُصدَّق، فقد تمكّن المجرِّبون من تحديد الشق الذي ينبغي للفوتون عبوره. وإذا قارنّا المجس بشخص ذي نظر خارق يتمركز خلف الَشق، نعرف كيفية خضوع الفوتون لعملية الرصد. ويبرز جليّاً أنَّ الأداة الكاشفة قد نابت مناب عمل الشخص، فامتلك المجرِّب القدرة على رصد الفوتون بوضع مجسّ في طريقه، ليتحكَّم على هذا النحو بتصرُّفه.

وتمثِّل «قدرة» المراقب الذي يحدِّد سلوك المادّة أحدَ أكبر الألغاز، وأقلّها فهماً، وأكثرَها إثارة للاعتراضَ في الفيزياء الكمومية. ولكنَّ هذه القدرة مثبَتة مع ذلك في مئات التجارب المختلفة، ولم يعد أحد قادراً على التشكيك فيها.

ومن البدَهي أنَّ كلّ جسم مادي مكوَّنٌ من جسيمات، ويتضمّن – افتراضاً – احتمالَ القدرة عَلى التأثير في أحدها إمكانَ القدرة على التَأثير في عشرةٍ منها أو في ألف أو مئة مليار.

الجديد في الفيزياء الكمومية

شَهدَ العلم المادّي ذروته في بداية القرن العشرين. فاستندت التجارب التي دُرست عن طريقها جميعُ معَارف العالم إلى ميكاَنيكا نيوتن، ومعادلات «ماكسويل» عن الحقل الكهرومغناطيسي. وكنّا نعيش في قناعة حماسية مفادها أننا نستطيع الإجابة عن جميع الأسئلة. فكان كثير من العلماء مقتنعين بأن كلّ سر من أسرار الكون سيُكشَف بعد زمن قصير.

ولم تستمر النشوة زمناً طويلاً. فقد قُوِّض

كلّ طموح للعلم الكلاسيكي مع قدوم الفيزياء الكمومية.

ويصف هذا العلم أداء النظم الفيزيائية، انطلاقاً من العالَم الذرّي ودون الذرّي. ويؤدّي هذا العالَم عمله بنحو جيد، إذ يُسبَر جيداً، ويَدخل منازلنا عن طريق التقنيات الحديثة؛ وسنحصل قريباً على حواسيبَ كمومية، مزوَّدة بقدرات معلوماتية تفُوق الخيال. لكنّ الأمر لا يقتصر على ذلك. فانظرْ حولك، لترى أنك تمتلك أجهزةً إلكترونيةً ومذياعاً وقارئَ أقراص مدمجة ومشغِّلَ الملفّات الصوتية (إم بي ثري)؛ أي مجموعةً من إلكترونيات التسلية وأجهزة الليزر وأنصاف النواقل وتقنيَات النانو الحديثةَ والإلكترونيات الَدقيقة؛ وليستَ هذه إلا بعضاً من المنتجات َالتي يجري الحصول عليها بناءً على مبادئَ فيزيائية كمومية. فحياتنا من دون عون الفيزياء الكمومية التطبيقية ستكون مختلفة اختلافاً جمّاً.

وتبقى الفيزياء الكمومية مع ذلك علماً يصعُب إدراكه، لأنها قادرة على الاستقرار في عالم عصيٍّ تماماً على الفهم.

فتبتعد أسُسه الفيزيائية أقصى ابتعاد عن التقدير العام وعن عُرف التفكير العلمي. وتَفتح الفيزياء الكمومية - فضلاً عن ذلك - صراعات طاحنةً مع الفيزياء التقليدية. غير أنَّ الفيزياء الَكمومية تؤدّي في واقع الأمر عملها. والحاصل أنَّ العلم التقليدي عقَد هدنة معها - وإنْ كان عن غير طواعية-، وتغاضى عنها، منتظراً اكتشاف حجج وجيهة لكي يتمكّن من دحضها. فقد حدَث الشيء نفسه حين لاحظ أحدهم أنَّ الأرض كروية الشكل. فاضطُرت الغالبيةُ، بكثير من التردّد، إلى تقبُّل هذه الحقيقة؛ مع أنَّ طرفاً ما استمرّ في الاعتقاد أنَّ الأرض مسطَّحة.

وأدخل ظهور الفيزياء الكمومية تحولاً جذرياً في اتجاه القوانين الفيزيائية الكلاسيكية. فأضحت هذه القوانين احتماليةً، وقد كانت يقينية.

فالمراقب في التجربة الكلاسيكية شكلٌ غير محدَّد، وَظيفته الوحيدة قياسُ الظاهرة. وإذا تقيَّد ببعض القواعد البروتوكولية، فلن يتداخل وجوده مع الظاهرة المرصودة. فعالِم الأحياء الذي يحلِّل دمك، لا يؤثِّر البتّة في مستويات السكر فيه.

فسلوك المادّة، في الفيزياء الكمومية، ما عادت تحدِّده القوانين الفيزيائية. والجانب الحاسم في قياس الحدث هو المراقب، الذي ينفِّذ القياس. ويكتسب المراقبُ، أيَ الوعيُ البشري، وظيفةً فاعلة إزاء الظَاهرة، لدرجة أنه قد يُعدُ عنصراً حاسماً في وجود الظاهرة نفسها.

وثمّة تقسيم فجّ يرى أنَّ الفيزياء الكلاسيكية تعمل في مجال المادّة الماكروية الكبيرة، أي المادة المجتمعة في تشكيلات ذات أحجام شبيهة إلى حدٍّ ما بالجزيئات أوً أكبر منها حجماً؛ وأنَّ الفيزياء الكمومية تعمل في مجال الجسيمات الأولية التي تتراوح أحجامها بين حجم الذرّة وما هو دون ذلك.

والواقع أنَّ المسألةَ على الدوام مسألةُ مادة، لكنَّ السلوك متباينٌ في الحالتين. والمادة الماكروية مكوَّنة من مادة ميكروية دقيقة (ذرّاتٌ وجسيماتٌ أولية)، غير أنّ

نشاطها يَخضع لقواعد الفيزياء الكلاسيكية. ولا تقوم المادّة الميكروية بذلك نيابةً عنها؛ فلا تستجيب الجسيمات الأولية لقواعد الفيزياء الكلاسيكية، بل لإرادة المراقب.

وتوجد، في الوقت الراهن، وجهتا نظر متعارضتان في العلم بخصوص دور الوعي الإنساني. فوفقاً للتأويل المادّي، تكون علاقة الوعي سلبيةً مع الظواهر الطبيعية. والقوانينُ التي تحكُم الظواهر الطبيعية مطروحة بنحو سابق، وقد وجدت دوماً، وسُجِّلت في المادة نفسها.

أمّا في الفيزياء الكمومية، فالوعي -وفقاً للتأويل التقليدي لمدرسة كوبنهاغن- مكوِّنٌ نشط في القوانين الفيزيائية. ولا ينبغي فهم هذه القوانين على أنها محدَّدة وثابتة، لأنها ناتجة عن تفاعل بين الوعي والعالم.

وصاغ عالم الفيزياء المعروف «جون ويلر»، مستنداً بدقّة إلى دور الملاحظ في عمل المادّة، نسخةً أخرى من المبدأ الأنثروبي، سُمّيت: «المبدأ الأنثروبي التشاركي».

وينبغي التعريف بالشخص، قبل عرض نظريته:

«جون أرتشيبالد ويلر»، أمريكي، ولد في مدينة جاكسونفيل عام 1911، وحصل على شهادة الدكتوراه عام 1933 من جامعة جونز هوبكينز، وتناولت أطروحته موضوع التشتّت والامتصاص في غاز الهيليوم. وكان، مع العالمين «إنريكو فيرمي» و«نيلز بور»، من أوائل مَن تحدّثوا عن حدوث الانشطار النوويّ. وشارك بمدينة لوس آلاموس في تطوير القنبلة النووية عن طريق مشروع مانهاتن، ثم شارك في مشروع (ماترهورن ب) الخاص بالقنبلة الهيدروجينية. وقدَّم إسهامات ذات أهمية بالغة لدراسة الثقوب السوداء؛ إذ ابتكر من بين ما ابتكره مصطلح: «الثقب الأسود» عام 1967. وكان من روّاد دراسات الجاذبية الكمومية.

وقام في الخمسينيات من القرن العشرين بالتشارك مع الفيزيائي «توليو ريجي» في إنجاز أبحاث مهمّة عن النسبية العامّة. ودرَّس الفيزياء بين عامي 1938 و1976 في جامعة برنستون، ثمّ في جامعة تكساس بمدينة أوستن. ومَنحه قسم الطاقة الأمريكي، عام 1968، جائزة أنريكو فيرمي، وحصل عام 1997 على جائزة وولف في الفيزياء.

وتتلمَذ على يده أشهر ممثلي الفيزياء المعاصرة، مثل: ريتشارد فاينمان، هيو إيفرت الثالث، يعقوب بيكينشتاين، كيب ثورن، جيمس هارتل، تشارلز ميزنر وآخرون.

وكرَّس «جون ويلر» نفسه في آخر سنوات عمره المديد للمظاهر الرئيسة في الفيزياء، محاولاً التعريف بعدم يقينه المنهجي والمعرفي والفلسفي. وتوفي عام 2008، ليُدفن في مقبرة فيرفيو بمدينة بينسون. وكان قد أُهدي عام 1999 نُجيماً (النجيم: 31555 ويلر).

ولم أعرِض هذا النهج الطويل (والمجتزَء) لكي أثير مَلل القارئ، وإنما لأُشير إلى العمق العلمي والإنساني لهذه الشخصية. فحين خاض «ويلر» في أطروحة الكون الأنثروبي، وأكملها باعتباراته التشاركية، صار لزاماً أخذه بالحسبان. وهاكمُ اقتباساً من كتاباته:

«لا بدَّ أنَّ الكون ذو طبيعة تسمح بظهور

المراقبين في كنفه، في مرحلة معينة من وجوده. فالمراقبون ضروريون لوجوده، لأنهم ضروريون لمعرفته. والحاصل أنَّ المراقبين يشاركون في وجوده مشاركةً فعالةً».

ويصرِّح «ويلر» في قول مشهور آخرَ بالآتي: «مفهومُ ميكانيكا الكم: «شيءٌ ما خارجٌ عن مكاننا»، حيث يكون المراقب عند مسافة أمان مفصولاً عن الشيء، لم يعد مفهوماً صالحاً (...). فالقياس غيَّرَ حالة الإلكترون، والكون بعد القياس لا يبقى بذاته. وينبغي لنا، سعياً إلى وصف الذي حدَث، حذفُ كلمة «المراقب» القديمة، والاستعاضة عنها بالمصطلَح الجديد «مشارِك». فالكون - نوعاً ما- كونٌ تشاركيٌ».

هذا مكوَّن من وحدة البايت (It from bit)

صاغ ويلر، إبّان شيخوخته المليئة بالعطاء، «المبدأ الأنثروبي التشاركي»، وهو أحد متغيّرات «المبدأ الأنثروبي القوي». وانتهى إلى أنَّ المعلومةَ كمٌّ أساسي، مع أنها غير مادية. فتُضاهي المادةُ في أهميتها الطاقةَ والمادةَ، بل تتجاوزها أهميةً. واختُصِرت الأولوية الوجودية للمعلومة في عبارته الشهَيرة: «it from bit».

وتعني هذه العبارة وجوب تحديد كل حقيقة فيزيائية بهيكلية معلوماتية. ويمكن القول - على سبيل التبسيط - إنه ما من أداة ملموسة (هاردوير) خاليةٌ من البرمجة (سوفتوير)، التي تضمّ مشروع البناء وطريقة الاستعمال.

ولكن، هل يمكننا القول إنَّ المادة والمعلومة، والأداة والبرنامج شيءٌ واحد؟ يؤكِّد «أنطون تسايلينغر»، وهو فيزيائي معروف أيضاً، أنَّ المفاهيم متمايزة؛ بيد أننا نحتاج إلى الشيئين. فيتعيّن علينا النظر في وقت واحد إلى المادة والمعلومة، المتجانستَين والمتشاركتَين على السواء. وإذا تحدَّثنا عن الأداة الملموسة، كانت المعلومة جزءاً من البرمجة. وأمّا المادّة فتمتلكَ جسماً وشكلاً، وأمّا المعلومة فهي حقيقةٌ ذهنية. وينبغي للمادّة والذهن التعاون في تحقيق حُسن سير الكون. ويجب على الفيزياء التحررُ من البُنى المادّية الفوقية، التي تُنكر وجود مكوِّن ذهني في الكون وتنفي أهميته. ولا يمكن في الوقت نفسه وجودُ رؤى روحانية صرفة، تتجاوز الدور المحدِّد للمادّة. فقد كتب «ويلر»، عام 1992، في العدد 267 من مجلة (سَينتفك أمريكان):

«نحياَ على سطح جزيرة محاطة ببحر من الجهل. وكلّما اتسعت جزيرتنا المعرفية، اتسع أيضاً محيطُ جهلنا».

وحكمة ويلر: «هذا مكوَّن من وحدة البايت» تنطوي على أنَّ الفيزياء لا تخصّ الحقيقة فعلاً، بل تخصّ أفضل وصف لنا لما نلاحظه. وصرَّح «نيلز بور»، أحد مؤسِّسَي الفيزياء الكمومية قائلاً:

«من الخطأ الظنُّ أنَّ مهمّة الفيزياء اكتشافُ ما تبدو عليه الطبيعة. فالفيزياء هي ما يمكننا فهمه عن الطبيعة».

وثمّة نتيجة واضحة لمقولة: «it from bit»، وهي أهمية المراقب. فالحقيقة تستوجب وجودها وحدها. والمراقب لا يكون مكمِّلاً سلبياً، بل إنه يجعل الحقيقة ممكنة.

والجُسيم الكمومي يكون - قبل أن يُلاحَظ- موجوداً بصورة متزامنة في

عدد من الوضعيات المختلفة، ويُقال إنَّه في «حالة تشابك». وكلّ ما نعلمه هو وجود احتمال لإيجاد الجُسيم في أحد هذه المواقع المتعدّدة. غير أننا نجد الجسيم، إذ نقوم بالقياس، في وضعية محدَّدة. فالحقيقة إذاً يعرِّفها المراقب.

وذهب ويلر أبعد من ذلك، مؤكِّداً عدم وجود حقيقة تتعدَّى ما يمكن ملاحظته. وقد تُعدّ هذه الفكرة متطرِّفة، لكنها غير جديدة تماماً في الفلسفة؛ فقد ابتكر الفيلسوف جورج بيركلي منذ عام 1710 شعارَ: «وجودُ الموجود هو أن يدرَك».

مشروع إبداعي

يخصّ هذا العرض المتسلسل في الزمن خلقَ الكون، وظهورَ النظرية الأنثروبية، والتأكيدَ على دور المراقب في الفيزياء الكمومية. ويمكننا في الختام تسجيل ملحوظتين. ترتبط الأولى بالمبدأ الأنثروبي مع جميع متغيّراته. وينطوي هذا المبدأ على وجوب مراعاة كلّ نظرية فيزيائية مستقبلية دورَ الراصد في صياغاتها. والملحوظة الثانية هي وجوب تخطّي التقسيم القديم بين الفكر والمادّة. فلا يمكن تركُّبُ الكون من المادّة فحسب، ولا يمكنه أن يكون كوناً ذهنياً محضاً. إذ يتعيَّن على المادة ومضمونها الذهني أو المعلوماتي التعايشُ في فهم الكائن البشري، وفي النظريات العلمية.

ومهما يكن من أمر، يتكهَّن المبدأ الأنثروبي بوجود قدرة تنظيمية في التوجّه المادّي، متأصِّلة ذهنياً داخل المادة نفسها، وقادرة على التوجُّه نحو بناء أنماط متجانسة، بل هي ذكية. وللبيانِ أكثر نقول إنَّ المبدأ الأنثروبي لاقى معارضة شديدة في البدء. ولكن، أُعيد تأهيله وحَظي بالتقدير في الوقت الحاضر، بفعل نتائج الفيزياء الكمومية الحديثة؛ إذ يَفترض وجود مشروع إبداعي في الكون.

وسواء أكان ذلك منحدراً من كيفيات العمل الكوزمولوجية الذكية غير المفهومة في الوقت الراهن، أم عرَض سلفاً لوجود مصمِّم؛ فليس من شأن هذا الكتاب توضيحُ الأمر؛ بل يبقى متروكاً لتقدير كل قارئ.

جدول الانسياق الزمني:

١٤ مليار عام	الانفجار العظيم الثوابت الكونية خلق النجوم والكواكب نشأة الكربون وانتشاره
٤,٥ مليار عام	نشأة كوكب الأرض
٦٥ مليون عام	الانقراض الجماعي ينتقي الثدييات
٢-٤ مليار عام	تعويض الانتقاء بالإنسان العاقل
١٩٦٠ م	تجربة الشق المزدوج
١٩٧٣ م	براندون كارتر يُصدِر المبدأ الأنثروبي
٢٠٠٠ م	دور المراقب

«روح العالم» (Anima mundi):
تاريخ الوقائع

«نورُ الشمس واحدٌ، وإنْ اعترضته جدرانٌ وجبال وعقبات أخرى لا تُحصى.

والمادةُ الكونية واحدةٌ، وإنْ كانت منقسمة إلى أجسام لا تنتهي لها صفات خاصة.

ليس هناك إلا روحٌ واحدةٌ، وإنْ كانت منقسمةً ومحدودةً في طبائعَ لا تنتهي، وحقائقَ فردية غير منتهية.

فالرُّوحُ الذكية واحدةٌ، وإنْ أعطت الإحساس بأنها منقسمة».

(الامبراطور الروماني: ماركوس أوريليوس ١٢١-١٨٠ م)

أنهينا لتوِّنا بناء إطار لوحتنا الفسيفسائية، وها نحن نبحث عن إحدى أكثر النقاط تعريفاً بنوعية التصميم والألوان. وهي صورة تمثِّل قصراً، يَبرز فيه مباشرةً حصن شاهق، له مظهرٌ مَشّقٌ ممشوق. فيَظهر فوق خلفية من سماء زرقاء، محاطة – بين هنا وهناك– ببقعٍ من غيوم لونُها أفتحُ. ويبدو في الواقع مبنياً فوق غيوم. فيكون للحصن لونٌ رمادي داكن، وكأنَّ جدرانه التي كانت بيضاءَ في السابق قد سوَّدتها نوبات الزمن. ونُعيد القول إنَّ الحواف الرمادية تكون محدَّدة بوضوح بالنسبة إلى السماء الزرقاء. ويُبهرنا الحصن، فهو عتيق صلب، وإن بدا عائماً في الجو. لنتخيّل كم من الأحداث جرَت في كنفه، على مرّ العصور. إذ يرجَّح احتواؤه على أسرار لم يُفصَح عنها قطّ، وقد سَمعت جدرانه دموعَ الألم، وضحكات الفرح، وصَعَد أدراجه المؤدّية إلى قمّتهَ ونزلها فرسانٌ ومُنشدون ورُواةٌ للمغامرات وقتَلةٌ مأجورون. ولا جَرم أنَّ حُجراته مفعمةٌ بالإنسانية الحيوية. فلو استطاع الحصن الكلام، لأشركنا في معرفةَ أسرار غير متوقَّعة. ومن سوء الحظ أنَّ الإمكانية الوحيدة للتواصل بيننا وبين الحصن تكمن في التفكُر الذي قد يُوحَى لنا في أثناء قيامنا بتركيبه. وإذا سلَّمنا أنفسنا بثقة للخيال، ستنبثق مئات الحكايات من لا شيء، لتُشبع فضولنا.

وكمثل حصن صامت، التزامنية نوعٌ من التواصل المغلق، يستعمله الجزء الذهني من الكون، ليَظهر في وعي الكائنات الذكية. فتَمنح القوانين الفيزيائية المصداقيةَ لوجود المادّة، وتتيح فهم سلوكها. والتزامنية تَكشف عن وجود المكوِّن الذهني الذكي المتأصِّل داخل المادة. وليس هنالك قانون للتزامنية، على خلاف ما يحدث في مجال المادّة؛ ويتيح لنا ذلك معالجةَ الموضوع عن طريق صياغات رياضية. ويجري، في مجال النفس، التبصرُّ عن طريق الحدس والتجربة الداخلية.

ويَستلهم هذا الكتاب من الجائحة الفيروسية الحديثة، ليتحرَّى إمكان وجود اتصال تزامني بين هذا الحدث المأساوي والغاية النهائية للإنسان. وتبدو الفرصة مغرية بحيث لا يمكن تفويتها. ونوجز في هذا الفصل عدداً لا بأس فيه من الأفكار التي سبقت صياغة كارل يونغ للنظرية التزامنية.

جيرولامو فراكاستورو (عن التجاذب)

إنَّ إلقاء نظرة على الماضي يسمح لنا بإقامة صلة وطيدة على نحو غير متوقّع بين الموقف الراهن وبعض الحُجج المنطقية العلمية التي ساقها الأديب والفيلسوف جيرولامو فراكاستورو، المولود بمدينة فيرونا الإيطالية في القرن الخامس عشر. ووَصف عدداً من الأنماط المُعدية التي سمّاها:

«seminaria morbi» (ناشرة الأمراض).
ويمكنُ لكلّ جاهل بالموضوع، على ضوء المعارف الموجودة، تخيُلُ أنَّ «seminaria» وصفٌ بدائي للبكتيريات والفيروسات الحاضرة. والحقُ أنَّ هذا هو الواقع، لأنَّ فراكاستورو يرى «seminaria» مسؤولةً عن مختلف أنواع العدوى. ووصف في كتابه: الزُهري أو الداء الإفرنجي، مرضاً ينتقل جنسياً، يسمَّى باللاتينية: syphilis (سفلس). وينحدر اسمه من أسطورة الراعي سَيَفيلو اليونانية، الذي عاقبه الإله أپولو بهذا المرض. ولا يزال يُعرَف المرض بهذا الاسم إلى يومنا هذا؛ لكننا نعلم فضلاً عن ذلك أنَّ الناشر المسؤول هو بكتيريا «اللولبية الشاحبة».

ويذهب فراكاستورو في مؤلَّفه الصادر عام 1546: (De contagione et contagiosis morbi et curatione libri tres) إلى أنَّ مسبّبات الأمراض المعدية كائناتٌ حيّة مجهرية، وأنَّ السَّريان بين البشر يحدُث بانتقال أبواغ أو بذور من المريض إلى الشخص السليم. وتخيَّلَ فراكاستورو، في عصر كانت فيه الجراثيم غير معروفة، وجود جُسيمات غير مرئية قادرة على إفشاء العدوى بسرعة. ويمكن في هذا الصدد عدهُ مؤسّس علم الأوبئة.

ولكن من أين أتت العناصر «الناشرة»؟ يصبح الجواب ههنا أقلَ علميّة، إذ يفسح العالم المجال للفيلسوف. ويجدر بهذا الخصوصَ استحضار مجلد أعماله المنشور عام 1555 في فينيسيا، والذَي يتضمّن نصاً من الفلسفة الطبيعية عن التجاذب والتنافر. وكان في نيّة الكاتب نشر هذا العمل مع كتاب عن العدوى، لظنه أنَّ النصين متكاملَين.

ويزعم فراكاستورو في مجلد: عن التجاذب أنَّ جميع أشياء العالم مرتبطة ببعضها عن طريق قوة طبيعية كونية. والإنسان أيضاً، لمّا كان مكوِّناً في الطبيعة، لم يُفلت من هذه القوة. وإنه «تجاذبٌ» يشعر به كلّ جزء إزاء الكل. ويُبادل الكلُ كلَّ جزء «التجاذبَ» نفسه.

وكاَن هذا الحدسُ جَسوراً قياساً بالعصر، فقام فراكاستورو بتنقيحه لاحقاً. ويَشرح أنَّ التجاذب لا ينبغي فهمه على أنه قوةُ اجتذاب روحي. بل يكون معنى التجاذب فيزيائياً. وتُقام العلاقات بين الأشياء بوساطة تدفّق الذرّات، بحيث لا يمكن لشيء أن يحدُث من دون اتصال فيزيائي. ويوكِّد الكاتب، بعبارة أخرى، وجودَ انجذاب بين «الأشياء المتماثلة»، وتنافرٍ بين «الأشياءِ المختلفة».



وتُنبئنا فيزياء الجُسيمات - اليوم - بشيء مماثل من ناحية المفهوم، لكنه مخالف في التطبيق. إذ إنَّ الجُسيمات المشحونة بالشحنة نفسها لا تتجاذب، بل تتنافر؛ والجُسيمات ذات الشحنات المختلفة تتجاذب. وتُعلّمنا الفيزياء الكمومية، على صعيد آخر، أنَّ بعض الجُسيمات يتعرَّف على بعض، وذلك فضلاً عن التجاذب والتنافر.

والجُسيمان المتناسبان لا يتوه أحدهما عن الآخر، وإنْ وضعا في أقصى طرفَي الكون. فلم يَعد التجاذبَ الكمومي بحاجة إلى اتصال فيزيائيَ لكي يَظهر. وإنَّ صلةَ المعرفة الكمومية تجاذبٌ لا يستوجب أيَّ اتصال، فهو غيرُ مادي وذهنيٌّ و«روحيٌّ». وأيَّد فيلسوف الطبيعة جيوردانو برونو وحدةَ العوالم والأكوان الممتدّة إلا ما لا نهاية، مُورداً في حواراته شخصيةَ فراكاستورو الذي يمثِّل بوضوح فكر العالم المنحدر من فيرونا.

التوافقات الكبيرة

التوافق بين دراسات فراكاستورو والواقع الراهن يثير للدهشة، ويصل الأمر حدَّ الإشارة إلى أنه أكثرُ من مجرّد توافق. فحين يصير توافقٌ ما صريحاً بيّناً، يمكننا الحديث عن التزامنية.

والحقُّ أنَّنا نجد أنفسنا متحدِّثين، بعد مرور خمسة قرون، عن أحد الأمراض التي تتفشّى بين الكائنات البشرية، وحين يسمح لنا العلم بالضحك على فرضية تفشّي المرض بالتجاذب بين الأشياء، تقدِّم لنا الفيزياء الكمومية نظريةً متماسكةً عن كلّ شيء، إذ يكون كلّ جُسيم في الكون - وفقاً لها - متصلاً (متداخلاً) مع جميع الجُسيمات الأخرى بطريقة غير فيزيائية.

فاتصالُ الكون بأكمله أمرٌ واقع لا محالة. ويمكن التحقُّق من هذا الاتصال مخبرياً، لكنه لا يقتصر بالطبع على التجارب التي يكون فيها جُسيمان أو جُسيمات أخرى متواصلة مع بعضها.

بل هنالك اتصال كبير، يمكن لنا تسميته: «أمُّ جميع الاتصالات»، لأنه تطوَّر مع ولادة الكون، إبّان الانفجار العظيم. فنشأتْ حينذاك جميع جُسيمات الكون معاً، وارتبطتْ عندئذ بفعل الانفجار الأولي الواسع.

وثمّة توافقٌ آخرُ يكمن في ذكاء الظاهرة. فنستطيع القول - اليوم- إنَّ «التجاذب» الذي يجمع بين جميع الأشياء ليس قدرةً خاصة في المادّة، بل قوةً ذهنية قادرة على اتخاذ المبادرات الذكية، واسمها: التزامنية. فالتزامنية تولِّد مبادرات من شأنها قيادةُ الإنسان دائماً نحو مستويات تطوّرية أسمى.

طرفة مثيرة

أرادت مدينة فيرونا تكريمَ مواطنها البارز وتبجيلَه. فرُفع في مركز المدينة، حيث يرتمي شارع فوغ في ساحة دي سينيوري، تمثالٌ شاهق للغاية، ممثِّلاً العالم وهو يمسك كرة أرضية بيده. وكان ينبغيَ للقضاة والمَحامين الذاهبين إلى قصر العدل القديم الحضورُ إلى المكان. ويُفيد العُرف الشعبي أنَّ خارطة العالم التي يحملها فراكاستورو ستَسقط فوق رأس أول شخص نزيه سيمرّ تحت التمثال.

غير أنَّ الكرة الحجرية ما تزال، بعد

مرور بضعة قرون، صلبةً في يد الفيلسوف.

ولنفترض أنَّ الكرة الحجرية سقطت يوماً بالفعل على رأس أحدهم. فهل لنا عدُّ هذا الحدث توافقاً بسيطاً؟ أم هل يمكننا إعطاءه معنىً معيناً، إذ نعدُّه ظهوراً للنبوءة؟ وهل ينبغي النظر إلى التوافق بين مرور شخص وسقوط الكرة على أنه حالة بسيطة؟ أم يجب علينا - وفقاً لنظرية التجاذب - عدُّ الحدَثين (المرور والسقوط) مرتبطين بقوّة مبهمة؟

تُسمّى القوة الجامعة بين الحدَثين المتوافقَين (المرور والسقوط)، تبعاً لعلم النفس الحديث: التزامنية. والجلي هو أنَّ أشياءَ الكون جميعاً إذا كانت مرتبطة باتحاد واحد، فينبغي عندئذ أن يكون كلّ شيء ذا معنىً. ويجب على أكثر الأشياء اختلافاً وتباعداً الاقتران فيما بينها، وفق عقدة تسعى إلى بلوغ صورة معينة. وتتجاوز هذه الصورة - للأسف- الفهمَ البشري تجاوزاً تاماً.

وتَفترض التزامنية وجود تطابق بين ثلاثة ظروف غاية في الاختلاف، لكنها تَخضع للالتماس نفسه، وهي: الاعتقادُ الشعبي، والكرةُ الأرضية المعلّقة في القمّة، ومرورُ شخص نزيه. وتولِّد هذه الظروف - عند لحظة معينة في الزمان والمكان - تزامنيةً تَسقط تبعاً لها، ووفقاً للعُرف، الكرةُ تَضرِب «الرَّجلَ النبيل» الذي يمرّ تحتها.

وإنْ صحَّ ذلك، يكون ثمّة توجهُ، ومبدأ حيوي وحيد يتخلَّل الكون بأسره. ويُنشئ المبدأ الحيوي، في هذه اللحظة الخاصة مَن الزمان والمكان، كوناً مصغَّراً قوامه تلك الأطراف الثلاثة الخاصة، التي حُرِّضت لكي تَقع حادثة متزامنة. وتجدر الإشارة إلى جريان ذلك في سياق مشروع شامل، في الزمان الشامل والمكان الشامل. وليس سقوط الكرة في حلٍّ من كل ما يحدث في الكون، بل يكوِّن عقدة كَونية واحدة ويكمِّلها.

ويتداخل، في هذا المبدأ الحيوي، الجانبُ المحسوس (الكرة الحجرية) والجانب الذي يفوق المحسوس (الاعتقاد الشعبي) مع الجانب المحتمَل (مرور الرجل النبيل). وتَراكُب المحسوس مع ما يفوق المحسوس ومع المحتمَل يعرض واقعَ أنَّ: «الكلَّ وحدةٌ واحدةٌ».

وَإذا حدث فعلاً وسقطت الأُكرة الحجرية على أحد المارّين، فقد لا نتمكّن من تقصّي السبب الذي وقعت له هذه الأُكرة، لحظةَ مرور هذا الشخص.

غير أنه من الممكن ألا يعود إخفاق التحقيق إلى عدم فهم حتمي للظاهرة. والمرجَّح أكثر هو عدم فهمنا بعض الظواهر، لأنَّ طرائقنا في التحقيق غير ملائمة أو أنها تنطلق من فرضيات غير صحيحة.

تناسبات مثيرة

لنتناول الآن السقوط وقت حدوثه. لماذا انتظرت الأُكرة الحجرية - مدّةَ قرون- اللحظةَ المناسبةَ، إذ مرّ هذا الرجل في أثنائها؟ ولمَ هو لا شخصٌ آخرُ؟ يمكننا طرح السؤال نَفسه بخصوص الأنماط المتناغمة الحاضرة دوماً في المصير الحتمي لكثير من الأشخاص.

ويمكن عدُّ البعض «محظوظين»، لأنَّ أحداثاً إيجابية تحدُث غالباً في حياتهم. ونخمِّن أنَّ أسباباً معاكسةً تَجعل حظَّ أشخاصٍ آخرين

سيئاً، أو تَجعل قدَراً غير مُوات يضطهدهم. وثمّة روابط صعبةُ الإدراك بينَ حياة الناس والميزات الطبيعية، مثل: الجَلَد أو قابلية المرض أو التفاؤل أو التشاؤم.

وقد يحدث في حالات أخرى أنْ تَنشأ صلة مبهمة بين أحد الأشخاص وشيء ما. ويمكن لهذه الصلة أن تستمر بضعَ ساعات أو مدّةً زمنية معينة أو العمرَ كلّه.

ويروي كارل يونغ تجربته الشخصية ذات الصلة بالسمك في كتابه: التزامنية: مبدأ اتصال غير سببي، يقول: «اليوم هو الأول من نيسان 1949. وسنتناول السمك على طعام الغداء. الجميع يتذكّر استعمال المزحة المسمّاة: (سمك أبريل) أي كذبة نيسان. دوّنت، عند الصباح، عبارة لاتينية عن السمك:

Est homo totus medius piscis» .«ab imo

وبعد الظهيرة، أرتني مريضة لم أقابلها منذ شهور صورَ أسماك رسمَتها حديثاً. وفي مساء اليوم نفسه، عرَض عليّ بعض الأشخاص تطريزاً يمثّل وحوشاً بحرية على شكل أسماك. يوم الثاني من نيسان، في الصباح الباكر، روى لي أحد مرضاي الذي لم أره منذ بضع سنين حلماً كان فيه على ضفّة بحيرة، ويرى سمكة ضخمة تسبح بعزيمة. ثم تحطّ بالقرب من قدمَي الراوي. وفي تلك الحقبة، كنتُ منشغلاً بأبحاث تتناول موضوع الرمز التاريخي للسمك. وعليّ الاعتراف أنَّ هذا التكثيف في صور الأسماك قد ترك أثراً كبيراً في نفسي، واتّخذ سمةً «فتّانة» في نظري».

ويُورِد يونغ في موضع لاحق من النص نفسه حالةً اقتَبسها من الكاتب ويلهلم فون شولتس. ويودّ الكاتب بيان أنَّ أشياء ضائعة أحياناً أو مسروقة تعود - على نحو غريب - إلى يدَيْ صاحبها.

«أتذكّر فيما أتذكُره حالةَ أمٍّ التقطتْ صورة لابنها ذي الأربع سنوات، وذلك في غابة معتمة. ووضعت السيدة الفيلمَ الفوتوغرافي في مختبر بمدينة ستراسبورغ لتظهير صوره؛ وذلك بُعيد اندلاع الحرب عام 1914. ولم تَعُد السيدة قادرة على العودة لاستلام الصور. ثمَ اشترت عام 1916 فيلماً آخرَ من مدينة فرانكفورت، من أجل التقاط صورة لبنتها حديثة الولادة. وأظهر الفيلم في أثناء تظهير صوره عرضاً مزدوجاً. فالصورة الموجودة صورةٌ التُقطت للابن عام 1914! ولم تكن صور الفَيلم القديم قد ظُهِّرت، وانتهى بين الأفلام الجديدة، بطريقة لا يعرفها أحد. فوضعِ الفيلم إذاً للبيع من جديد».

ويتذكّر القرّاء المتقدّمون في العمر أنَّ الصور، قبل تطوّر التقنية الرقمية، كانت تُلتقَط بوساطة جهاز فيه فيلمٌ ذو شرائط سيليويد. وكانت تقنيةُ العرض المزدوج شائعةً بين المصوّرين. ويَلي تصويرَ شيء، لفُّ الفيلم من جديد بطريقة تتيح طباعة صورة أخرى على الصورة نفسها. ويُرجَّح أن يكون أحد ما قد فكّر بعد الحرب، إبّان محنة العصر الاقتصادية، بترجيع الفيلم لبيعه على أنه جديد.

ويعلِّق يونغ على حادثة العثور على الفيلم، قائلاً:

«يصل فون شولتس إلى نتيجة غير

مفهومة. فجميع المؤشّرات تشير – برأيه – إلى وجود نوع من الجذب بين الأشياء التي يرتبط بعضُها ببعض. ويفترض أنَّ الأحداث منتظَمة وكأنها حلمُ «وعيٍ غير معروف، أكثرُ كبراً واتساعاً»».

وتروي قصةٌ عربيةٌ حادثةً تثير دهشةً أشدّ. وهي ليست بالطبع مجرَّدَ قصة قصيرة، بل حكايةً رمزيةً تحمل عبرة، حاول كثيرٌ من الباحثين تأويلها.

ويبرز من بين هؤلاء «هينريتش زيمر» الذي نقل الحكاية إلى كتابه: الملك والجثّة. ويكرِّس زيمر كتابه إلى «أولئك الذين يهوون الرموزَ، والتحاورَ معها، والعيشَ محتفظين بها على الدوام في ذهنهم».

والواقع أنَّ هذه القصّة القصيرة تعبيرٌ عن صعوبة التغيير. ويَغلب ألّا يتغيّر أفق الأشياء لأننا نبقى شغوفين مفعمين بالرؤية القديمة. وكحال السجناء في كهف أفلاطون، نبقى شغوفين بمعارفَ تستند إلى أخيلتنا المنعكسة في الجدران فحسب. ويمكننا – ببذل مجهود يسير– الذهابُ خارجاً لرؤية نور الشمس، لكنّ الانتقال من الظل إلى النور يُخيفنا.

حذاء القاضي

تروي الحكاية الرمزية قصّة أبي القاسم الطنبوري، وهو تاجر بسيط لديه عيب وحيد، هو شدّة بخله. فيحبُّ الأشياء التي يمتلكها، ولا يودّ مطلقاً إنفاق المال لامتلاك أشياء أخرى. وكان يهوى بنحو خاص حذاءه القديم، الذي ينتعله منذ أنْ كان شاباً يافعاً. لذا كان هذا الحذاء بالياً وسخاً مشوَّهاً مثقَّباً مرقّعاً.

بيد أنَّ فكرة تبديل الحذاء لم تعبُرِ الحجرةَ الخلفية من دماغ أبي القاسم.

حقّق أبو القاسم في أحد الأيام ضربةَ حظ مدوّية. فقد نجح في شراء كمية كبيرة من البضائع القيّمة مقابل مبلغ زهيد، وكانت نحو ألف قارورة من الكريستال وبرميلٌ من ماء الورد. ولو أنه باع هذه البضاعة بالتجزئة، لكسب مالاً طائلاً. وأراد الاحتفال، لكنه تجنّب تنظيم وليمة مع الأصدقاء، فضلاً عن افتقاره للأصدقاء. فقرَّر الذهاب إلى أكثر المنتديات الرائجة في بغداد، وهو حمام السوق؛ وإنْ كان ذلك لمرّة واحدة. وكما جرت العادة في هذه الأمكنة، طُلب إليه عند الدخول ترك حذائه على المدخلَ؛ ففعل هذا، وخلع حذاءه النتن. وما إنْ دخل حتى قام العمّال بإزالة الحذاء المقرف من أمام الباب، وإخفائه عن نظر باقي الزبائن.

أنهى أبو القاسم اغتساله، وعاد إلى غرفة الملابس ليرتدي ثيابه، فلم يجد حذاءه. وكان مكانَهُ زوجُ أحذية آخرُ، أنيقٌ ومعطَّرٌ. فظنّ أنَّ ذلك إكرامٌ له من المحل، فانتعلها ثم خرج. ولم يكن يعلم أنه حذاء قاضي المدينة، الذي وصل بعده بقليل.

حين خرج القاضي من صالة الاستحمام، لم يجد حذاءه، بل وجد زوجَ أحذية آخرَ، عتيقاً ومرقَّعاً. فاستشاط غضباً، وأعاد تركيب الأحداث، ليتهم أبا القاسم بسرقة حذائه. فاعتَقل التاجرَ البائس، وألقاه في السجن. ووجب على الرجل المسكين دفعُ غرامة ضخمة كي يُخلَى سبيلُه. غير أنَّ أحد الحرّاس أعاد له حذاءه القديم عند خروجه؛ لأنه ملكه، وفقاً



للقانون.

عاد أبو القاسم الطنبوري إلى داره، مكسورَ الفؤاد، متفكِّراً في الحادثة المزعجة. فأدرك أنه ارتكب خطأً حين احتفظ بزوج الأحذية القديم طَوال حياته. وأبدى عدم رضاه عن نفسه وعن حذائه، فرماه في النهر الذي يجري تحت نافذته. بيد أنه واسى نفسه إذ فكَّر بالنقود التي سيكسبها ببيعه القوارير مع ماء الورد.

بعد مرور بضع أيام، قامِ الصيادون بجمع شباكهم، فلاحظوا أنَّ شيئاً ضخماً لا يشبه شيئاً قد مزّقها. فتعرَّفوا من فورهم على حذاء أبي القاسم الطنبوري، لأنه ظل مدّة سنوات سبباً لسخرية المدينة كلّها من التاجر البخيل. ومن سوء الحظ أنَّ المساميرَ المستعملة مرّات عدةً في عمليات الإصلاح قد أعطبت الشباك. ومضوا - سعياً للانتقام - حتىَ نافذته، وألقوا ذاك الحذاء المغطَّى بالوحل في منزله. وأَسقط سوءُ الطالع الحذاءَ توّاً على قطعة الأثاث، التي خُزِّنت فيها جميع قوارير الكريستال المعبَّأة بماء الورد، والمعدَّة للبيع. فسَقطت كلّ البضاعة على الأرض وتهشَّمت.

فتبرَّم أبو القاسم قائلاً: «الحذاءُ اللعينُ!». وصمَّم على التخلُّص منه بشتى الوسائل، وفكَّر بدفنه في حديقته. فحين سيُطمَر الحذاء جيداً تحت التراب، لن يتمكّن من إزعاج أحد.

رآه الجار يحفر بقوّة، فظنَّ أنَّ الطنبوري قد اكتشف كنزاً. وكان في ذاك العصر- كلّ شيء ثمين يُعثَر عليه تحت الأرض في مدينة بغداد، تعود ملكيته للخليفة. فذهب عندئذ لمقابلة القاضي، ووشى به؛ لأمله في الحصول على جزء من الكنز، مكافأةً له.

واستُجوِبَ أبو القاسم، ودافع عن



نفسه قائلاً إنه لم يعثر على أي كنز، بل دَفن ببساطة حذاءه. وأكيدٌ أنَّ القاضي لم يصدِّقه. فمن ذا الذي سيحفر حفرة في حديقته ليدفن حذاءه؟

والواضحُ أنه أخرج الكنز من تحت الأرض، وخبَّأه، ثم اخترع قصّة الحذاء، ليبرِّر عملية التنقيب. فحكَم القاضي، الذي كان له حصّةٌ في الكنز، بفرض غرامة على أبي القاسم تضاهي قيمة الكنز الافتراضي.

وازداد أبو القاسم قناعةً بأن هذا الحذاء سبب حظّه العاثر. فعدَّه طُعماً كبيراً يجلب سوء الطالع، ولا يستطيع التخلُّص منه. وكان يعلَم بوجود بركة ماء تقع خارج المدينة. وهي في مكان منعزل، وفيها مستنقعاتُ ماء آسن وموحل. فقصد أحد تجمّعات المياه هذه، ورمى فيه الَحذاء.

ولكن لسوء حظِّ أحد تلك المجاري الغريبة تحت الأرض التي يسيل فيها الماء ملتقياً مع مجمل الجزء الرطب من الكوكب، لَقيَ حذاؤه الخزانَ الذي يغذِّي مدينة بغداد بأكملها. فسُدَّ الخزان. وسرعان ما اكتشف العمّال الموكَلون بالترعة أصل المشكلة، وأدركوا على الفور أنَّ هذا الحذاء القديم يعود لأبي القاسم الطنبوري.

عاد المسكين ليمثُل أمام القاضي، الذي عاقبه بدفع غرامة أشدّ وطأةً من الغرامة السابقة؛ لأنه أضرَّ هذه المرّة بالصحّة والنظام العام. وأُعيد له الحذاءُ بالتأكيد؛ لأنه ملكه، والدولة لا تستطيع سلبه.

وقرَّر التاجر البائس، وهو في ذروة يأسه، حرقَ حذائه. لكنه كان نديّاً بعدُ. فوضعه على سطح الدار، ليجفَّ. وكان هنالك كلب على سطح منزل الجار، فأثار هذا الشيء الغريب فضوله، فقفز على سطح أبي القاسم، وضربَ الحذاء، فأوقعه على رأس سيدة حُبلى كانت تسير في الأسفل. فأصاب السيدةَ فزعٌ لدرجة أنها فقدت ولدها. فقاد زوجُها أبا القاسم من جديد إلى القاضي. ووجب على التاجر هذه المرّة بيعُ منزله وجميع الأملاك الأخرى التي يمتلكها، لكي يدفع الغرامة. غير أنَّ حذاءه ظلّ

باقياً. وحين أمرَ القاضي بإعادة الحذاء له، رفض أبو القاسم استلامه، قائلاً: «يكفي هذا. أودّ العيش بسلام، الآن إذ لم أعد أملك شيئاً، ما عدت أريد حذائي. أرجوك يا سيدي، برِّئني من الأضرار التي قد يتسبَّب بها في المستقبل هذا الحذاء، الذي لم يعد ملكاً لي».

فقبل القاضي الطلبَ، وحُرِّر أبو القاسم من كابوسه. وأيقن أنه كان يجب عليه منذ البداية عدم الوله بحذائه. فلو كان فعل ذلك، لتجنَّب آلاماً وعذابات كثيرة.

إنَّ أبا القاسم الطنبوري هو المسؤول الوحيد عن الوضع المزعج. إذ جرَّ نفسه إلى حالة السجن والدمار، لأنه لم يرتض حياةً تقوم على التغيير. فحاله كحال الأشخاص الذين يبقون مرتبطين للأبد بالمخطّطات القديمة، ولا ينصتون إلى الصوت الخارجي الذي يطالب بالتغيير.

ويرتبط البشر غالباً برؤية ماديّة عن الحقيقة، ويتشبَّثون بها مثلما فعل الطنبوري بحذائه. فيصيبهم كسل إلى درجة أنهم لا يستطيعون مواجهة البديل من الحقائق المختلفة. وإنَّ الذي لا يقبَل التغيير، يعيش في حالة سخط، ولا يحسِّن من وضعه. والشخص الذي يقلِّد الطنبوري غيرُ قادر على أن يكبر، ويمنع جناحَيه من البروز، فيكون غير قادر على التحليق فوق مشكلاته.

اللاوعي الجمعي

ولد «كارل غوستاف يونغ» في بلدة كيسفيل (سويسرا) في 26 تموز 1875، وهو مؤسِّس علم النفس التحليلي. كان والده بول آخيل يونغ قسّاً بروتستانتياً. وكان لوالدته إيميلي بريسويرك اهتماماتٌ ذاتُ صلة باستحضار الأرواح. وانخرط كثيرٌ من أقاربَ الشاب يونغ في ممارسات الاستحضار. وربما يعود السبب إلى ذلك في علاقته المضطربة على الدوام مع الدين، فلم يكن يودّ الخوض في مهنة كنسية، تنفيذاً لأمنيات أبيه.

ولم يضعُف اهتمامه بالظواهر الغيبية قطّ في مسيرة حياته العلمية، وذلك منذ أنْ كرَّس أطروحته الدكتوراه في الطب لموضوع: «علم النفس وعلّة الظواهر المسمَّاة غيبية». ولم يُهمل يونغ على الإطلاق مسائلَ الدين والسحر والغَيبيات في العموم، لكنه دأب علَى القيام بذلك من وجهة نظر احترافية. وكان هدفه على الدوام - لكونه عالم نفس- أنْ يضعَ في الوعي البشري أصلَ جميع الظواهر التي تُعزَى بطبيعة الحال إلى «القوى الخارجية» أو الطبيعية أو السحرية أو السماوية.

أنشأ يونغ لهذا الهدف البنيةَ العقلانية الكبرى، التي تنظر في وجود «لاوعي جَمعي». ولا تكون هذه المساحة النفسانية منفصلة عن وعي الفرد، بل تكوِّن ملحقاً عاماً له. واللاوعي الجَمعي مجموعُ عمليات الوعي والتجارب التي تعيشُها مجملُ البشرية. وهو المصدر الذي تأتي منه المحرِّضات النفسانية، الموجَّهة نحو وعي الإنسان.

وتتجسَّد هذه الاستثارة غالباً بصيغة توافقات غريبة غير اعتيادية. وقد كرَّس يونغ ما لا يقلّ عن نصف حياته لدراسة هذه التوافقات، مطوِّراً العتبة الثانية من علم النفس الخاص به، وهي: نظرية التزامنية.



بقايا حوت العنبر أغلى من الذهب!!!

د. نور كيالي❖

على الرغم أنه من الثدييات وليس له القدرة على التنفس تحت الماء إلا أنه قادر على أن يغوص لأعماق رهيبة ويستطيع حبس أنفاسه لمدة طويلة جداً قبل أن يصعد لسطح المياه لاستنشاق الهواء.

❖ قسم الجغرافية - جامعة دمشق

ويبلغ وزن السن الواحد عنده 1 كغ، ومع ذلك فعضته ليست قوية ويفضل ألا يستخدم أسنانه في المضغ ويفضل بلع طعامه مرة واحدة، ووجبته المفضلة في أعماق البحار تعد بمثابة أغرب المخلوقات تحت سطح الماء وهي الحبار العملاق، ففي الوقت الذي لم يستطع الإنسان الوصول إلى دراسة هذا النوع من الحبار بصورة كافية، فإن حوت العنبر يصل له ويلتهم أعداد مهولة منه يومياً، وكل ذلك في ظل أعماق سحيقة وظلام دامس.

مع الوضع في الاعتبار أن فضلات حيتان العنبر تعلو قيمتها على قيمة الذهب نفسه.

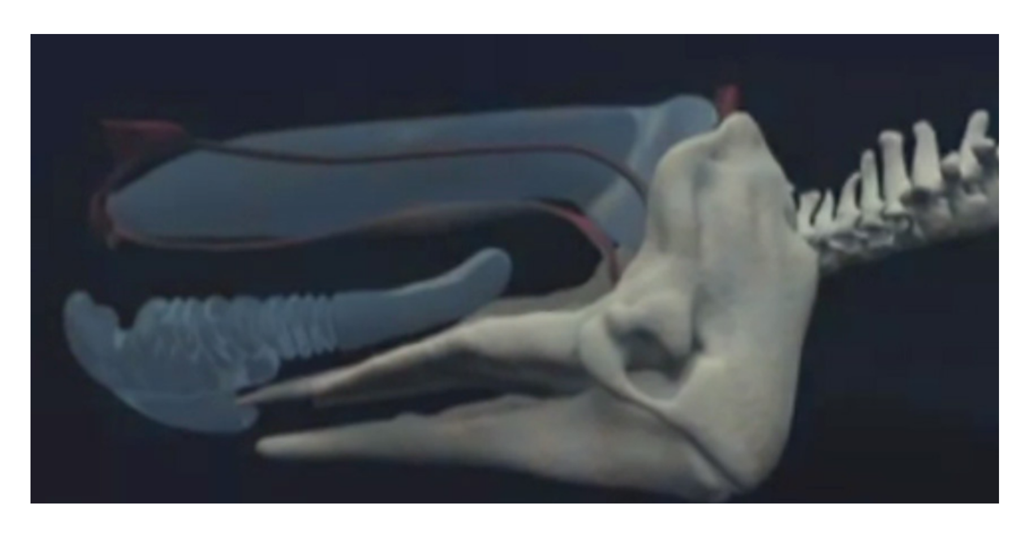
حجم حوت العنبر ووزنه

على الرغم من أن حوت العنبر هو ثالث أكبر الحيتان في العالم بعد الحوت الأزرق والحوت الزعنفي، إلا انه أكبر الحيتان المسننة وأكبر الحيوانات المفترسة من ذوات الأسنان على وجه الأرض. يراوح وزن حوت العنبر من 30 إلى 50 ألف كغ، وطوله من 15 إلى 18 متر وأحياناً يصل إلى 20 متر كاملة أي ما يعادل مبنى مكون من 7 طوابق تقريباً، مع العلم أنه ثاني أكبر الحيتان المسننة في العالم وطوله 13 متر ووزنه 14 ألف طن فقط.

حجم رأس حوت العنبر وذكائه

تمثل رأس حوت العنبر المهيبة حوالي ثلث إجمالي طوله الكلي وتعد دماغه هي الأكبر بين جميع الحيوانات على الأرض ويصل وزنها إلى 5 أضعاف دماغ الإنسان، إذ تمتلك هذه النوعية من الحيتان عقولاً ثقيلة الحجم، ربما أثقل من عقل أي حيوان وجد على سطح الأرض، حيث يبلغ حجم الدماغ حوالي 8كغ، ويكون أثقل 5 مرات من الدماغ البشري العادي، لكن هذا بالضرورة لا يعني أن هذه الحيوانات أذكى من البشر، إذ يتم حساب ذكاء الحوت عن طريق قسمة وزنه الذي يبلغ 56 طناً على وزن دماغه، لنجد أن نسبة ذكائه لا تتعدى ثلاثة بالعشرة بالمئة، وهي نسبة





ضئيلة جداً بنسبة ذكاء الأحصنة وهي 19٪، أو القطط 1٪ أو الكلاب 1,2٪ ، أو الدلافين 5،3٪، أو الإنسان 7،4٪.

أسنان حوت العنبر وآلية التهام فريسته

يمتلك حوت العنبر البالغ من 18 إلى 26 سن على شكل مخروطي بكل جانب من فكه السفلي وتدخل في تجاويف بنفس الحجم في فكه العلوي، ويصل وزن السن إلى 1 كغ، ومع ذلك عضته ليست قوية ويفضل أن لا يستخدم أسنانه في المضغ ويفضل بلع طعامه مرة واحدة، إذ تستخدم حيتان العنبر خاصية أشبه بالشفط لبلع طعامها بالكامل وهي الخاصية الموجودة عند الدلافين والحوت المنقاري، ويستطيع حوت العنبر أن يصنع قوة شافطة





من خلال الحركة المستمرة لرأسه ولعضلات رقبته ومناطق الفم والحلق ويشد الفريسة لداخل جوفه.

حياة حيتان العنبر

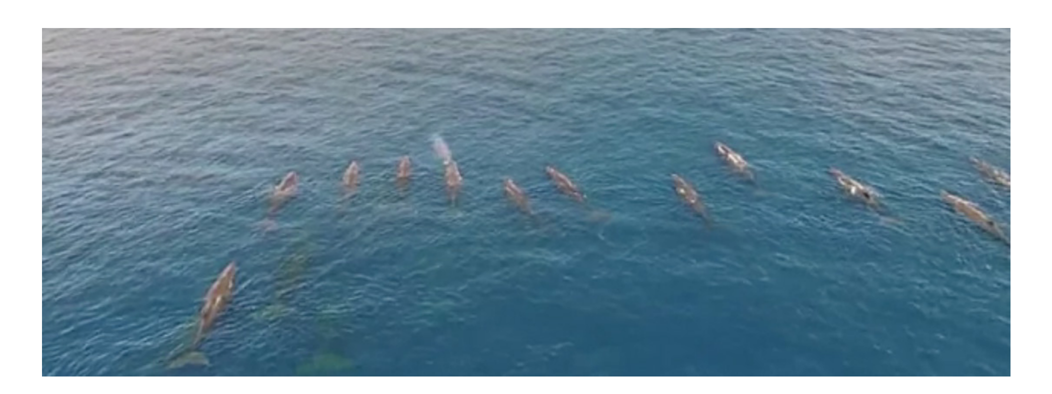
تنتشر حيتان العنبر في المياه الاستوائية في مختلف أنحاء العالم، ومن الممكن أن يهاجروا بصفة موسمية للتزاوج وللبحث عن الطعام.

وتتحرك حيتان العنبر عادة في مجموعات يتراوح عددها من 15 إلى 20 حوت، وتعيش الإناث والصغار دائماً مع بعضهم البعض في حين أن الذكور البالغة يعيشون حياة منفصلة خارج موسم التزاوج. تلد الأدنى كل 4 سنين وأثناء الولادة تجتمع مجموعة من الإناث حول الأم لمساعدتها، وبمجرد خروج المولود يتجهوا به بسرعو نحو السطح لكي يستنشق أول أنفاسه في الحياة، ووقت الولادة يبلغ طول المولود نحو 4 أمتار ووزنه 1000 كغ، وتستمر الأم في رعاية صغيرها لأكثر من 10 سنين كاملة، وتتراوح دورة حياة حوت العنبر بين 60 إلى 70 سنة.

وأخطر الحيوانات المفترسة عليه تتمثل في مجموعة حيتان الأوروكا (الحوت القاتل أو السفاح) التي نركز دائماً على العجائز والصغار من حيتان العنبر.

سبب تسمية حيتان العنبر بهذا الاسم

تمت تسمية هذه الحيتان بهذا الاسم نسبة إلى مادة موجودة في دماغ الحوت تتميز بلونها الأبيض وتتميز بخاصية شمعية، كما تسمى حيتان العنبر بالانكليزية بحيتان الحيوان المنوي، وذلك بسبب التشابه بين المادة الشمعية شبه السائلة التي تغطي تجاويف رؤوسها الضخمة وبين سائل التكاثر، وهذه المادة يطلق عليها العنبرية أو نطاف الحوت وكانت واحدة من الأسباب الرئيسة للصيد الجائر لحوت العنبر وذلك في الفترة بين أوائل



القرن 18 وحتى أواخر القرن العشرين، وذلك للاستفادة من الكميات الهائلة التي توجد داخل رأس الحوت الضخم والتي من الممكن استخدامها في صناعة الشموع والصابون ومواد التشحيم والمصابيح الزيتية وصناعة الأقمشة والجلود، علاوةً على دخولها في عدد من مكونات مستحضرات التجميل وبعض الزيوت والمراهم وبعض المواد الطبية.

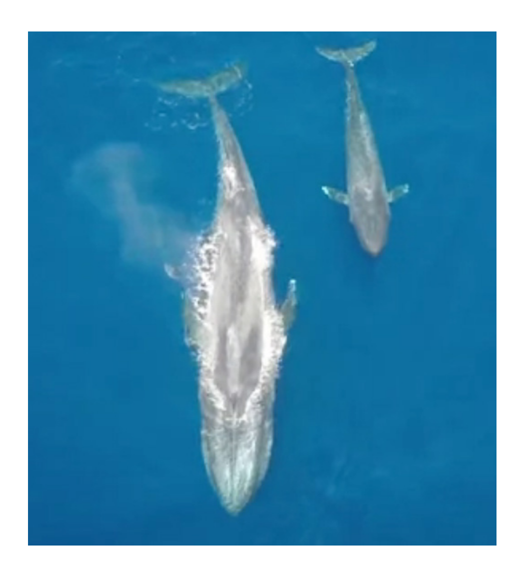
والعضو المسؤول عن إنتاج هذه المادة يطلق عليه العضو العنبري ويحتوي على ما يقارب 2000 لتر في رأس الحوت الواحد.

حادثة غرق سفينة اسكس على يد حوت عنبر عملاق

يرتبط دائماً اسم حوت العنبر بالحادثة الشهيرة لغرق سفينة اسكس في جنوب المحيط الهادي سنة 1820 م وهي واحدة من سفن التحويت أو صيد الحيتان الأمريكية،وكان ربّان السفينة يُدعَى جورج بولارد،دمرت هذه السفينة على يد حوت عنبر عملاق، وقد أشار الناجون من طاقم السفينة إلى أن طول الحوت يبلغ 26متر، وقد ألهمت هذه الحادثة الروائي هرمان ملفيل لكتابة روايته الشهيرة موبي دك سنة 1851م وتم تحويلها إلى أعمال سينمائية فيما بعد.

كيف يمكن لحيتان العنبر حبس أنفاسها لفترات زمنية طويلة أثناء رحلة بحثها عن طعامها على أعماق كبيرة؟

تقضي حيتان العنبر أغلب عمرها على عمق



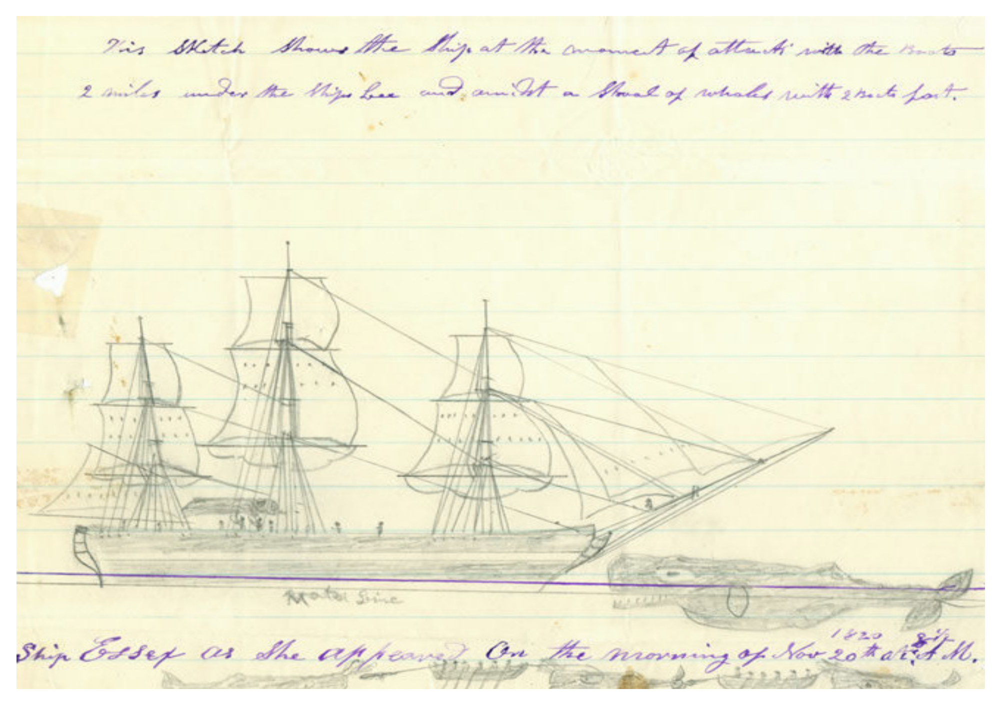
يراوح من 200 إلى 1000 متر تحت سطح البحر، أي أن حوت العنبر قادر على أن ينزل ضعف المسافة التي تصل لها أحدث الغواصات العالمية تقريباً، وعلى الرغم من أنه لا يقدر على التنفس تحت سطح المياه، لكنه يمتلك المقدرة على حبس أنفاسه لمدة طويلة تصل إلى 90 دقيقة كاملة، وبعدها يعود لسطح الماء لاستنشاق الهواء لمدة 8 دقائق تقريباً قبل أن يعود ويغطس مرة ثانية في الأعماق، وطبعاً مع الحجم الرهيب الذي يمتلكه حوت العنبر يحتاج إلى أن يكفي احتياجاته الهائلة من الطعام والتي تتنوع ما بين الأسماك والأخطبوط والحبار، ويمكن لحيتان العنبر أن تتنفس طول هذه المدة من خلال افراز بعض البروتينات في جسمها للأكسجين الذي يساعدها على التزود بالأكسجين اللزم للتنفس، علاوةً على أنها تستخدم آلية معينة للصيد تمكنها من اصطياد فرئسها ضمن الوقت الكافي.

آلية الصيد عند حوت العنبر (النبضات الصوتية)

يمتلك حوت العنبر داخل رأسه الضخم نظام اتصالات صوتي عجيب جداً، يضم كتلة هائلة من الأنسجة الزيتية المعروفة باسم العضو العنبري، ويستخدمه في إصدار النبضات الصوتية أو ما يشابه الطقطقة، وتتحرك هذه النبضات عبر سلسلة من المكبرات الصوتية تجعلها قوية بشكل غير معقول وتغطي مسافات كبيرة جداً، ويعد حوت العنبر هو أعلى الحيوانات صوتاً على الإطلاق وهو قادر على توليد نبضات صوتية تراوح من 200 إلى 230 ديسيبل، أي أقوى من صوت الأسلحة النارية، وهي قادرة من مسافة بعيدة على تدمير طبلة أذن الإنسان وإلحاق الضرر أيضاً بأعضاء الجسم المختلفة، وتستخدم حيتان العنبر هذه الخاصية في أمرين: الأول هو الاتصال بين بعضها البعض لمسافة تصل إلى







رسمٌ قديمٌ لسفينة الإسكس، يمتلكه اتحاد نانتوكيت التاريخي

عدة كيلومترات، والثاني: وهو العنصر الرئيس المساعد في عمليات الاصطياد في الأعماق الكبيرة عن طريق تحديد الأجسام وأماكنها في محيطها من خلال استقبال الصدى الممتد إليها، لدرجة أنها تصبح قادرة على تكوين صورة ثلاثية الأبعاد عن محيطها في الأعماق بصورة مماثلة تقريباً لأجهزة السونار، وبدراسة العلماء والباحثين لاستخدام حيتان العنبر لهذه الخاصية في عمليات الاصطياد اكتشفوا بأن الحوت في بادئ الأمر يطلق هذا النوع من النبضات بصورة متقطعة وطويلة المدى في محيطه ومع تحديده لأيٍ من أهدافه يتجه نحوه ويبدأ يرفع من سرعة اطلاق النبضات أو الطقطقة بشكل موجه ومتتابع من أجل أن يحصل على تحديث دقيق ومستمر بإحداثيات فريسته أول بأول حتى يصل إليها ويلتهمها.

تقدر شدة هذه النبضات بنحو 135 ديسيبل، وهي أعلى وأقوى الأصوات البيولوجية الموجودة على سطح الأرض، إن أنها أعلى من صوت بعض الطائرات النفاثة، حتى أنها يمكن أن تسبب الصمم المؤقت أو فقدان السمع النهائي لدى الإنسان، أو قد تسبب تليف الرئتين

أفضل وجبات حوت العنبر...

إن أفضل وجبات حوت العنبر وأهم أهدافه



في أعماق المحيطات هو الحبار وتحديداً الحبار العملاق، الرشيق كالرمح، الذي يعد بمثابة واحد من أعجب المخلوقات البحرية وأكثرها غموضاً على الإطلاق، إذ يمتلك هذا الحبار جسماً أشبه بالتوربيد مع 8 أذرع ومجسين ممتلئين بالممصات التي يستخدمها في القبض على فريسته إلى جانب منقار حاد في وسط مجساته أشبه بمنقار الببغاء، ويستطيع من خلاله تقطيع أشد أجسام فرائسه سمكاً لقطع صغيرة جداً، ويصل متوسط طول الحبار العملاق إلى 10 أمتار، ووزنه إلى 275 كغ، ومع كل الخصائص الهجومية التي يمتاز بها هذا الكائن الغريب وصعوبة العثور عليه من جانب العلماء في الأعماق السحيقة التي يعيش فيها إلا أن حوت العنبر يقدر أن يصل إليه بمنتهى السهولة ويلتهم أعداد رهيبة منه يومياً من أجل أن يشبع شهيته الواسعة من الطعام والتي تصل إلى التهامه 1000 كغ من الأسماك والحبار في اليوم الواحد.

آلية تشكل مادة العنبر...

يساعد النظام الهضمي لحوت العنبر على استيعاب الكم الضخم من الطعام مع احتوائه على 4 حجرات في المعدة، الأولى لا تفرز أي عصارة هضمية ولكنها تمتاز بجدران عضلية قوية وسميكة لسحق الطعام، وهذا لأن حوت العنبر يبلع طعامه مرة واحدة، الغرفة أو الحجرة الثانية هي الأكبر حجماً وتتم فيها عملية الهضم وتتراكم فيها مناقير الحبار العملاق وعيونه الضخمة الأشبه بكرة الشواطئ والتي لا تستطيع المعدة هضمهم، وبعد امتلائها ووصولها لحد معين خلال فترة من 7 إلى 10 أيام يقوم حوت العنبر باستفراغها مرة ثانية بهيئة قيئ بشكل شبيه لنفس الآلية التي تستخدمها عدد من الحيوانات مع قذفها لبقايا الطعام من عظام وفرو بعد الأكل والذي لا تقدر معدتهم على هضمه، ولكن أحياناً وبشكل نادر جداً وتحديداً في حوت واحد من بين كل 100 حوت لا تتم العملية هذه بالشكل المطلوب..

مما يجعل الحوت مصدر محتمل لواحدة من أغلى المواد النفيسة على الأرض وهي مادة العنبر.

الذي يحصل أن كميات كبيرة من



المواد التي لا يقدر الحوت على هضمها تتراكم في آخر حجرات معدته، ولا يكون قادراً عندئذ على تقيؤها للتخلص منها، وبعدها تتسرب أجزاء من الكتلة المجمعة إلى الأمعاء، والتي ممكن أن يتعدى طولها 150 متر، وأثناء حركة الكتلة البطيئة في الأمعاء تنغمس مع البراز في مادة شبه شمعية يتم افرازها لحماية الجهاز الهضمي للحوت من الأجسام الحادة، ويلفظ الجسم قطع صغيرة من الكتلة هذه إلى المحيط، وبمرور الوقت مع ضوء الشمس والمياه المالحة والبكتريا والأنزيمات بداخل الكتلة، يتغير هيكلها الجزيئي وتنتهي بشكل أصغر وأخف وزناً مع لون رمادي باهت أو مصفر، وغالباً يعتقد الناس في حالة العثور عليها هلى السواحل أنها صخور لا غير، وأحياناً يتم العثور عليها صدفة في شباك الصيادين.





لماذا فضلات حوت العنبر أغلى من الذهب؟

لأنها نتيجة رحلة مخلفات في أعماق البحار قد تتجاوز مدتها عقداً كاملاً تبدأ بالتهام حوت العنبر للحبار العملاق ثم هضمه عن طريق قناة هضمية غريبة، ثم مرورها بأمعاء حوت العنبر، لتبقى لسنوات داخل الحوت وبعدها لعقود في المحيطات، علاوةً على ندرتها وفرص الحصول عليها ضئيلة جداً، وقد يبلغ ثمن الحجر الواحد منها نحو 10 آلاف إلى 100 ألف دولار.وتختلف أسعار العنبر حسب عمر وجودة العنبر نفسه، واعتماداً على عمر وحجم كتلة العنبر فسعر الغرام الواحد يتراوح من 20 إلى 50 دولار وهذا قد يكون أغلى من سعر غرام الذهب الواحد، أي ببساطة شديدة يمكن القول أن فضلات حوت العنبر أغلى من الذهب.

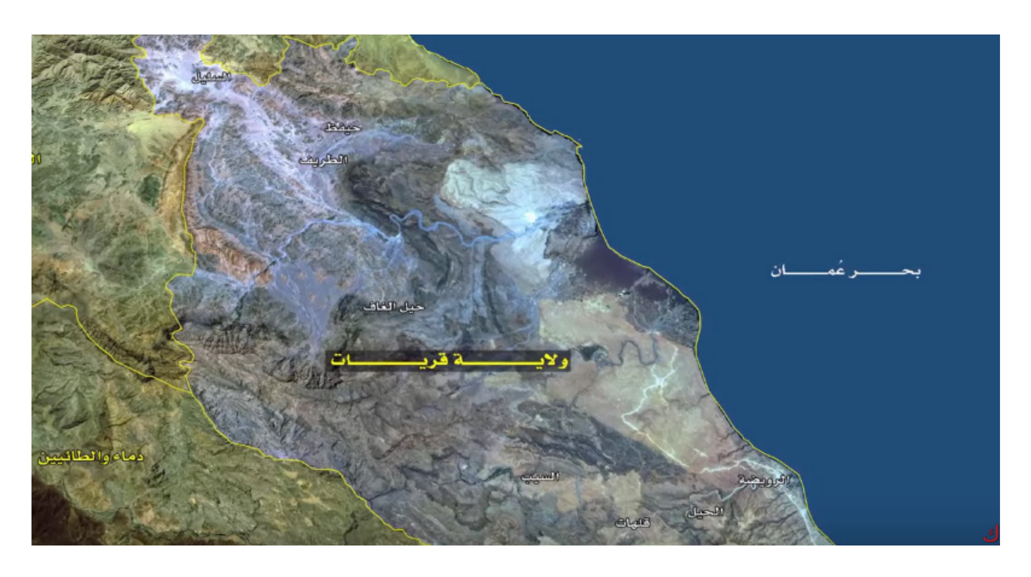
استخدامات العنبر...

يستخدم العنبر في صنع العطور على مستوى العالم، وذلك لرائحته المميزة وقدرته الخارقة على جعل العطور تدوم لفترة أطول، ولكن نسبة لفرض قوانين تمنع صيد حيتان العنبر أو الإتجار فيها فقد توقفت بعض شركات تصنيع العطور عن استخدام العنبر في منتجاتها.

مصادفات حدثت لبعض الناس الذين نجحوا في الحصول على مادة العنبر ساعدت في تغيير حياتهم للأفضل

عثر ثلاثة صيادين من عمان على قطعة كبيرة من عنبر الحوت تزن 80 كغ وتبلغ قيمتها حوالي 3 ملايين دولار.

الكنز المثير للاهتمام عثر عليه قبالة ساحل القريات شمالي شرقي عمان من قبل 3 صيادين يقودهم صاحب المركب خالد



السناني الذي ثضى كامل حياته في الصيد ضمن حدود هذه المنطقة على أمل أن يعثر في يوم ما على ثروة كبيرة في المحيط، ققد هثر الصياد على مادة عنبر الحوت بالصدفة حيث كان في طريقه عائداً للمنزل حينما فاحت رائحة كريهة من مسافة بعيدة وعند اقترابه من مصدرها وجد مادة عملاقة تعوم مع الأمواج حيث قال: (استخدمنا الحبل والشبكة لجمه المادة ونقلها إلى داخل القارب وكان قدقيل لي في وقت سابق أن مادة العنبر ذات رائحة كريهة ولكن تطفي بعد أيام رائحة لطيفة ولقد هرعت إلى الشاطئ وأنا سعيد للغاية، وأضاف: تحقق حلمي الذ انتظرته لأكثر من 20 عاماً عندما بدأت الصيد مع والدي).

وقد تلقى خالد عروضاً بالفعل لشراء مادة عنبر الحوت حيث عرض عليه البعض آلاف





الدولارات مقابل الكيلو الواحد، منها تاجر سعودي عرض نحو 35 ألف دولار للكيلو غرام الواحد، إلا أن الصياد لا يزال يبحث عن سعر أعلى لكنزه الثمين.

وفي عام 2013 وجد أحد الكلاب حجر عنبر يزن حوالي 3 كغ على أحد الشواطئ البريطانية، ويبلغ سعره 200 أولف دولار.

كما وجد الزوجين الاستراليين حجر عنبر يزن نحو 14 كغ أي ما يعادل سعره 300 ألف دولار.

المراجع:

- Whitehead, H. & Weilgart, L. (2000). "The Sperm Whale". In Mann, J.; Connor, R.; Tyack, P. & Whitehead, H. (eds.). Cetacean Societies. The University of Chicago Press

- Ellis, Richard (2011). The Great Sperm Whale: A Natural History of the Ocean's Most Magnificent and Mysterious Creature. Zoology. 179. USA: University Press of Kansas.

- Mead, J.G.; Brownell, R. L. Jr. (2005). "Order Cetacea". In Wilson, D.E.; Reeder, D.M (eds.). Mammal Species of the World: A Taxonomic and Geographic Reference (3rd ed.). Johns Hopkins University Press

- حسن أبو العينين جغرافية البحار والمحيطات الطبعة التاسعة مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية



قلوب ميّتة

قصّة: د. طالب عمران

لم تكن قصّة عادية تلك التي حصلت لـ (إلهام) رغم أنها بدت طبيعية، واستمرّت تبدو كذلك فترة ليست بالقصيرة، حتى جاء ذلك اليوم الذي انقلب فيه كلّ شيء.

تعرّفت إلهام على قاسم في الجامعة، كان يدرس التجارة في سنته الأخيرة، وكانت إلهام في سنتها الأولى من كلية الآداب قسم اللغة الانكليزية.

تعرّفت إلهام على قاسم عن طريق أخته (سارة)، وتطوّرت المعرفة بالتدريج حتى تزوّجا في الشهر الأول من عام 1989، أي بعد أقل من سنة من تعارفهما.

كان قاسم ينتمي لأسرة ثرية كثيرة العدد، تملك نصف الحي الذي تعيش فيه، وكانت إلهام الابنة الكبيرة لأسرة متوسّطة، تعيش في قرية قريبة من مدينة حمص انتقل والدها إلى العاصمة بسبب عمله واستقرّ فيها. ثم توفي وسافر أخواها الأكبر منها، للعمل في دولة خليجيّة، وظلّت تعيش وحيدة مع أمها.

وبعد زواجها بشهرين بدأت إلهام تعتاد على الجو الجديد الذي تأقلمت معه، وقد كان قاسم طيباً معطاءً يحاول إدخال السعادة إلى قلبها.

وفي شهر نيسان من ذلك العام 1989 أخذ قاسم يكثر من الغياب عن البيت فجأة، وقد أخبره أنه بدأ بمشروع جديد يتطلّب منه السفر أحياناً، والتفرّغ للعمل فيه لأشهر عدّة، لذلك يجب عليها أن تعتاد على غيابه.

– ما تزالين ساهرة يا عزيزتي؟

– لا أستطيع النوم إذا لم أجدك إلى جانبي.

– ستعتادين على ذلك، ماذا أفعل، إنه العمل يتطلّب منّي التفرّغ الكامل له. حتى أنا لم أعتدْ بعد على الابتعاد عن البيت هكذا.

– تناولت عشاءك؟

– نعم. نعم. إنها الواحدة والنصف صباحاً. أشعر بالتعب يجب أن أنام. هه. أين ذهبت اليوم؟

– جلست في البيت طوال النهار أقلّب في كتب الجامعة. شعرت بالملل الشديد والوحشة، اعتدتُ عليك يا قاسم. أوحشني غيابك.

– لا بأس يا عزيزتي، أشهر قليلة وينتهي المشروع. وأعود لأقضي أيامي معك. هه، لماذا لم تذهبي لزيارة أهلي؟

– فكُرتُ في الأمر، ولكني أجبرتُ نفسي على البقاء هنا، لأحاول أن أراجع بعض الدروس الجديدة.

– لا بأس. سألتني أمي عنك؟ هه تنتظر خبراً يفرحها.

– ماذا تقصد يا قاسم؟

– أن تسمع بنبأ حملك الأول؟

– ما زال الوقت مبكّراً يا قاسم. لم أكمل دراستي بعد، أحتاج لعامين آخرين. ألم نتفق على ذلك؟

– ولكن أمّي تلحّ عليّ كثيراً، لا بأس يا حبيبتي، ولد واحد ثم ترتاحين بعدها وتتفرّغين لدروسك.

– ولكن هذا قد ينسف طموحاتي في النجاح والتخرّج.

– الطفل هو أهم طموح عند المرأة، ألا تريدين أن تفرحيني يا حبيبتي. أرجوك لا تناقشي هذا الأمر. لنحاول. هه؟

– سنناقش ذلك فيما بعد؟

– لا يا حبيبتي. قلت لك يجب ألّا نناقش هذا الأمر. أخاف أن تعتقد أمي أن بك عيباً يمنع عنك الحمل.

فكّرت بقلق، «يا إلهي، لم أضع ذلك في اعتباري من قبل».

– ما بك؟ هل آخذ وعداً منك بالمحاولة.

– طيب يا قاسم. كما تشاء.

– كنت واثقاً من حبّك لي. لو تعلمين

كم أنت مهمّة بالنسبة لي. آه يا إلهام.

غمغمت: «يا إلهي أعنّي على الأيام القادمة»!

ونتيجة إلحاح قاسم وإلحاح أمّه أيضاً، حملت إلهام فعلاً، وكان قاسم يبدو سعيداً بشكل لا يوصف، وبدأ يبكّر في العودة للبيت وهو يُظهر لإلهام الحبَّ والاهتمام.

أمّا والدته فكانت تبالغ في العناية بها وهي تحمد اللّه، أن زوجة ابنها ستنجب لها أول الأحفاد. وفي شهر أيلول من ذلك العام، وكانت إلهام في شهرها الخامس. حلمت حلماً غريباً.

❖❖❖

«يا إلهي. كأنني أمشي في طريق وعر يرتفع صاعداً في الجبل، آه إنه يضيق والجبل يكبر انحداره. آه، يبدو الوادي تحتي عميقاً».

سمعت أصواتاً وراءها، كان هناك فرسان على خيول، قال أحدهم:

- انتبهي أيتها المرأة، قد تقعين في الهاوية، لماذا تسيرين متمايلة هكذا؟

- أما زال الطريق إلى القمّة بعيداً؟

- بالطبع، ولماذا تصعدين إلى القمّة؟

- تنتظرني أمي، سأضع طفلي عندها.

- مسكينة، لا تطمئن البنت إلاّ لأمّها في مثل هذه الحالات.

- أمك تقيم في أعلى الجبل؟ آه، إنه مكان متعب، ليس فيه سوى المطر والبرد والريح، أعانك اللّه،

ثم تابع مشفقاً:

- تحتاجين لوقت طويل للوصول إلى هناك. ولكن انتبهي لنفسك قد يجعلك الإرهاق تضعين طفلك قبل الأوان.

- آه أشعر بالتعب من الآن.

- ما رأيك يا أخي لو نساعدها في الوصول، سنجعلها تمتطي حصاني ليصعد بها إلى أهلها؟

- فكرة جيدة، لماذا لا تضعها خلفك، ستتشبّث بك جيداً.

- ما رأيك؟ هه؟ هل أساعدك في الصعود؟

«يبدوان مهذّبين، لا بأس سأقبل فكرتهما. ساعداني لأمتطي الحصان»..

شعرتُ كأنّ الحصان يطير فوق الأرض. أشبه بحصان سحري. كم يبدو منظر الأرض فريداً أخّاذاً من هنا. قال لها مستفسراً:

- يبدو أن الناس يتجمّعون هناك، أترين؟ أليست تلك هي القرية التي تقصدينها؟

- يا إلهي، إن أمّي تقف في الخارج وهي تصرخ وتنتحب.

كانت تبدو مفجوعة وهي تصرخ:

- إلهام حبيبتي؟ لقد خطفوا ابنك؟ أخذوه.

- ابني. ماذا تقولين يا أمي، لم يأت ابني بعد، ما زال في بطني؟

- ماذا تقولين يا صغيرتي؟ انظري إلى بطنك.

انتبهت إلى بطنها وهي تصرخ وقد اختفى الفرسان:

- لا. لا. أين ابني؟ آه.. كيف حدث ذلك؟ مستحيل.

استيقظت وهي تبكي: «يا إلهي، آه، ما هذا الكابوس المريع؟».

لم يكن قاسم إلى جانبها، خرجت تفتّش عنه، لم يكن في البيت كيف ذهب قاسم ولم يكلّمها كلمة واحدة، لماذا خرج بهذه السرعة؟ إنها الثانية بعد منتصف الليل؟ بدأت تتمشّى

في البيت وهي تشعر بقلق بالغ. وفي نحو الساعة الثالثة سمعت قرعاً على الباب. تساءلت خائفة:

«مَنْ الذي يطرق البابَ في مثل هذه الساعة المتأخّرة؟» ربّما كانت حالة طارئة».

عاد الباب يقرع من جديد، صرخت بخوف:

- مَنْ؟ مَنْ الطارق؟

سمعت صوتاً كأنّه قريب من صوت أمّها، ففتحت الباب، كانت امرأة مسنّة تلوح في وجهها الطيبة والرزانة، سألتها:

- مَنْ أنت يا خالة؟ خير؟

- يسمّونني الجدّة يا ابنتي. اعتبريني جدّتك.

- خير يا.. يا جدّتي. كيف حدث وطرقت الباب في هذه الساعة؟

- جئت أزورك يا ابنتي وأنا أعلم أنك وحيدة.

- آه.. يا جدّتي، أعيش لوحدي معظم الأوقات، في أيام حملي الأولى، كان قاسم لا يفارقني كثيراً ولكنه في الشهرين الأخيرين، بدأ يتغيّب عن البيت.

- آه يا ابنتي، أعانك الله على الأيام القادمة. ستمرّين بأوقات صعبة.

- أوقات صعبة، ماذا تقصدين؟

- جهّزي لي الشاي وسأحادثك بالتفصيل.

- سأفعل يا جدّتي. بسرعة.

«تبدو في منتهى الطيبة، أشعر أن عينيها تنفذان إلى أعماقي».

عادت بعد أن أعدّت الشاي، لم ترها، ظنّتها في الحمّام، انتظرت قليلاً ثم عادت تصرخ:

- جدّتي أين أنت؟ لماذا لا أراك؟ أحضرت صينية الشاي أين اختفيت؟ جدّتي أين أنت؟

بحثت عنها دون طائل، كيف ذهبت واختفت هكذا يا إلهي؟ عادت إلى فراشها تفكّر:

«بالتأكيد هيّئ لها ذلك، ليتها كانت موجودة فعلاً».

❖❖❖

بينما هي تتمشّى بعد يومين مع (سارة) أخت قاسم، وكان قاسم بعيداً لا يأتي إلى البيت إلاّ لماماً. وهي منشغلة بحديث خاص مع (سارة) وقد شعرت بالغضب منها، حين انقطعت عن زيارتها بعد الزواج:

- أهكذا يا سارة؟ لماذا لا أراك؟ أنا زوجة أخيك وأحمل ولده في بطني.

- كنت منشغلة يا إلهام. تعلمين أن فرعنا صعب.

- كلّ هذه الأشهر؟ حتى ولا نصف ساعة؟ حرام عليك يا سارة كنت أقرب صديقاتي إليّ.

- لا بأس يا إلهام. لا داعي للغضب.

وفجأة رأتها، ازدادت دقّات قلبها، صرخت:

- يا إلهي، إنها هي، جدّتي، جدّتي أين أنت؟

قالت سارة باستغراب:

- جدّتك؟ الذي أعرفه أن كلتي جدّتيك ميتتان.

- صحيح ولكن؟

يجب أن تلحق بها. إنّها تبدو قوية، تخترق الزحام بسهولة كأنها تطير، ثمّ اختفت سألتها سارة:

- هل تعرفينها جيداً يا إلهام حتى تناديها بـ(جدّتي)؟

قالت شاردة:

- زارتني قبل يومين، كنت وحيدة في الليل استأنست بها، ولكنها لم تطل المقام ذهبت سريعاً دون أن أفهم سرّ زيارتها

السريعة. كأنها أشبه بلغز.

- لا بأس. هل يتعبك الحمل يا إلهام؟

- لا. ليس كثيراً.

- أختي (مزنة) حامل أيضاً. لماذا لا تكثرين من زيارة أهلي؟ أمّي تسأل عنك دوماً.

- بيتكم مزدحم بالناس، وأَشعر بالحاجة للهدوء.

- ما رأيك لو نذهب الآن إلى هناك ستُسرُّ والدتي كثيراً، إنها تنتظر مولودَك بفارغ الصبر.

- لا بأس. لنذهب إلى هناك.



في تلك الليلة استيقظت على حركة في البيت، صرخت:

- قاسم. عدت أخيراً؟ أين أنت؟ لماذا لا تسمعني صوتك؟

سمعتُ صوت الماء في الحمّام شعرت بالراحة، عادت إلى الفراش نظرت إلى الساعة كانت الرابعة صباحاً، يبدو أنّه عاد متأخّراً أكثر من اللازم، لا أدري إلى أيّ حدّ ينغمس في عمله، هذا العمل الذي يجعله يتأخّر كلّ هذا الوقت؟ سمعت صوت فتح الباب الخارجي وإغلاقه، شعرت بالألم:

- خرج قاسم من جديد دون أن يكلّمني. آه. أكاد أجنّ ماذا يحدث هنا؟

وبصعوبة غفت إلهام لبعض الوقت، وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إلى مكتب قاسم وهي تشعر بالغضب منه. لم يكن موجوداً في مكتبه، وقد استغربت ذلك. قال لها مدير مكتبه:

- الأستاذ قاسم مسافر منذ يومين، إنه في بيروت يقوم بعقد بعض الصفقات.

- قاسم مسافر؟ كيف؟

- أوصلته بنفسي حتى الحدود، حيث استقبله مدير الشركة اللبنانية هناك، لن يعود حتى نهار الجمعة القادم. أتريدين شيئاً يا سيدتي؟ بماذا أستطيع أن أخدمك؟

خرجت غير مصدّقة: «إذن، ما سرّ تلك الأبواب التي تُفتح وتُغلق، مَنْ الذي يأتي إلينا ومعه مفتاح البيت؟».

التقت بسارة من جديد:

- أمعقول يا إلهام؟ كيف؟

- أنا متأكّدة يا سارة، لم أكن واهمة. أرجوك تعالي معي اليوم، ستنامين معي، أشعر بالخوف.

- لماذا لا تنامين معنا في البيت حتى يحضر قاسم. سأوفّر لك سبيل الراحة تأكّدي.

- لا أدري ما أقول.

- هيّا يا عزيزتي لا تتردّدي.

استقبلتها أم قاسم، بالابتسام، وربتت على بطنها:

- أنا أنتظرك يا حفيدي بفارغ الصبر.

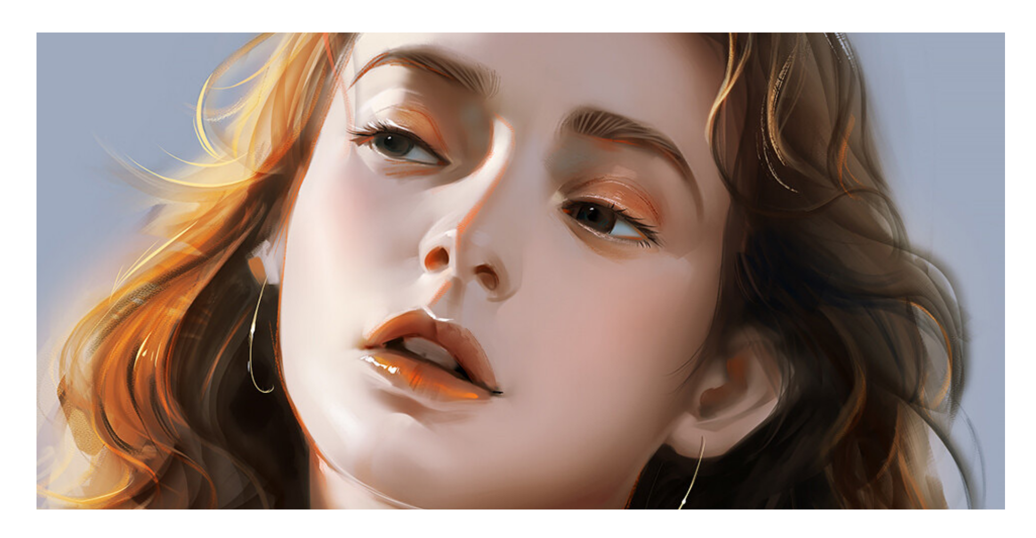
بدت أم قاسم وكأنها تنتظر المولود فعلاً وهي تتفرّس فيها بعينين ناريتين، فشعرت بالخوف:

- يا عزيزتي إلهام، يجب أن تظلّي عندنا نعتني بك. وتأكّدي أنني لن أسمح لأحد بإزعاجك، أنت في مقام ابنتي، وتحملين أول حفيد في أسرتنا، هذا مهمّ جداً.

- سأحاول يا عمّتي. رغم أنني أشعر بالهدوء أكثر في شقّتنا الصغيرة.

أنا لا أطلب منك الإقامة الدائمة، يجب أن تقيمي هنا عندما يغيب زوجك.

- معك حق يا عمّتي. هه.



فتح الباب ودخل قاسم زوجها، قالت الأم بصوت عالٍ:

- أهلاً بك يا قاسم لمَ تتأخّر كثيراً.

- أنا جائع، هل الطعامَ جاهز؟

خرجت إليه إلهام، قالت معاتبة:

- نعم. بالطبع الطعام جاهز.

- أنت هنا يا إلهام؟

- جاءَت تزورنا، أحضرتها سارة، طلبت منها الإقامة فترة غيابك عن البيت.

- لا بأس. أمي أنا جائع سأتناول الطعام. عن إذنك يا إلهام. هيّا يا سارة رافقيني إلى المطبخ.

قالت الأمّ مفسّرة ارتباك قاسم:

- إنه يأتي عدّة مرات في اليوم، ليس لتناول الطعام فقط، وإنما للاستراحة من عناء التعب، إنه البيت الذي تربّى فيه، يشعر بالراحة هنا أكثر من أي مكان آخر.

ثمّ غيّرت حديثها وهي تربت على بطن إلهام:

- قولي لي، أيعذّبك هذا العفريت الصغيرة؟

- ليس كثيراً. إنه هادئ أحياناً وكثير الحركة أحياناً أخرى.

- الحمد للّه على حملك السريع، لو تعلمين ماذا فعلت لنا يا إلهام. إنه أملنا جميعاً.

«إذن قاسم ليس مسافراً، كيف لا يأتي إلى البيت إذن؟ ولماذا يهملني كلّ هذا الإهمال، ويضع أهله بالمقام الأول؟ ألست أحمل ولده الذي أكدّ لي أنه يحلم به؟ ما الذي يجري من حولي؟ أشعر كأنّ الوضع غير طبيعي؟»

❖❖❖

راجعت طبيبها قبل أسبوع من ولادتها المتوقّعة:

- الحمد للّه الجنين بخير، وصحته جيدة، وضعه طبيعي تماماً، يمكنك الاطمئنان.

- أنا آسفة يا دكتور، كان من اللازم أن آتي إليك في الشهر الماضي، ولكن (قاسم) مشغول دائماً.

- لا بأس. يمكنك الحضور في أي وقت. إنه حملكِ الأول ويجب أن تنتبهي

لنفسك. موعد ولادتك ليس بعيداً.

وهكذا اقتربت لحظة الولادة، وكانت إلهام تشعر بالقلق. وقد تكرّر حلمها بضياع ابنها أكثر من مرّة، وتكرّر إحساسها الغامض بالقلق.

وفي إحدى ليالي كانون الثاني عام 1990، وكانت ليلة شديدة البرودة شعرت إلهام بآلام المخاض. وكانت أمّها إلى جوارها، حضرت خصّيصاً لمعاونتها في العناية بالطفل. لم تضع الأم وقتها فاتصلت بأم قاسم. ونقلت ابنتها بسيارة أجرة إلى المستشفى القريب، لتكون ولادتها تحت إشراف طبيبها المختص. وقضت إلهام ليلة صعبة من المخاض المؤلم العسير. حتى سمعت صوت صراخ الرضيع فشعرت بالسعادة ثم أُغمي عليها. قال الطبيب:

– ستكون بخير، لقد بذلت جهداً كبيراً في دفعه إلى الخروج.

اقتربت أم قاسم من الطبيب الذي كان يختبر صحّة الطفل:

– أعطني الطفل يا دكتور.

– ليس الآن، سيقومون بغسله وتنظيفه يمكنك رؤيته فيما بعد يا خالة.

– يبدو شديد الشبه بوالده، ألا ترى زرقة عينيه؟ الحمد لله.

– المهم أنه سليم معافى. يمكنك الذهاب والاستراحة يا خالة، لن تستيقظ إلَهام قبل ساعتين على الأقل.

قالت أم قاسم لأم إلهام:

– جئت لأصحبك إلى البيت لترتاحي لبعض الوقت.

– سأذهب إلى منزل إلهام لأنام لبعض الوقت، لا داعي لإزعاجكم يا أم قاسم.

– كما تشائين. تعالي سأرافقك إلى هناك.

– الحمد لله ولدت إلهام ولداً جميلاً بصحة جيدة.

ثم تابعت تقول:

– قاسم في حلب. يستلم شحنة بضاعة، سيفرح كثيراً.

❖❖❖

استيقظت إلهام، كانت ترى حلماً مرعباً، صرخت:

– أريد أن أرى ابني يجب أن تحضره الممرّضة.

دخلت الممرّضة:

– خير ماذا تريدين؟

– أريد رؤية ابني، سأرضعه أحضريه إلى هنا.

قالت مرتبكة:

– ولكن يا سيدتي. ماذا أقول لك؟

– ماذا هناك؟ لماذا أنت مرتبكة يا آنسة؟ أين ابني؟

– أنا آسفة، أخذه أهل زوجك ليدفنوه.

صرخت مفجوعة:

– ماذا. ماذا تقولين؟ مات ابني؟ أنت تكذبين كان يصرخ هذا الصباح وقد طمأنني الطبيب أنه بصحة جيدة.

– أنا آسفة. هذا ما حدث.

– كيف يا إلهي؟ معقول، مستحيل. آه يا إلهي.

دخلت أمّها:

– ابنتي ما بك؟ خير؟

– مات ابني يا أماه. مات. هكذا أخبرتني الممرّضة.

– مستحيل، كان يترغل في حضني هذا الصباح. كيف حدث ذلك؟ يا ستر الله.

- هكذا أخبرتني الممرّضة، أخذه أهل قاسم ليدفنوه.

كانت تنتحب مفجوعة حين دخل الطبيب:

- كيف حالك يا سيّدة إلهام؟

- دكتور أمعقول؟ أكّدتَ لي أنّ ابني بصحّة جيدة.

- نعم. هو بصحة جيدة، خير، أحدث أمر طارئ له؟

- ابني مات. مات يا دكتور.

- كيف حدث ذلك؟ مستحيل سأتأكّد من الأمر.

خرج الطبيب منزعجاً ليتحقّق الأمر، كانت إلهام تبكي مفجوعة:

- آه يا أمّاه. ليتني متُّ. أين قاسم؟ لماذا لا أراه؟

- اهدئي يا ابنتي لا رادّ لقضاء الله. قالت أمّه إنّ زوجك مسافر في حلب، سيحزن كثيراً لموت طفله.

- إنها مسؤولية من في المستشفى، لم أترك الأمر ينقضي بهذه السهولة!

- سنرى ما يقوله الطبيب، أرجوك أن تهدئي.

دخل الطبيب:

- أنا آسف يا سيدة إلهام. يبدو أن الطفل أصيب بذبحة فور خروجي من المستشفى مات على أثرها، وقد استلم أهل زوجك جثّته، كلّ الأوراق سليمة مع الأسف.

- لا. يا إلهي.

شاركتها أمّها البكاء:

- أهكذا قُتل حلمك يا ابنتي؟ ويلي عليك أيتها المسكينة.

كان الطبيب غير مصدقّ لما يحدث:

«أمر غريب أن يحدث كلّ ذلك خلال أقل من ساعتين. لست مطمئناً للأمر».

قضت إلهام ليلة أخرى في المستشفى وسط شعور كئيب بالحزن والمرارة، ورغم محاولات أمها تهدئتها. كانت منهارة تماماً. مما اضطرّ الطبيب أن يعطيها أكثر من حقنة مسكّن، وقد خاف أن تحدث لها مضاعفات وهي تحت تأثير الصدمة.

ساعدها في الخروج في اليوم التالي وأحضر لها بعض الأدوية مؤكّداً على أمّها أن تلتزم بتعليماته في إعطائها الدواء في الوقت المحدّد.

وفي مساء ذلك اليوم حضر قاسم من سفره، بدا غاضباً حزيناً، لم يستطع كبت انفعالاته، رغم توسّل الأم المسكينة له، أن يراعي شعور ابنتها المفجوعة. وقد غادر المنزل بعد ساعة إلى منزل أهله.

وشيئاً فشيئاً بدأت إلهام تعود إلى رشدها، وقد أقنعها الطبيب أنها يجب أن تنجب طفلاً آخر بسرعة لتنسى مأساة طفلها الأول، كما أقنع (قاسم) بأن يعود لملاطفتها، فهي لم ترتكب ذنباً.

ورغم ذلك ظلّ أهل زوجها يرفضون زيارتها، وقرّرت أمّها أن تصحبها إلى حمص مسقط رأسها لتروّح عن نفسها لبعض الوقت.

- سأذهب لوداع أهل زوجك، ألا ترغبين بالمجيء معي؟

- لا يا أمّاه، إنهم يعاملونني كأني قاتلة، قتلت طفلي وحرمتهم منه.

- كما تشائين يا ابنتي، سأذهب لوداعهم لوحدي إذن. كنت أتمنى لو كان

قاسم هنا ليرافقني.

- قاسم مشغول بعمله، إنه يهرب من البيت إلى العمل، ألا ترين نظرات الحزن في عينيه؟

- لا بأس يا ابنتي، كلّ شيء سيكون على ما يرام بإذن الله. هه لن أتأخّر سأعود سريعاً.

كانت تنتحب بصمت: «أعانني الله على الأيام الحزينة القادمة».

❖❖❖

ضغطت والدة إلهام على جرس الباب، وسمعت صوت أم قاسم الصارخ، مع بكاء طفل:

- افتحي الباب يا سارة.

- سأفعل يا أمي.

فتحت الباب، وحين رأت أمّ إلهام قالت مرتبكة:

- أهلاً بك يا خالة تفضّلي.

ثمّ صرخت لتعلم من البيت:

- والدة إلهام يا أمّاه.

سمعت صوت طفل يترغل. وأم قاسم تردّد:

- اللّه ما أجمله.

رحّبت بوالدة أم إلهام ببرود:

- أهلاً وسهلاً تفضّلي.

- جئت أودّعكم، سأسافر أنا وإلهام بعد قليل. ما شاء الله ما هذا الصبي الجميل يا أم قاسم؟

- إنه ابن (مزنة) ابنتي، لم يأت ميتاً كابن إلهام.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أرجوك يا أم قاسم أشفقي على المسكينة إنها في وضع نفسي صعب، ما ذنبها إن مات طفلها؟

- لا بأس. أنا أحاول أن أنسى صدّقيني. على كلّ حال سلّمي عليها، وقولي لها لا تتأخّر كثيراً بالعودة.

دخل قاسم، وهو يتكلّم:

- أماه. كيف حال الصبي؟

فوجئ برؤية والدة إلهام، قال مرتبكاً:

- آه أنت هنا؟

قالت أمّه ردّاً على سؤاله عن الطفل:

- إنه بخير يا قاسم. كنت أتمنّى لو كان ولدك، ألا ترين كم يحب ولد أخته، وهو متعلّق به كثيراً، مسكين كان يحلم بطفل.

همست والدة إلهام قريباً من أذن أم قاسم:

- وهذا ما يستدعي أن يحاول من جديد مع إلهام لتحمل من جديد، إنها الحل الوحيد، أرجوك يا أم قاسم ساعدي إلهام. إنها مسكينة يكاد الحزن يقتلها، إنها في مقام ابنتك. أرجوك، حاولي مع قاسم ليعاود سيرته الأولى مع إلهام، إنها في حاجة إليه.

- طيب طيب. قاسم.

نعم يا أماه.

- زوجتك مسافرة، أوصلها وأمّها إلى المحطّة.

- سأفعل يا أمّاه. أمرك.

استغربت أم إلهام علاقة قاسم بأمّه، «إنها تعامله كطفل. وهو يطيعها تماماً»، سألت:

- أين مزنة الآن، لماذا لا أراها؟

- ذهبت إلى السوق لتشتري بعض اللوازم للطفل. أتريدين شيئاً منها؟

- لا. فقد أردتُ أن أودعها. كيف سمحت لها بالذهاب هكذا يا أم قاسم وهي لم تكمل الأربعين يوماً بعد الولادة، إنه وقت حساس. قد تصاب بأذى.

قالت مرتبكة:

- نعم. تصوّري لم يخطر هذا الأمر ببالي أبداً. معك حق. كان من اللازم ألّا أتركها تذهب.

فتح الباب ودخل عامر زوج مزنة:

- كيف حالك يا امرأة عمّي. هاتي يدك لأقبلها.

- اللّه يرضى عليك يا عامر.

- إنه طفل جميل فعلاً، لا أصدّق أنه أصبح لديّ طفل بعد هذه السنوات.

- الحمد للّه يا عامر يا بنيّ.

فسّرت الأمر:

- عامر يعيش معنا، إنه كأحد أولادي ترك قريته وأتى ليعيش معنا، إنه يعتني بمزنة كثيراً، لو ترينه هنا، إنه يقوم بعمل كلّ شيء. وأبو قاسم متعلّق به كثيراً.

سألها:

- أين مزنة يا امرأة عمّي؟

- في السوق، تشتري بعض اللوازم للطفل. إن كنت جائعاً، الطعام جاهز.

- لا. لا. سأنتظر مزنة، أعطني الطفل من فضلك.

انفجر الرضيع يبكي، شعرت أمّ إلهام بالألم لمنظره، سألت:

- وماذا أطلقتم عليه من تسمية؟

- سمّيناه إبراهيم، على اسم زوجي.

- اسم جميل، ما شاء اللّه.

نهضت تستأذن:

- هيا يا قاسم يا بنيّ، لنذهب.

قالت أم قاسم مسايرة:

- مع السلامة. وأتمنّى لك التوفيق في سفرك.

كانت والدة إلهام شاردة تفكّر بابنتها وعلاقتها مع عائلة زوجها. وشعرت أن أم قاسم تخفي شيئاً، وأن هناك أسراراً لها علاقة بإلهام.

كان قاسم يتصرّف كآلة تجاه والدته، يطيعها في كلّ شيء، دون أن يناقش وكان أمر إهماله لإلهام يعذّبها كثيراً، كانت تصطحب ابنتها إلهام إلى المدينة البعيدة وهي غير مطمئنة إلى وضعها مع عائلة زوجها.

ورغم أن قاسم حاول أن يعيد الابتسامة إلى إلهام وهو يودّعهما في المحطّة، كانت الأم تشعر بالانقباض في صدرها. وهي تدعو في سرّها أن يعيد اللّه سبحانه وتعالى علاقة ابنتها مع زوجها إلى وضعها السابق. وفي بيت أهل قاسم كانت الأمور تسير بشكل آخر:

- هذا ما حصل يا أبا قاسم.

- إذن، حلّت المشكلة بهدوء وبتكلفة بسيطة.

- نعم. وظلّت مغلقة على عدد صغير هو الذي يعرف السر.

كان الطفل يبكي من جديد دون توقّف، وأبو قاسم يحمله قال:

- لا أعرف ما أفعل به؟

- ربّما يحتاج لتغيير ملابسه، أعطني. انظر إليه يا إبراهيم، إنها حفيدك إبراهيم. ألا ترى ما أجمله.

- وكيف استقبلته مزنة؟

- استقبلته بخوف في البداية، ثم بدأت تعتاد عليه. مسكينة.

- بعد سنوات من ولادة الأجنّة الميّتة؟ إنها سعيدة بالطبع.

- يمكن لإلهام أن تنجب الكثير من الأولاد.

- هذا ما سأحاول إقناع قاسم به، ليعيد علاقته معها لتحمل من جديد. انظر إليه لقد هدأ.

قال عامر:

- أحتاج لوقت طويل لأتدرّب على العناية به.

حمله عامر من جديد فعاد إلى البكاء، قالت أم قاسم ضاحكة:

- إنه لا يحبّك كثيراً يا عامر. كأنك لست والده.

ردّ مجاملاً وهو يضحك:

- سيعتاد عليّ. لا تقلقي.

❖❖❖

وهكذا قضت إلهام عدّة أيام بين أهلها، حتى حضر قاسم من جديد لاصطحابها.

كانت نفسيته متغيّرة معها أظهر لها الكثير من المحبّة والمودة. وهكذا عادت معه من جديد.

❖❖❖

بدأت أيامٌ أخرى من الرعب والأسرار. قال لها يوماً مغيّراً من طبيعته بعد شهر من إظهاره لها الحب:

- أنا آسف يا حبيبتي، قد أتأخّر اليوم.

- وعدتني يا قاسم أنك لن تتأخّر. ستأتي إليّ دائماً مبكّراً.

- إنه العمل يا إلهام أرجوك.

- ولكن يا قاسم.

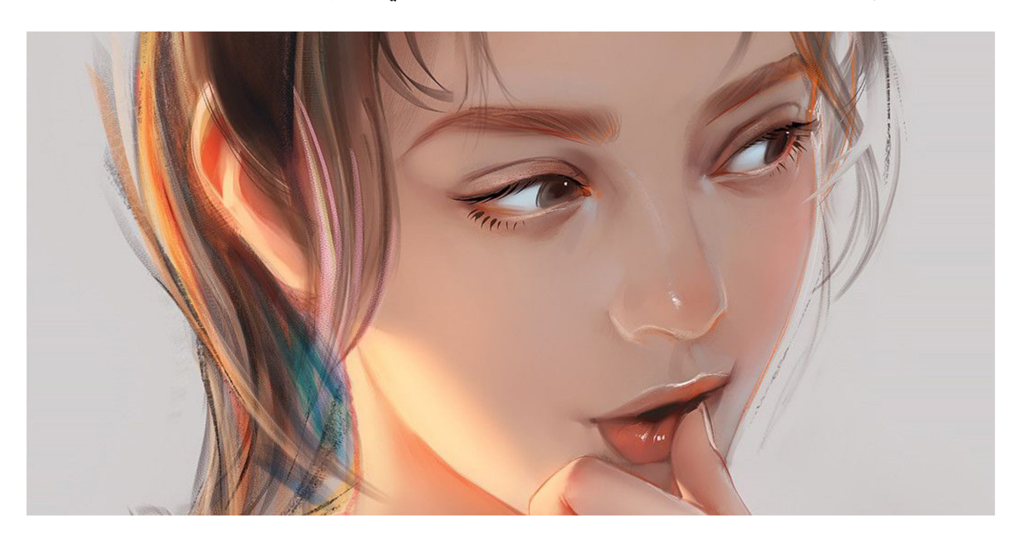
- لن أتأخّر كثيراً يا حبيبتي، بإمكانك الذهاب إلى أهلي إن شعرت بالملل. هه؟

فكّرت: «سيعود إلى سيرته الأولى، وسأعود لحالة الوحدة والكآبة. آه يا إلهي، سأزور أهله الآن والليل في أوّله قد يستغربون زيارتي؟ ربّما ما زالت أم قاسم متضايقة منّي. جهّزت نفسها وانطلقت صوب بيت أهل زوجها، وصلت خلال فترة قصيرة، وضغطت على جرس الباب، فتح لها عامر، استغرب وجودها:

- أهذا أنت؟ أهلاً وسهلاً. تفضّلي.

- كيف حالك يا أستاذ عامر؟

- ادخلي، إنهم يجلسون في الغرفة الخلفية.



طرقت باب الغرفة ودخلت، فوجئت أم قاسم:

– إلهام؟ بعد زمان. هل نسيت أننا أهل؟

– لا. أبداً. ولكن.

– أعلم أن الوضع كان مزعجاً لك. ولكن هذه هي إرادة الله.

كانت مزنة تحمل الطفل:

– أمي. لا أعرف كيف أجعله يتجشّأ.

– طبطبي على ظهره قليلاً.

نظرت إلى الطفل شعرت بقلبها ينخلع، يا إلهي، إنه يشبه كثيراً طفلها الذي مات. قالت أم قاسم منزعجة:

– ما بك يا إلهام تتفرّسين في الطفل. أعوذ بالله. ومن شرّ حاسد إذا حسد، ومن شرّ حاسد إذا حسد. أليس من المعيب عليك أن تحسدي (مزنة) على هذا الطفل؟

قالت مندهشة:

– أنا أحسدها؟ أعوذ بالله.

– ادخلي الطفل يا مزنة. مدّديه في سريره لينام إنه ناعس.

– سأفعل يا أمي.

شعرت إلهام بالانقباض ولم تستطع البقاء طويلاً في بيت أهل قاسم، فعادت إلى بيتها الذي لا يفصلها عنه سوى مسافة قليلة.

كانت حزينة متألّمة وقد لحظت أن أم قاسم وبناتها لا يكترثن بها ولا يعاملنها باهتمام كما كنّ يفعلن أيام حملها. وهي تتأهّب لفتح باب البيت سمعت صوتاً وراءها:

– انتظري يا إلهام. سأدخل البيت معك.

– يا إلهي إنها الجدّة. آه يا جدّتي منذ زمن طويل لم أرك.

– لا بأس. ها قد جئت إليك خصّيصاً، سأقضي معك وقتاً أطول يا ابنتي.

– أهلاً بك يا جدّتي. أنا في حاجة لمن أقضي الوقت معه.

كانت الجدّة تتمتم: «مسكينة، لا تعرف ماذا يجري في الخفاء حولها».

قالت لها ملاطفة:

– بيتك نظيف ومرتّب كالعادة. ألم يحن وقت عودة زوجك؟

– آه يا جدّتي. إنه يتأخّر في العودة كثيراً. عاد إلى سيرته السابقة. رغم أنه وعدني بفتح صفحة جديدة في حياته، يهتمُ فيها بحياته بالدرجة الأولى، ولا يتركني وحيدة معزولة، ولكنه مع الأسف.

قاطعتها:

– لم يفِ بوعده. لديك مهمّة كبيرة، بالنسبة لأهله.

يا إلهي من الصعب أن تحكي لها القصّة، وتفسّرها لها، قالت مشجّعة:

– أعانك الله يا ابنتي.

بدأت تنتحب بصمت، ثمّ غمغمت وهي تشرق بالدمع:

– مررتُ بظرف عصيب يا جدّتي. فقدتُ ولدي لحظة ولادته، قيل لي إنه أصيب بذبحة صدرية. يا إلهي كان طفلاً جميلاً صحيح البدن كيف حدث وأصيب بتلك الذبحة؟ لا أستطيع أن أصدق الأمر!.

– معك حق يا ابنتي.

– هل أجهّز لك كأساً من الشاي؟

– لا. لا أريد شَيئاً، اسمعي يا إلهام، أتحبّين (قاسم)؟

– نعم يا جدّتي، رغم أنني أعتب عليه أحياناً، فهو لا يكترث بي كثيراً، وأشعر أنه أحياناً يعاملني كقطعة من الأثاث. آه. ربّما كانت ظروف عمله معقّدة، لدرجة أنه ينساني أحياناً في زحمة الأفكار والوساوس.

وماذا ستقول لها؟ إنه موضوع لا يصدّق. لحظت إلهام شرودها:

– تبدين شاردة؟ أتفكّرين بوضعي البائس.

– آه. بالطبع أنت كلّ ما يشغل فكري.

– رغم أنني لا أعرف عنك شيئاً، إلا أنني أشعر أنك قريبة مني، تحملين همّي ومتاعبي، لا أدري ما أقول لك. كلّ شيء في حياتي يبدو في غير مكانه الصحيح.

– تتحمّلين القسط الأكبر من ذلك. لم تكوني واعية لما يجري حولك.

– كيف؟ أوضحي لي الأمر أرجوك.

– لا أستطيع أن أحكي شيئاً، فقط أريد منك أن تنتبهي لحياتك، وتميّزي بين الناس، ولا تتصرّفي تجاه أي حدث مهما كان خطيراً بسلبية مطلقة كما تفعلين.

فكّرت إلهام متوتّرة: «إنها تعرف كلّ شيء، ولا تريد أن تتكلّم». ثم بكت متوسّلة:

– أرجوك أيتها الجدّة قولي لي ماذا أفعل؟

– اهدئي يا ابنتي، لا داعي للبكاء. كوني حذرة حتى من أقرب الناس إليك، وثقي باللّه سبحانه وتعالى، واطلبي منه الصفح والعون. أنت تعيشين وحيدة وحياتك متعبة مخيفة، الإيمان باللّه سينقذك.

– ونعم باللّه يا جدّتي. سأجهّز الشاي بسرعة.

«مسكينة هي ضائعة تحتاج لمن يقودها لبرّ الأمان»..

حين عادت إلهام لم ترَ الجدّة، فبدأت تبكي:

– جدّتي، أين أنت؟ يا إلهي لقد ذهبت ولم تنتظر أن تفسّر لي ما يحدث. ليتها تعيش معي هنا، تسلّيني وتؤنس وحدتي، أنا متأكّدة أن قاسم لن يمانع.

بعد أسابيع بدأت إلهام تشعر بأعراض الحمل، وأسرّت لقاسم، فأظهر سعادته وفرحه في حين أخبر أهله بحملها، زارتها والدته.

كانت زيارة قصيرة، طلبت فيها من إلهام الانتباه لنفسها، حتى لا يموت الجنين فيما بعد:

– أرجو ألّا يكون ذلك مرضاً يؤثّر على الجنين فيميته لحظة الولادة.

– ولكن الطفل كان ذا صحّة جيدة حين ولادته، وأكدّ لي ذلك الطبيب ولم يخبرني أنني مصابة بمرض يقتل أطفالي بعد ولادتهم.

– ربّما لم يرغب في إتعاسك.

– سأذهب إليه، وأتأكّد من الأمر.

– في رأيي راجعي طبيباً آخر، إنه أحد معارفنا، طبيب ممتاز وسيساعدك كثيراً. سأرسل سارة لتصحبك إليه هذا المساء، ما رأيك؟

– لا بأس يا عمّتي سأفعل.

– إن شاء اللّه تكون حالتك طبيعية، وتنجبين لنا الكثير من الذكور والإناث.

– شكراً لك يا عمّتي.

– أنا ذاهبة، تعالي إلينا كل يوم. لا تجلسي وحدك هكذا.

– الحمل يتعبني، ويفرض عليّ الابتعاد عن الضجة والصخب. وبيتكم يقع على مفرق

شارعين، إنه صاخب أحياناً.

- يجب أن تعتادي على هذه الأجواء. لا نستطيع أن نغيّر بيتنا من أجلك.

- آسفة. لم أقصد إغضابك.

- لا بأس.

خرجت أم قاسم، وإلهام تتمتم مع نفسها: «أشعر أنها لا تحبّني. يا إلهي، أعنّي».

سمعت حركة في البيت:

«يبدو أن (قاسم) قد عاد مبكّراً اليوم. الحمد للّه. سأجهّز له الطعام»، سارعت ترتّب السفرة وتجهّز الطعام، بحثت عن قاسم، لم تره اعتقدت أنّه في الحمّام، ثم سمعت صوت الباب ينغلق:

«قاسم عاد إلى عمله. ولم يقل كلمة لي كأنّني قطعة أثاث، آه. كنتُ أتمنّى لو يقضي بقية اليوم معي، ولكن يبدو أنه لا فائدة من تمنياتي».

سهت لبعض الوقت وسط كوابيسها المتكرّرة، ثم صحت على رنين الهاتف، رفعت السمّاعة:

- أنا سارة يا إلهام، جهّزي نفسك، سأمر بعد ربع ساعة لاصطحابك إلى الطبيب.

- أليس الوقت مبكّراً على ذلك.

- لا تقلقي إنه قريبنا، نستطيع مراجعته في أي وقت.

- طيّب. سأكون جاهزة خلال ربع ساعة.

❖❖❖

قال الطبيب بعد معاينتها:

- كلّ شيء يبدو طبيعياً، لا يمكننا الآن أن نعرف إن كانت هناك علّة أم لا.

- ولكن الطفل كان سليماً بعد الولادة، ربما حدث له شيء في الحاضنة، ولم ينتبه إليه أحد.

- لا يمكننا الحكم الآن، تحتاجين لفحوص دورية مستمرّة حتى نكتشف السر. يجب أن تأتي للفحص هنا، كل عشرة أيام.

- سأفعل يا دكتور سامي. هه أتريد منّي أن آخذ بعض الأدوية أو المقوّيات؟

- ليس الآن. في المرّة القادمة قد أكتب لك بعض الوصفات.

- شكراً لك يا دكتور.

وهي ترتّب ثوبها مستعدّة للخروج قال لها:

- سارة ما زالت تنتظر في الخارج، قولي لي إنني أحتاجها لدقائق.

- سأقول لها يا دكتور.

خرجت وهمست لسارة:

- يريد الدكتور سامي أن يراك.

- أنا قادمة حالاً.

دخلت سارة وطالت غيبتها، ثم خرجت وسط قلق إلهام، سألتها:

- أهناك ما أخفاه الدكتور سامي عنّي؟

- لا تقلقي، طلب منّي الاهتمام بمزنة، هي حامل أيضاً.

- مزنة حامل، لا بأس. أرجو لها التوفيق.

وكلما اقترب موعد الوضع كانت إلهام تزداد رعباً وخوفاً وفي شهرها السابع وكان ذلك في شهر آب 1990، قرّرت إلهام أن تزور طبيبها الأول.

كانت حالات العزلة والإحساس بالكآبة قد عادت إليها، وكانت لا ترى قاسم سوى لدقائق في اليوم، كان يحضر في آخر الليل، وهو يجرجر قدميه من التعب وينام بعمق ثم يستيقظ في الصباح ويذهب. دون أن تراه أحياناً.

وهكذا جهّزت نفسها صباح ذلك اليوم الحار للذهاب إلى طبيبها، وقد تمنّت لو أن لديها صديقة قريبة منها تتكئ عليها في همومها ومتاعبها. صديقة تواسيها وتخفّف عنها. خرجت من البيت تمشي بهدوء على رصيف الشارع، وهي شاردة في عذاباتها الخاصة.

«قد أعثر على سيارة أجرة في المنعطف القريب، يجب أن أكون حذرة»!.

سمعت صوتاً خلفها:

– هل أستطيع مرافقتك يا ابنتي؟

التفتت مبهورة:

– أنت أيتها الجدّة الطيبة. لقد أرسلك الله سبحانه وتعالى. أنا ذاهبة لاستشارة الطبيب حول عملي.

– اتكئي عليَّ يا ابنتي. سأساعدك.

– لست متعبة إلى هذا الحد، أنا بخير. سنستقل سيارة أجرة. هناك العديد منها يقف هناك.

– لا بأس. أعطني يدك.

قال لها الطبيب بعد أن عاينها:

– حالتك جيدة يا سيدة إلهام، لا تقلقي، ولكن لماذا لم تراجعيني حتى الآن؟

– آه. إنني أراجع الدكتور سامي قريب زوجي قاسم.

– الدكتور سامي؟ معقول؟ إنه ليس اختصاصياً.

– ماذا تقول يا دكتور؟

– إنه طبيب عام ليس مختصاً بالتوليد وأمراض النساء، على كلّ حال سأتكلّم مع قاسم في هذا الموضوع.

– لا يا دكتور، أرجوك، لا داعي لذلك، ربّما غضبوا منّي، جئت إليك دون معرفتهم.

– لا بأس، هذه العجوز؟ قريبتك؟

– أنا آسفة يا بني، يسمّونني الجدّة. هي في مقام حفيدتي. وأحبّها كثيراً ولن أتركها في بحر الهموم والمتاعب.

– آسف يا خالة، لم أقصد شيئاً، فقط استغربت وجودك مع السيدة إلهام.

– لن أتركها وحيدة بعد الآن. أرجوك ساعدها يا دكتور.

– سأحاول يا خالة.

فكّر مستغرباً:

«ما الذي جعلهم يبعدوها عن أن تكون تحت إشرافي الطبي».

قال وهو يودّعهما:

– ابقي على اتصال معي يا سيدة إلهام، لن أتأخّر في مساعدتك. سآخذ بعض العيّنات من دمك لتحليلها في المخبر. اجلسي هنا.

تمتمت الجدّة: «أعانك الله يا ابنتي».

❖❖❖

مع بداية شهر تشرين الأول عام 1990 بدأت إلهام تشعر بأعراض المخاض. وكانت أمّها قد حضرت لمساعدتها، كما كان قاسم غائباً كالعادة.

اتصلت بالطبيب تستشيره في مكان ولادتها، وقد أكّد أهل قاسم أن ولادتها ستكون في المشفى الذي ولدت فيه لأول مرّة. فلم يجد الطبيب مانعاً من توجّهها نحو المشفى المذكور، وهكذا نقلتها والدتها دون أن تبلغ أهل قاسم بذلك.

وفي المشفى فوجئت الأم بالدكتور سامي يقودها إلى غرفة الولادة مع طبيب شاب يتابع

دراسته العليا في التوليد وأمراض النساء، قال للأمّ:

- لا تقلقي يا سيدتي، إلهام ستكون بخير. ابقي هنا في انتظارها.

- سأبقى بالطبع. أرجوك يا دكتور انتبه لها وانتبه للطفل.

- لا تقلقي.

استقبلت إحدى الممرضات مزنة، ومعها عامر، وهي تقول:

- غرفتها جاهزة يا أستاذ عامر. إنها في هذا الاتجاه.

تمتمت وهي تشعر أنّه يشدّ على يدها محذّراً:

- أعرف كيف أتصرّف.

جاءت أم قاسم ورأت أم إلهام تجلس متوتّرة قلقة فقالت بوقاحة:

- أنت هنا؟ هه. أرجو ألّا تلد إلهام ولداً ميتاً كالعادة.

شعرت كأنّ سكيناً ينغرز في قلبها وهي تسمع كلماتها القاسية. وتابعت تقول بالوتيرة نفسها:

- ستلد مزنة أيضاً، وسترين كم سيكون مولودها جميلاً.

- إن شاء الله بالخير والسلامة، هي وإلهام.

قالت مزنة وهي تتجه صوب غرفة الولادة الثانية المجاورة للغرفة التي ستلد فيها إلهام:

- هيئي لي الغرفة يا آنسة.

- إنها جاهزة يا سيدة مزنة.

قالت أم قاسم:

- يقول الدكتور أن ولادتها ستكون خلال ساعات.

- بالسلامة إن شاء الله.

قال عامر:

- استندي علي يا مزنة.

قالت أم قاسم باستعلاء:

- سأظل قربك يا مزنة. ألم يحضر قاسم بعد؟

قالت الممرّضة:

- لا يا سيدة أم قاسم.

- هذا أفضل، قد يفاجأ أيضاً بولده الميت، أعانه الله.

قالت أم إلهام بغضب:

- لا داعي لهذه القسوة يا أم قاسم. إلهام ليست مريضة.

- هه. سنرى.

دخلوا الغرفة المخصّصة لمزنة، والأم تمسح دموعها، مذهولة:

«أعانك الله يا إلهام على هؤلاء الناس»!

حضر الطبيب، سأل الأمّ:

- كيف حال إلهام؟

- إنها في الداخل، يشرف الدكتور سامي على ولادتها.

- الدكتور سامي، معقول؟

قال بغضب مخاطباً الممرّضة:

- اسمعي يا آنسة.

- نعم يا دكتور.

- ساعديني في ارتداء الملابس المعقّمة سأدخل بسرعة.

- ولكن الدكتور سامي طلب عدم ازعاجه، إنه في الداخل مع الدكتور ماهر طبيب الدراسات العليا. أخذ إذناً من مدير المستشفى.

- أنا أتحمّل المسؤولية لا تقلقي.

ارتدى الثياب المعقّمة وجهّز نفسه للدخول، والممرّضة ترتجف، وفي غرفة الولادة:

- اتركني أتكفّل بالأمر يا دكتور سامي، هيا يا سيدة إلهام. هيّا.

- آه. يا إلهي.

دقائق قليلة وخرج الوليد:

- الحمد للّه على السلامة. إنه صبي أيضاً. اغسله يا دكتور ماهر.

قالت إلهام خائفة:

- طمئني يا دكتور، هل هو حي؟

قال سامي:

- حتى الآن نعم. سنرى ما يمكن أن يحدث، سنراقبه جيداً.

قال ماهر مستغرباً:

- إنه بصحّة جيدة، لماذا هي خائفة عليه؟

- ولدت طفلاً ميتاً من قبل.

ولكنّ طبيبها دخل فجأة:

- حمداً للّه على سلامتك. أرني الطفل يا دكتور سامي.

قال سامي مرعوباً:

- كيف دخلت إلى هنا يا دكتور؟

- جئت للاطمئنان على السيدة إلهام، رجتني أمّها.

- د.ماهر قام بعمله جيداً.

- يبدو طفلاً سليماً. ضعه هنا يا دكتور ماهر، سأفحصه.

- دعهم يأخذونه إلى الحاضنة قد يصاب بضرر.

- لا تخف يا دكتور سامي، أنا أعرف عملي جيداً.

عاد سامي يلحّ:

- يجب ألّا يتأخّر على الحاضنة.

قالت الممرّضة المساعدة:

- هل ألفّه بالقماط الآن؟

قال الطبيب:

- نعم. إنه بخير وصحة جيدة، وزنه ثلاثة كيلو غرامات و800 غرام.

غمغمت إلهام وهي تبكي وتقول بصوت خافت:

- إنه في رعايتك يا دكتور.

- لا تخافي.

عادت الممرّضة تستفسر:

- هل آخذه إلى الحاضنة يا دكتور؟

قال الطبيب متسائلاً بسخريّة:

- ما رأيك يا دكتور سامي؟

- لا بأس. خذيه.

- سأرافقك. تعالي.

خرجت الممرّضة وهي تحمل الولد اندفعت إليه أم إلهام:

- إنه حفيدي. الحمد للّه، إنّه بصحّة جيّدة.

همس قائلاً:

- لا تقلقي. سنأخذه إلى الحاضنة سيعتنون به جيداً هناك.

- أنا خائفة يا دكتور.

- اطمئني سيكون بخير بإذن اللّه.

- وكيف حال إلهام؟

- نائمة الآن، ولادتها كانت طبيعية لا خوف عليها.

- يا رب سترك وعفوك، يا كريم.

❖❖❖

قال سامي مبتسماً:

- الأمور تسير بشكل عادي يا أم قاسم لا

تقلقي.

– والبديل أصبح جاهزاً؟

– نعم. ستقتل المسكينة نفسها إن عرفت الخبر.

– خبر موت رضيعها؟ هه. لو طلّقها ولدي الآن لكان له العذر الكافي.

– لماذا تكرهينها إلى هذا الحد يا خالتي؟

– إنها مترفّعة متكبّرة، أرادت أن تبعد ولدي عنّي، كلّ بناتي وأزواجهن يطيعونني في كلّ شيء، إلا هي، دائماً منعزلة، بعيدة عنّا.

– ربّما ترغب بالاستقلال في بيتها هي وزوجها؟

– من المستحيل أن أرضى أن يبتعد عنّي ابني قاسم، إنه يطيعني في كلّ شيء وما أقوله ينفّذه بالحرف، هكذا ربّيت أولادي. مسكينة (مزنة) ابتلاها الله بهذا المرض الصعب، إنجاب الأطفال الذين يموتون فور ولادتهم. كيف لي أن أنقذها إلا بهذه الطريقة.

– ولكنك تقتلين إلهام بهذا العمل؟

– لا يهمّني، لو كانت مطيعة لي، لم تسبّب الأذى لنفسها. هي المسؤولة عن ذلك. هه؟

– والله يا خالتي أنا خائف. قد يكتشف هذا الطبيب الفضولي الأمر؟ إنه عمل إجرامي كما تعلمين.

– عمل إجرامي؟ إنه حفيدي، وسأربّيه بنفسي، أنا لا أقتله.

وفجأة ظهرت الجدّة، كانت تقول متسائلة:

– أين تلك المرأة المجنونة؟

اعترضها عامر:

– إلى أين، ماذا تفعلين أيتها العجوز؟

– ابتعد عنّي أيها المأفون. أين خبّأتم ولدي؟

قالت أم قاسم:

– من هذه العجوز التي اندفعت كالريح من الباب؟

– انظري إليّ يا أم قاسم؟ دقّقي فيّ جيداً.

– يا إلهي، الشرر ينطلق من عينيها، لم أرك من قبل، من أنت؟

– أنا الجدّة، هكذا يسمّيني الناس.

– الجدّة؟ أنت؟ يا إلهي.

وشوشها عامر بخوف:

– الجدّة، ماذا يعني ذلك؟

– يعني الكثير، إنها قدّيسة متصوّفة تدافع عن الحق، يُقال إن عمرها يزيد عن (مائة عام)

– أين خبأتم الصبي؟

قالت مزنة بخوف:

– أمي، تريد أخذه؟

– انظري إليَّ جيداً أيتها المرأة، ليس منظرك منظر امرأة ولدت حديثاً، هه. لم تكوني حامل إذن؟ هه، كلّ شيء يبدو مدبّراً إذن. أعطني الصبي.

قالت مزنة مرعوبه:

– لا. لا. أمي انظري إليها.

قالت الممرّضة:

– لا. لا. أرجوك لا تلمسيني، لم أفعل شيئاً.

دخل أبو قاسم الذي سمع نتفاً من الحديث، وقال بعد لحظات بهدوء:

– اسمعي أيتها العجوز. كيف علمت بالأمر؟

– أشفقت على المسكينة، كانت تعاني من إهمال هذه لها، ومن إهمال أسرة زوجها، بكلّ أفرادها لها. لماذا؟ لأنّها تريد أن تؤسّس أسرة لها أركانها، وقد نست المسكينة أن زوجها بلا شخصية، بلا حول ولا قوة

أمام هذه الأم المدمّرة. تماماً، كما أنت يا أبا قاسم بلا شخصية وبلا رأي أمامها.

بكت أم قاسم مرعوبة:

– كنت أريد أن ألمّهم حولي أن أعتني بهم أحلُّ مشكلاتهم.

قالت العجوز:

– فسرقت أطفال ابنك وأهديتهم لابنتك التي لا تنجبَ سوى الأطفال الموتى. هه. عملية مريعة مرعبة.

– ولكني لن أدعك تهدمين كلّ شيء بنيته، هه. سأقتلك.

– أنت أيتها الضعيفة الأنانية؟

شعروا أنّ شيئاً خارقاً يحدث من تلك العجوز الغاضبة:

«يا إلهي ماذا أرى، إنها عجوز خارقة، لقد جمدت أم قاسم تماماً. يا إلهي».

صرخت أم قاسم وهي تلهث:

– الحقوا بها قبل أن تدمّرنا.

– أيّتها الأم التي لا تملك قلباً يليق بأمومتها. أقسم باللّه سأدمّرك وكلّ أسرتك إن اقتربت من تلك المسكينة زوجة ابنك.

كانت إلهام تبكي، وقد دخلت إليها أمّها، وهي حزينة وقد أخبرتها الممرّضة المساعدة أنّ الرضيع مات بذبحة أيضاً:

– أترين يا أمّي ولدت طفلاً ميتاً أيضاً؟

– إنه قدرك يا عزيزتي، أعانك اللّه.

دخل الطبيب منشرحا:

– هل رأيت الصبي؟ إنه جميل ممتلئ ما شاء اللّه.

– ولكنه مات، أصيب بذبحة أيضاً، آه يا دكتور.

– مستحيل. ماذا تقولين؟

خرج غاضباً: – سأتأكّد من الأمر.

بدا له الأمر غامضاً غير مقبول، صرخ بالممرّضة المساعدة:

– أنت تعالي إلى هنا؟

– نعم. ماذا تريد يا دكتور؟

– ماذا حدث للصبي، أين السيدة إلهام.

– مسكينة، لقد مات أيضاً، أخرجه أهل زوجها لدفنه.

– ومتى حدث ذلك؟

– قبل وقت قصير.

– مستحيل. أمتأكّدة؟

– كلّ شيء وفق الأصول والقوانين.

– وماذا حدث له؟

– نوع من الذبحة كالطفل الأول تماماً.

– تتذكّرين ما حدث للطفل الأول إذن؟

– نعم. حالة غير عادية لا تنسى.

«لستُ مطمئنّاً لما يحدث، ماذا أفعل الآن»؟

سأل ممرّضة تعمل في الحاضنة:

– يا آنسة هل كنت موجودة حين مات الرضيع، ابن السيدة إلهام؟

– لا يا دكتور، ولكنه مات بسرعة وأخرج من المستشفى بسرعة غريبة. يعني خلال نصف ساعة.

– ألم يفكّر أحد بإسعافه؟

– كان هناك الدكتور سامي وحده. هو الذي أكّد الوفاة.

خرج مرعوباً، سمع صوتاً خلفه:

– دكتور أنا آسف.

– ماذا يا حسن؟ خير؟

– أنا أعمل هنا منذ (20) عاماً، لم أرّ مثل

هذه الحادثة من قبل.

- ماذا حدث يا حسن. أخبرني.

- أبدلوا الطفل بطفل ميت من (البراد)، لم يرني أحد وأنا أراقبهم إنهم نفس عائلة زوجها. آه. مسكينة تلك السيدة كم كانت تبكي حين عرفت أنها ولدت طفلاً مات.

- ألم تخبر أحداً بذلك؟ ولم تخبرني بالذات؟

- تلك الممرّضة الكهلة قامت بالعملية بهدوء، ويبدو أنها قبضت مبلغاً محترماً. لو تحدّثت بما رأيت لقام زبانيتها بقتلي، تعلم كم هي قاسية؟

- نعم. لا أحد يستطيع التأثير على مركزها حتى مدير المشفى.

- ولكن هذا يبدو عملاً إجرامياً لا يمكن السكوت عنه. أنا خائف.

- لا تقلق. السكوت عن الحق جريمة.

سأل عن سامي، بعض المناوبين:

- لا يا سيدي لم أرَ الدكتور سامي. لماذا تسأل عنه؟

- أريد رؤيته لأمر مهم.

- ربّما يقضي الوقت بين أقربائه. بيتهم ليس بعيداً عن هنا، سأدلّك عليه.

- شكراً لك.

لم يضع وقته فذهب سريعاً إلى العنوان الذي ذكره المناوب، ضغط على جرس الباب ففتحه عامر:

- أسأل عن الدكتور سامي.

- ومن قال لك أنه هنا؟

- أرجوك أعرف أنه هنا، أريد رؤيته لأمر مهم. أرجوك.

- حسناً، سأخبره.

خلال لحظات ظهر الدكتور سامي، الذي بدا مدهوشاً مرتبكاً:

- أنت يا دكتور خير؟ ماذا تريد؟

- هل لك علاقة بما يحدث يا دكتور سامي، أرجوك قل لي؟

- ماذا. ماذا تعني؟

- أنت تفهم ما أعنيه. مع الأسف عرفت كلّ شيء. أين الطفل الآن؟ قل لي.

- أرجوك يا دكتور انتظر هنا، سأعود واشرح لك كلّ شيء.

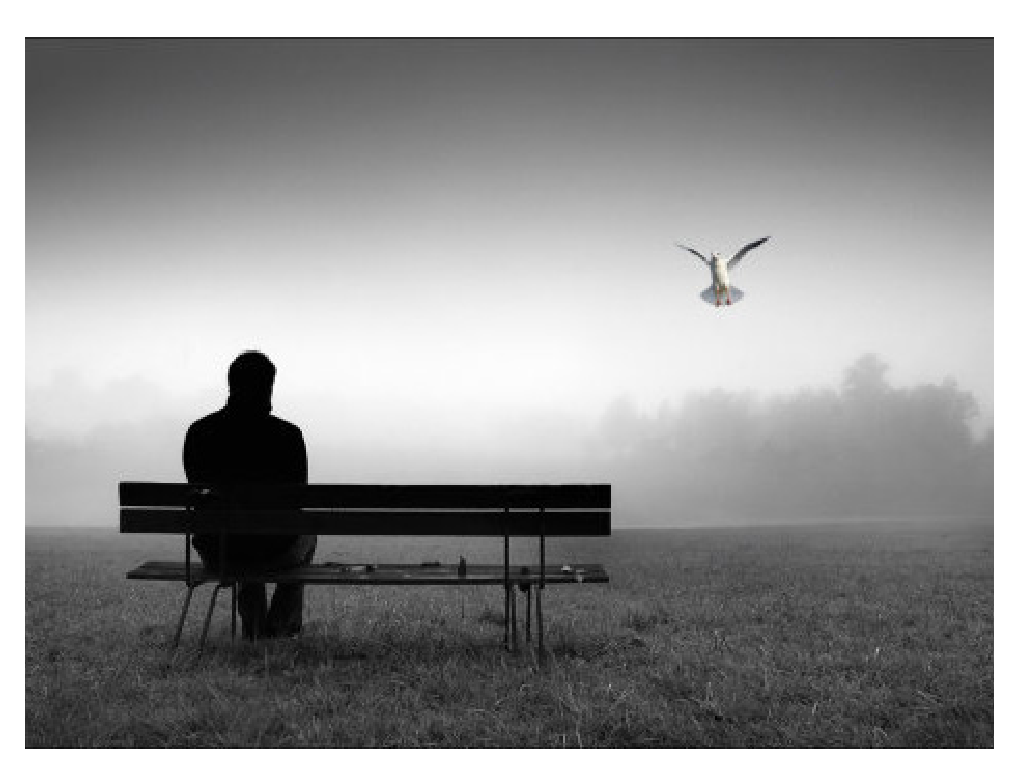
❖❖❖

كانت الجدّة العجوز قد أعادت، الرضيع لأمّه. دون أن تخبرها بما حدث بالتفصيل، أخبرتها فقط أن خطأ حدث في أسرّة الأطفال. كما أخبر الدكتور سامي، الطبيب المختص بكلّ شيء، وشرح له ظروف وملابسات الحادث.

ورغم أن إلهام لم تعرف أن أهل زوجها كانوا متّفقين على إعطاء الرضيع (لمزنة) إلّا أنها بدأت تشعر بكراهيتهم نحوها، وتغيّر قاسم تجاهها، حتى طلّقها عام 1993 بعد حياة صعبة عانتها في بيته.

ولم يعرف سوى العدد القليل ممن لهم علاقة بتلك العائلة، أن ابن (مزنة) نفسه الذي يكبر أخاه بنحو سنة ونصف، يعيش بعيداً عن أمّه الحقيقية دون أن تعرف بوجوده أصلاً.

وظلّ الدكتور سامي يحتفظ بالسر، وهو يعاني الأحلام والكوابيس، لفترة طويلة، أما الجدّة العجوز، فكانت تتردّد أحياناً على إلهام في مدينتها البعيدة عن العاصمة، وتشدّ من أزرها وهي تعتني بولدها الذي كبر تحت عنايتها وعناية أمّها ورعايتها.



مغامرات ممثِلٍ طوّاف

Adventures Of A Strolling Player

أوليفر غولد سميث* - ترجمة: حسين سنبلي

أنا شديد الكلف باللهو متى وجدته، وإنَّ النادرة البارعة ولو كانت باردةً لحبيبة إلى نفسي. ذهبت منذ بضعة أيام إلى متنزّه سانت جيمس في الوقت الَّذي يتركه زائروه لتناول العشاء. ولم يكن هناك سوى أناس قلائل ممن كانت تبدو على ملامحهم آثار الفقر والمسغبة، فقعدتُ على أحد المقاعد، في حين قعد على الطرف الآخر من المعقد رجل في ثياب رثَّة جداً.

ظللنا نهمهمُ ونغمغمُ ونسعلُ كما هي العادة في مثل هذه الحالة، وأخيراً اجترأتُ على الكلام مخاطباً إياه: «معذرة يا صاحبي! ولكن يخيّل إليَّ أنّي رأيتكَ من قبل؛ فملامح وجهك ليست غريبة عنّي».

فأجابني قائلاً: «أصبت يا أخي كبد الحقيقة! إنَّ وجهي لا يكاد يجهله أحد، كما يزعم أصدقائي، وإنَّ شهرتي في جميع أنحاء إنكلترا لا تقل عن شهرة الجمال والتماسيح. ولا يخفى عليك يا سيدي بأني كنت طوال الست عشرة سنة الأخيرة، أقوم بدور البهلول في فرقة تمثيلية، ولقد نشب بيني وبين أستاذي خلاف افترقنا على أثره، فراح هو ليبيع أشياءه في شارع روزماري، وأنا جئت لأموت جوعاً في متنزّه سانت جيمس».

فقلتُ: «يؤسفني جداً يا سيدي أنك تعاني كلّ هذا الضيق! وأنتَ على ما أنت عليه من نباهة الذكر وذيوع الصيت».

فردَّ عليّ مواصلاً الحديث: «نباهتي في خدمتك يا مولاي، ولكني مملقٌ متربٌ، وإن ثمّة قليلاً من الناس هم أمرح مني نفساً، فلو قدّر أن يكون لي عشرون ألفاً من الدنانير لكنت من أسعد الناس. وأنا الآن، والحمد للمقادير! لا أملك فلساً واحداً، ولا سارحة لي ولا رائحة، ومع هذا، فإني لا أزال سعيداً، ذلك لأنّي لا أقيم وزناً للمال، فهو عندي وسيلة لا غايةً، فإذا ما حرمته لا أجد غضاضة من قبول دعوة الكرماء إياي للطعام. والآن ما رأيك يا سيدي في لحم طريٍّ مع قدح من الشراب؟ فإن أنت أطعمتني اليوم، فلسوف أطعمكَ يوماً من الأيام عندما أجدك في المتنزّه وأنت أشدّ ما تكون رغبة في الطعام، وليس لديك من المال ما تدفع به ثمن العشاء..

ولمَّا كنتُ لا أبخل أبداً بدريهمات أنفقها في سبيل رفيق طروب قصدنا توّاً حانة مجاورة، ولم تمضِ سوى دقائق معدودات حتَّى كان الطعام والشراب على المائدة أمامنا. وإنه لمن العسير جداً أن أصف مبلغ طربه وانشراحه لرؤية الطعام والشراب فقال: «أنا استمرئ يا سيدي هذا العشاء لأسباب ثلاثة: أوّلاً: لأنّي أحبُ لحم البقر؛ وثانياً: لأني جوعان؛ وثالثاً: لأنّي أحصل عليه بلا ثمن؛ إذ ليس هناك أشهى من اللحم الَّذي لا ندفع ثمنه!».

ولم ينته من كلامه هذا حتَّى أقبل على الطعام والشراب بنهم فائق، فلمَّا انتهى العشاء أشار إلى أن اللحم كان نيئاً، ثمَّ استطرد وقال: «ومع هذا فقد وجدته لذيذاً سائغاً، ما أفسح حياة الفقير وما أعظم شهيته! نحن معشر الشحاذين لقطاء الطبيعة نهيم في كلّ سرح، ونأخذ الحياة على علاّتها، فإن هي أقبلت علينا فرحنا بها واغتبطنا، وإن هي أدبرت عنّا لم نشتك ولم نتذمّر. أمَّا الأغنياء، فالطبيعة تعاملهم كما تعامل الخالة أولاد زوجها، فهم أبداً يرمون بها ساخطون عليها، أعطهم قطعة من غريض اللحم، فإذا هي عندهم صلبة عسيرة الهضم، أمزجها بالتوابل، حتَّى التوابل لا تستطيع أن تشحذ شهيتهم، على حين أن الطبيعة شديدة الحدب على الشحاذين ترعاهم بعنايتها وتكلؤهم برحمتها. إن الخمر المعتّقة لأحلى مذاقاً من جميع الأشربة.. السرور! السرور! تلك هي فلسفتي في الحياة، وهي قطعة من لحمي ودمي،

فإن فاض النهر وغرقت نصف أراضي كورنول ألفيتني مطمئنّ النفس مرتاح البال، إذ ليس لي أملاك هناك، وإن ساءت أحوال السوق وتدهورت الأسعار نمتُ ملء جفوني، فما أنا ممن تهمّهم هذه الأمور؛ إذْ لست يهودياً».

فأغراني مرحه وخفّة روحه على فقره المدقع أن أعرف شيئاً من حياته؛ فقلتُ ملتمساً منه تلبية طلبي، فأجاب: «بكل سرور يا مولاي! ولكن على شريطة أن نشرب قليلاً لندفع عن أعيننا النعاس. لنشرب قدحاً آخر قبل أن يهجم الكرى على أجفاننا ... آه! ما أجمل منظر القدح وهو ملآن! يجب أن تعلم إذن أني أنحدر من أرومة طيبة، وأنَّ أسلافي قد أحدثوا بعض الضجّة في العالم، ذلك لأن أمي كانت تبيع المحار، وأن أبي كان طبَّالاً، وقيل لي إنه كان في عائلتي أيضاً بعض البوَّاقينَ.. فهل تراني بعد هذا مبالغاً إذا قلتُ إن قليلاً من الأشراف يضاهونني في الحسب والنسب؟ ولمَّا كنتُ الابن الوحيد لوالدي فقد أرادني أن أكون طبَّالاً مثله، ومع ما كان يبذله معي الوقت والأناة، لتعليمي الأناشيد العسكرية، لم أتقدَّم خطوةً واحدةً، ذلك لأني لم أكن ميّالاً إلى الموسيقا، فانخرطتُ في الجيش وأنا في الخامسة عشرة من عمري، ولم ينقض يومٌ واحدٌ حتَّى تبيّن لي أن كراهيتي لحمل البَندقية لم تكن لتقلّ عن كراهيتي لدقّ الطبل؛ ذلك لأن الطبيعة أعدّتني لأكون سيّداً لا مسوداً.. إن وجودي في الجيش يحتّم عليَّ إطاعة أوامر رئيسي الَّتي يفرضها عليَّ، وليست أوامره إلَّا ظلاًّ لأهوائه ورغباته، وإنه لمن الأجدى على الشخص أن يطيع رغباته لا رغبات سواه.

لذلك لم يمض وقت طويل حتَّى أصبحت ضيقاً بحياة الجَندية شديد المقت لها فعوَّلتُ على الاستقالة، ولكن الرئيس رفض استقالتي، لأنّي كنت طويل القامة مفتول العضل، فاسودَّت الدنيا في عيني، ولم يبقَ أمامي إلَّا الاستنجاد بوالدي، فبعثت إليه برسالة كلّها شكوى واستعطاف، طلبتُ فيها منه أن يجمع



المبلغ الكافي لإخراجي من الجندية، ولكن الرجل طيّب القلب كان شديد الولع بالخمر، كما كنتُ أنا حينئذ، «في خدمتك يا مولاي» وأن الّذين شأنهم لا ينتظر منهم أن يدفعوا رسم التسريح من الجندية.. وقصارى الحديث، لم يجب والدي على رسالتي البتّة، فما العمل إذن؟ فقلت لنفسي: لمّا كنت لا أملك المال الكافي لشراء حريتي، فما عليَّ إلَّا أن ألتمس وسيلة أخرى وهي الهرب، وفعلاً هربت.

وهكذا تخلّصتُ من الجندية وبلائها، فبعتُ ثيابي العسكرية، واشتريتُ أسوأ منها، وسلكتُ ما أمكن سبلاً غير مطروقة. ففي أمسية يوم من الأيام، بينما كنتُ أدخل إحدى القرى، إذ أبصرت رجلاً علمت فيما بعد إنه قسيس القرية، وقد وقع عن فرسه وغاص في الوحل. فتقدّمتُ لمساعدته وانتشلته بمشقّة، فشكرني على صنيعي، إلَّا أني لحقته إلى داره؛ إذ كنتُ أحبّ دائماً أن يشكرني الناس عند أبواب دورهم، فألقى عليَّ القسيس مائة سؤال وسؤال: مَنْ أكون؟ وابن مَنْ؟ ومن أين جئت؟ وهل أنا أمين؟ فأجبته كما يحب مؤكّداً له بأني لم أذقْ الخمرَ في حياتي قط: «لي الشرف يا مولاي أن أشرب نخب صحتك!»، وبأني من أتقى خلق الله نفساً وأرجحهم عقلاً. وقصارى الكلام، لقد كان بحاجة إلى خادم فاستخدمني، ولكني لم أعش معه إلَّا شهرين، ذلك لأنه لم يكن يحب أحدنا الآخر. فقد كنتُ أكولاً وهو لم يكن يطعمني إلَّا ما يسدُّ الرمق. وقد كنتُ مغرماً بالجواري الكواعب، على حين أن خادمته العجوز كانت شرسة الطباع قبيحة الصورة. ولقد تآمرا فيما بينهما على قتلي جوعاً، فعقدتُ العزم على أن أحول دون اقترافهما جريمة القتل. فكنتُ أسرق البيض حال وضعه، وأفرغ في جوفي ما يتبقّى في قناني الشراب الَّتي تقع في يدي، وكان كلّ ما أصادفه في طريقي من الأكل لا بدَّ من أن يختفي في لمح البصر. فرأيا أن لا فائدة من بقائي، ففصلتُ صباح يوم من الخدمة، ودفع لي ثلاثة شلنات وستة بنسات لقاء أجور شهرين كاملين.

ولمَّا كان القس يعدُّ الدراهم كنتُ أتهيّأ للرحيل. وكانت ثمَّة دجاجتان تبيضان، فدخلت عليهما كالعادة وأخذت البيضتين. وقد عزَّ عليَّ أن أفرق الأم وولدها فأخذت الدجاجتين أيضاً، ووضعتُ الكل في حقيبتي، وقفلتُ راجعاً لتسلم أجوري. فلمَّا أزف الرحيل، وقفتُ والحقيبة على ظهري والعصا في يدي أودِّع الشيخ والعبرات تنهمر من عيني. ولم أبتعد عن الدار إلَّا خطوات حتَّى سمعتُ صوتاً من ورائي يصيح: «اقبضوا على اللص!»، ولكنَّ الصوت زاد في سرعتي، فانطلقتُ كالسهم، وإن كنتُ أعلم علم اليقين أن الصوت لم يكن موجّهاً ضدّي. ولكن مهلاً... يُخيَّل إليَّ أنّي قضيتُ ذينك الشهرين بلا شراب. هات يا صاح! فإن الأيام عصيبة! وليكن هذا الَّذيَ أحتسيه سمّاً في جوفي إن أنا قضيتُ شهرين آخرين من حياتي في ورع مصطنع وزهد سخيف!!

لم أترك خدمة القس حتَّى أخذت في التطواف والتجوال، وبعد أيام من تجوالي عثرتُ على جوقة من الممثلين المتجوّلين، فما رأيتهم حتَّى هفا لهم قلبي، ذلك لأن حبّي للتشرّد والمتشرّدين طبيعي لا تكلّف فيه. كانوا منهمكين في ترتيب حقائبهم

الَّتي انقلبت في طريق ضيق، فاستخدموني عندهم. وكانت الحياةُ مع هؤلاء جنةً حقاً؛ فهم لا ينفكون يغنون، ويأكلون، ويقصفون، ويطوفون في آنٍ واحد. وقسماً بأني ما كنتُ أحسبني أعيشُ قبل ذاك! فقد أصبحتُ من أمرح الناس طراً؛ وكنتُ دائم الضحك لسبب أو لغير سبب. ولقد أحبّوني كما أحببتهم، وكانَ لي -كما ترى- شأنٌ كبيرٌ، ولكني على فقري، لم أكن معتدلاً في حياتي..

إن حياة التشرّد كما أسلفتُ أحبُ إليَّ من كلّ شيء في العالم. فاليوم حرٌّ وغداً قرٌّ، واليوم عسرٌ وغداً يسرٌ. آكل متى وسعني الحصول على الطعام؛ وأشرب القدح فارغاً متى وجدتُ الخمر إزائي. قد وصلنا تنتردن[١] ذلك المساء، فاستكرينا غرفةً واسعةً، وعزمنا على إخراج رواية روميو وجولييت، فقام بدور روميو أحد الممثلين من مسرح دروري لين، وقامت بدور جوليت سيّدة لم يسبق لها الظهور على المسرح، في حين أخذتُ أنا على عاتقي إطفاء الشموع. كان التمثيل بالنسبة إلينا رائعاً مع ما كان ينقصنا من وسائل، فإن الثوب الَّذي كان يرتديه روميو كنّا نقلبه على بطانته الزرقاء، فيصلح لباساً لصديقه مركشيو، وأن قطعة من القماش كبيرةً كانت تكفي في آنٍ واحد فستاناً لجوليت وغطاء للنعش. ولم يكن لدينا ناقوس، فاستعضنا عنه بهاون استعرناه من صيدلية مجاورة، ثمَّ جمعنا عائلة صاحب الدار، فدثّرناهم بملاءة بيضاء لإكمال الموكب. وقصارى القول، لم يكن ثمَّة سوى ثلاثة ممثلين نستطيع أن نقول بأنهم كانوا يرتدون ألبسة لا غبار عليها: وهم الممرّضة، والصيدلي الجوعان، وأنا. وكان التمثيل كما قلتُ رائعاً، وهتف لنا الجمهور طويلاً، ولا عجب، فإن لسكان تنتردن ذوقاً..

فإذا أراد الممثّل الجوال لنفسه النجاح فما عليه -على حدّ تعبيرنا- إلَّا أن يبالغ في محاكاة الشخصية الَّتي يقوم بتمثيلها؛ لأن مراعاة الدقّة في الكلام والحركة، ومحاولة إبراز الشخصية على صورتها الطبيعية لا يسمّى تمثيلاً، ولا هو ممَّا يأتي الناس لمشاهدته. إن الحوار الطبيعي الَّذي لا تكلّف فيه هو كراحة الحلقوم، تنحدر إلى الحلق بسهولة، في حين أن الإمعان في المغالاة والمبالغة كالخل، يثير الإحساس، ويشحذ الذوق، ولا يشعر به إلَّا شاربه. وعليه فإن رُمتَ إرضاء الناس وجب عليك أن تصرخ، وتتلوّى، وتتنطّع بكلامك، وتضرب جيوبك، وتظهر أمام النظّارة كأنك تعاني آلاماً مبرحة؛ فإن أنت عملت كلّ هذا فزتَ باستحسان الناس، وأصبحت ممثلاً يُشار إليك بالبنان.

ولمَّا كان التوفيق حليفنا كان من الطبيعي أن أعزو قسماً من النجاح لنفسي؛ فأنا مطفئ الشموع ولا فخر، وأقول لك إنه لولاي لفقدت المسرحية نصف رونقها..

وظللنا نمثّل على هذه الصورة أسبوعين كاملين، وكانت الدار في أثناء ذلك تكتظ بالنظّارة. وقبل الرحيل بيوم واحد أعلنّا على الملأ بأنا سنختم موسمنا بأعظم رواياتنا، والَّتي سنبذل في سبيل إخراجها كلّ ما لدينا من جهدٍ ومالٍ. ولقد كنّا نعلّق آمالاً جساماً،

١- Tenterden.

فضاعفنا الأجرة. وبيّنا نحن في نشوة الأمل غارقون، إذا بكبير ممثلينا يصاب بحمّى، فذُعرنا وأُسقط في يدنا، وشقَّ ذلك على جماعتنا الصغيرة، فعقدنا العزم على الذهاب إليه جميعنا لتوبيخه، وزجره لمرضه في وقت غير مناسب كهذا، وخاصة لابتلائه بمرضٍ قد يحتاج لمعالجته مالاً وفراً. فانتهزتُ أنا هذه الفرصة، وعرضتُ نفسي لأحلَّ محلَّه، فقبلوني، فجلستُ، والدور في يدي والكأس قبالتي، أدرس الشخصية الَّتي سأؤدّي الامتحان عنها غداً، وأقوم بتمثيلها بعد ذلك بقليل.

فوجدتُ أن ذاكرتي تسعفني كثيراً وقت الشراب؛ إذ تعلّمتُ دوري بسرعة مدهشة، فطلَّقتُ دور «إطفاء الشموع» منذ ذلك الحينَ؛ لأن الطبيعة أعدّتني لوظيفة أسمى من هذه وأشرف، وقطعتُ على نفسي عهداً ألّا أخيب ظنّها بي.

فلمَّا كان الغد اجتمعنا لإجراء «تجربة الأداء»٢، فأخبرتُ زملائي عن التغيير العجيب الَّذي طرأ عليَّ، وكانوا أساتذتي بالأمس، وقلت: «ليطمئن المريض في فراشه، ولا يشقين نفسه في أمر الشفاء؛ فإني سأقوم بدوره أحسن قيام، وسيدهش الناس من براعتي ونبوغي، وليمت بعد ذلك إن شاء، فإني أعده بأنه سوف لن يُفتَقد!».

وابتدأنا تجربة الأداء، فرحتُ أتبختر أمامهم وألغط بكلام غير مفهوم، فيعجّ المكان بالتصفيق والاستحسان، وسمعتُ صوتاً يقول، أو يُخيَّل إليَّ أني سمعت: «ها قد بزغ نجمٌ متألّقٌ في سماء التمثيل!!»، فما عاد الكون يسعني، وعزمتُ بيني وبين نفسي على أني لما كنت السبب في استدرار المال على الجمعية فيجب أن يكون لي في الربح نصيب، فأنشأت أخاطب الجماعة قائلاً: «أيّها السادة! إن الَّذي سأقوله لكم ليس أمراً أريد فرضه عليكم.. لا. فلستُ والحمد لله ناكر للجميل إلى هذا الحد، ولكن لمَّا كنتم تفضلتم عليَّ بنشر اسمي في الإعلانات، وتلك منَّةٌ لن أنساها ما حييت، فلا يسعكم والحالة هذه الاستغناء عنّي. لذا، فإني أرجو أن تدفعوا لي جُعلاً أسوةً بكم، وإلَّا عدتُ إلى دوري القديم وهو إطفاء الشموع».
وكان هذا الاقتراح شديد الوطأة عليهم، ولكن لا بدَّ ممَّا ليس منه بدٌّ، فأذعنوا على الرغم من أنوفهم. فلمَّا حان الوقت، ولجتُ المسرح في ثياب الملك «بايزيد»٣ وحاجباي المقطبان شُدَّ طرفاهما بجورب دسّ في عمامتي، ويداي المغلولتان تلوحان بالسلاسل. لكأنّ الطبيعة قد اختارتني لهذا الدور فقد كنتُ مديدَ القامة جهوريَّ الصوت، وإنّ مجرّد دخولي المسرح أثار عاصفة من الهتاف والتصفيق، فدرتُ بنظري على الجمهور مبتسماً، وانحنيتُ أمامهم انحناءة كاد فيها رأسي يلمس الأرض، فتلك عادة شائعة بيننا. ولمّا كان الدور عاطفياً غاية العطف، فقد أنعشتُ نفسي بثلاثة كؤوس ملآى من الخمرة. لله ما أروع الدور الَّذي قمت به! إن «تامرلين» يكاد يبدو ضئيلاً بجانبي، وهو وإن كان صوته يرتفع أيضاً في بعض الأحيان، إلَّا أن صوتي كان يعلو عليه، كان لي ثمَّة مواقف

٢- rehearsal: ما نسمّيه بالعامية: (البروفا).

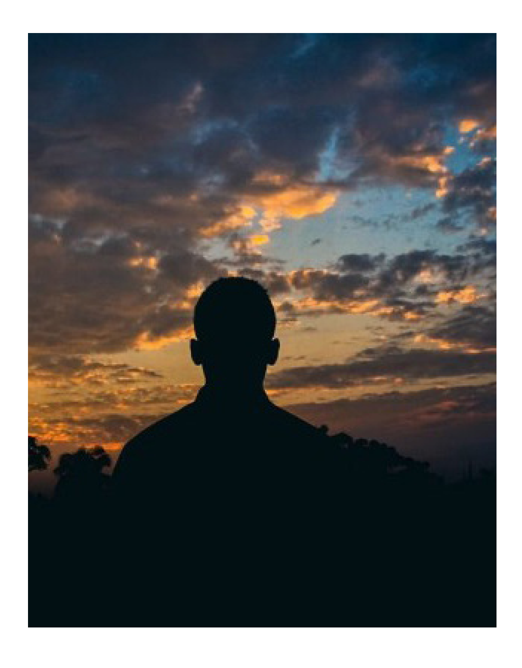
٣ - Bajazet.

كثيرة مجيدة، إذْ كنتُ أطوي يدي هكذا فوق سرّتي، وهي عادة مستحبّة في «درروري لين»، وإذ أنا رحتُ في تعداد مزاياي لنفدت الخمرة قبل أن أنتهي من سردها. وقصارى الكلام، إن تمثيلي كان أعجوبة الأعاجيب، وجاءني الأعيان من الرجال والنساء بعد أن انتهيتُ من التمثيل لتهنئتي على نجاحي الباهر، فمنهم من مدح صوتي، ومنهم من أثنى على قامتي، ولقد سمعت امرأة العمدة تقول: «أقسم لكم بشرفي إنه سيصبح من أقدر الممثّلين في أورُبة! أقول ذلك عن علمٍ ودرايةٍ، وإن لي في هذا الفن لذوقاً».

إن المديح الَّذي يغمرنا به الناس في أوَّل عهدنا بالتمثيل شيء طبيعي ومقبول، ولا يقصد منه سوى التشجيع، ونحن نتقبّله شاكرين، ونعدّه فضلاً منهم علينا، أمَّا إذا استمر المديح وكثر فنحن والحالة هذه نعدّه ديناً لنا عليهم، نتقاضاه منهم بمقدرتنا ونبوغنا، وعوضاً عن أن أشكرهم كنتُ في داخلي أثني على نفسي. ولقد طلب إلينا الجمهور إعادة القطعة للمرّة الثانية، فأجبناه إلى طلبه، وكان نصيبي من الثناء أكثر من ذي قبل..

وأخيراً تركنا المدينة لنحضر سباقاً للخيل، وسوف لا أذكر «تنتردن» إلَّا انهمرت من مآقي دموع الامتنان والاحترام، ذلك أن السيدات والسادة هناك كانوا على جانب عظيم من الدراية بالتمثيل والممثلين. هات لنشرب! نشدتكَ اللّه نخب صحتهم! قلتُ تركنا المدينة، وكان ثمَّة فرقٌ عظيمٌ بين دخولي إليها وخروجي منها، دخلتُ المدينة ممثلاً حقيراً، وخرجتُ منها بطلاً كبيراً، تلك هي الحياة، تقبل يوماً وتدبر يوماً، وإن شئت لتوسّعت في الموضوع ولذكرت لك شيئاً كثيراً عن تصاريف الزمان وتقلبات الأيام، ولكن ما لنا ولهذا، فإن إثارته إثارة لكامن شجوننا.

انتهى السباق قبل أن نصل المدينة الثانية الَّتي خذلتنا جميعاً، ولكن ليس من السهل قهرنا، ذلك أننا عزمنا على أن نجرّب حظنا عسى أن نظفر منها ببعض الَّذي ظفرنا به في المدينة الأولى. وقمتُ أنا بالأدوار الرئيسة، وارتفعتُ فيها إلى الذروة كالعادة. وإني لا أزال أعتقد لو أن ملكاتي أعطيت ما تستحقّه من العناية والرعاية لأصبحت اليوم من أبرز الممثّلين في أورُبة، إلَّا أن عاصفة هوجاء اقتلعتني من مهدي وردّتني إلى مستوى الغوغاء، كنتُ أمثّل دور السير هاردي ولدير فأدهشت السيدات ببراعتي وأطربتهن. فإن أنا أخرجتُ علبة



النشوق ضجّت القاعة بالضحك، وإن أنا لوّحتُ بهراوتي في السماء سرت في النظارة قشعريرة الخوف والفزع.

وكان ثمَّة سيدة سبق لها أن تثقّفت في لندن مدّة تسعة أشهر، فأخذت تزعم لنفسها الإلمام بالمسائل الفنية، ممَّا جعلها قبلة الأنظار في أيِّ محفلٍ حلَّت. وكانوا أخبروها عنّي وعن موهبتي، ولكنها رفضت أوّل الأمر الذهاب لمشاهدة تمثيلي، زاعمةً أنها لا تتوقّع من ممثل جوّالٍ ضئيل الشأن مثلي أن يجيد التمثيل. ثمَّ مالت بالحديث إلى الممثّل ذائع الصيت «كاريك» فأطرتْ عليه، وعدّدت مزاياه، وأدهشت السيدات بنبراتها العذبة وصوتها الرصين. غير أنهم أقنعوها آخر الأمر بمشاهدتي، وترامى إليَّ سراً أن علماً من أبرز أعلام العصر في شؤون المسرح ستحضر الحفلة المقبلة، ولكن ذلك لم يخفني، فظهرت في ثياب السير «هاري» واضعاً يداً في جيب السراويل والأخرى على صدري، كما هي العادة في» دروري لين». إلَّا أن النظّارة عوضاً عن أن ينظروا إليَّ، اتجهوا بأنظارهم إلى السيدة الَّتي قضت تسعة أشهر في لندن، ليتلو حكمها الَّذي إمَّا سيرفعني إلى مصاف النابغين من الممثّلين، أو سيضعني إلى الحضيض. فأخرجتُ علبتي، ونشقتُ منها نشقة، ولكن السيدة لم تحرّك ساكناً، وكذلك النظّارة. فأخذتُ عندئذ هراوتي، وأهويتُ بها على ظهر العمدة المهرّب حتَّى تكسَّرت، فما تململ أحد، كأنما الوجوم قد نشر أطنابه على الحاضرين، فدمدمت السيدة وغمغمت، وهزّت كتفيها استخفافاً، فحاولتُ بضحكي أن أفوز منهم ولو بابتسامة، ولكن وجوههم الكالحة المتكدّرة ازدادت إغراقاً في العبوس، فدارت بي الدنيا، وأصبحت حركاتي مصطنعة، وضحكاتي هستيرية. ومهما تكلَّفتُ إذ ذاك من المرح وخفَّة الروح، فإن عيني كانتا تفيضان بما كان يجثم على صدري من الهم والغم. وقصارى الكلام. حضرتْ السيدة وفي عزمها إيذائي وقد فعلت - سامحها الله! - وهكذا التفت شهرتي، ونفد شرابي وأنا لا أزال كما ترى حيّاً أُرزق.

❖ أوليفر غولد سميث (١٧٣٠ - ١٧٧٤م) كاتبٌ إيرلندي أصدر أعمالاً كثيرة تتسم بالجمال والحيوية. كتب بضعة مسرحيات، أشهرها مسرحية: (تمسكنت حتى تمكّنت She Stoops To Conquer)، وهي من أجمل مسرحياته على الإطلاق وله مسرحية: (الرجل الطيب The Good-Natured Man) غير أنها لم تلقَ النجاح مثل سواها من أعماله الإبداعية.

كتب روايةً واحدةً هي (كاهن ويكفيلد The Vicar of Wakefield)، وعدداً من القصائد أشهرها: (القرية المهجورة The Deserted Village). اشتُهر «غولد سميث» في أول نشأته الأدبية كاتباً للمقالات، فكتب عدداً كبيراً منها، تجلّى فيها أسلوبه الجميل في الكتابة، الَّذي وازن فيه بين سلاسة الأسلوب وجزالة الألفاظ، فترى ألفاظه تسيل في رقَّةٍ وعذوبةٍ. ومثال ذلك المقالة السادسة (VI) الَّتي بين أيديكم، وعنوانها: (مغامرات ممثلٍ طوَّافٍ).



قصص قصيرة

القوقعة، الزائر، وليمة القمر، سباق دائري

سامر منصور

١ - القوقعة

هبطتُّ على هذا الكوكب فشعرتُ أنني قطرة ماء سقطت وسط البحر. شعرتُ بانسجام هائل مع ما حولي ولساعات عدّة، فقدتُ إدراكي لذاتي، وبتُّ مسامعاً وأبصاراً وبصائر وملامساً يتخلّلها الجَمال كما يتخلّل السحابُ، السحاب كان كلُّ ما حولي كلحنٍ من ناي حملته نسائم الألوان ونحتت النغمات فيه أيادي الجمال. فطارت أعماق روحي إلى هذا اللحن الذي نسج حولي سعادةً غريبة لم آلف لها مثيلاً، سعادة لدرجة الشجن، وما كنت أدري من قبلُ أن الشجن من درجات السعادة.

وفجأة أبى شيءٌ غريبٌ أن يعبر مداركي بسلام فأعاد إليَّ الإحساس بذاتي. لا بل شعرت أنني انتُزعتُ من كياني الأكبر وقذفتُ في شكلٍ صغيرٍ لثمتهُ بعض الألوان فاصطبغ بآثارها.

شعرت بقشعريرة غريبة وكأني بوتر قُطعَ فخنق لحناً بنشازه. كان ذلك منظر قوقعة، قوقعة هي أكبر أصداف وقواقع هذا الكوكب. فلا مثيل لها في عتمة البحور ولا في أغوار الجبال حيث لا يصل النور. كانت ماثلةً أمامي كنغم مبتورٍ! دخلتها فعرفت لكلمة العمق معنى جديداً. خلتُ أنني لن أرى شيئاً فيها ولكنني لمّا استعنتُ بنور الوجود ساطع العمق عميق البهاء، أحطتُّ ببعض أبعاد هذه القوقعة وتبينّت فيها شيئاً. ظلاً أسودَ هزيلاً يرتعش. فدنوتُ منه وسألته: من أنت؟ فنهض إليَّ وقال بصوت ثقيل عضَّ على مسامعي: أنا سيّد مخلوقات هذا الكوكب أجمعين. أنا الإنسان.

فقلتُ لهُ: صفْ لي نفسك فهذه القوقعة لا ينفذ إليها ما يكفي من نور الوجود الصارخ في سطوعه، لذا صورتك تتماوج أمامي ولا أستطيعُ أن أتبيّن جوهرك.

فأجابني قائلاً: أنا. أنا. أنا لا يوجد شيءٌ مثلي في هذا الوجود حتى أشبّه نفسي به، وليس ذنبي إن كان بصرك وبصيرتك أوهن من أن تراني.

فجأة اضطرب هذا الظلّ وأخذ يثب ويتمتم. نظرتُ من خلال جُدران القوقعة فشاهدت الطبيعة تتمطّى وتتثاءب وتنفض عن منكبيها بعضِ الكائنات الحيّة وما كانت الطبيعة لتطوي جزءاً من صفحة الحياة إلا لتنشر صفحاتٍ أخرى للحياة.

وثب الظلُّ والجزعُ لبوسهُ وهتف قائلاً: الزلازل، البراكين، الفيضانات. عليَّ أن ألوذ بدرعي كي أنجو.

قلتُ له: إنك في قوقعة وإنك جزءٌ منها.

فأجابني: لا قواقع، إنه درعٌ عظيم وهو في داخلي وهو جزءٌ منّي عظيم الشأن، سيجعلني دوناً عن كلِّ تلك الكائنات آمنُ غضب الطبيعة.

لم أفهم لماذا وصف الطبيعة بالغاضبة. صمت ذلك الظلُّ الهزيلُ للحظات ثم أردف قائلاً: انظر إلى درعي إن فيه ثقوباً كبيرة ذلك أنه خرج من رحم بحور الجهل المشبعة بملح الضعف. إن درعي كما ترى هرئة والجهل يأكلها. وأسمى عمل يمكنني القيام به هو تقليص تلك الثقوب حتى تختفي ولكنَّ هذا سيحتاج إلى وقت ليس بقليل.

قلتُ له: أنت كائنٌ عجيب لا أستطيع إلا أن أراقبك من فوق أمواج الفضول آملاً أن تصل بي تلك الأمواج إلى صخور الفهم والحقيقة الصمّاء.

ولبثتُ زمناً أراقب ذلك الظلَّ المرتجف داخل قوقعته التي تكاد لا تبان في بحر الوجود. ظللتُ أراقبُ ذلكَ الظلَّ الذي كان كالبليّة[1] بين أنامل الشكّ التي كثيراً ما امتدّت عبر ثقوب القوقعة. لطالما أصغى إلى صدى أفكاره المغرورة وقال: أنا أسمع وحياً من السماء. وهكذا قدّس ذلك المسكين الصدى فما اهتدى.

وفي ذاتِ ليلةٍ قال لي وهو يشيرُ إلى أحد

---

١ - كرة بلّورية صغيرة يلهو بها الأطفال.

الكائنات في الخارج: يا له من كائنٍ قبيحٍ وشرير.

فسألته عن معنى آخر كلمتين قالهما، فأجاب: القبيح هو ما تتمنّى زواله من الوجود فالقبيح ضدُ الجميل.

أما كلمة شرّير فقد حاول الظلّ مُستهلكاً معظم الكلمات التي يعرفها أن يفهمني معناها لكنني لم أفهم وقال في جُملَة ما قال: إنها ضدُ كلمة خير، لكن حتّى تلك الكَلمة التي استعان بها كانت تبدو مبتدعة ًوغريبة.

حاولت أن أُفهمَ الظلّ المسكين أنه مخطئ وأن جدران القوقعةَ قد حرفت الصورة. حاولتُ أن أفهم ذلك الظلّ أنني حين كنت خارج القوقعة كنت أرى الوجود دائرة ً متصلة. سوارٌ على معصم الكمال وليس عقداً صُبغت بعض حبّاته بألوان الشر والقبحَ والباطل والضعف والأخرى بألوان الخير والجمال والحق والقوّة. لكن عبثاً كنت أحاول.

غدا الفراق بيننا وشيكاً حين أخذ الظلُّ يضحك ويقهقه بصوت مُزعج كجبلٍ ينهار وما كان ضحكه الصاخبٍ. إلا لَتقلُص الَثقوب السوداء التي في جدران قوقعته. يا له من مسكينٍ ذلك الذي يرتدي خُفّي الغرور فيخال أن قدميه قد وطأتا قمّة الوجود. سألت الظلَّ مرّات عديدة عمّا يراه في هذا الوجود وكنتُ أسألهُ كوني أملك صورة للوجود لم تشوّهها أو تحرفها إقامتي الطويلة داخل هذه القوقعة.

أشرت ذاتَ مرّة إلى قطعة أرض مُشجّرة فيها ما يفوق الثلاث مئة شجرة وسألت الظلَّ ماذا ترى؟

فأجابني: أرى عاموداً وإلى يمينه دائرتان.

فطلبت منه إيضاحاً. فقال: مئة شجرة سبعٌ وثلاثون منها مثمرة وثلاثٌ وستون منها تصلح لصنع الأثاث.

يا لذلك المسكين. كان يرى كلَّ شيء أرقاماً، وكان جلُ طموحه زيادة الأرقام منازلَ. كان يرى الكائنات أرطَالاً من اللحم وأمتاراً من الصوف والفرو وزينة ًمن عاج.

لم يكن يُبدي السعادة بأقصى درجاتها لمنظر الشمس. الخال٢ الوهّاج. على وجنة السماء تهمُ شفتا البحر بها لثماً قُبيل أن يُسدل ستار الليل. بل كانت سعادته القصوى وأعمق أحزانه وأرزائه رهن الأرقام، حتى وإن لم ينقصه شيءٌ فإن جلَّ سعادته بازدياد تلك الأرقام التي ابتدعها بغية أن يمتلك الوجود بها، وما الملكية إلا احتكار. فأيُ نغمة تلك التي تسعى لاحتكار كلِّ نَفَس في الناي العظيم؟

غادرتُ قوقعة العقل البشري ونظرتُ إليها من الخارج، فتبيّن لي أن الثقوب السوداء لم تتقلّص! بل القوقعة بأسرها انكمشت مع الزمن ولم يشعر الظلّ المسكين بانكماشها. وأعجب ما رأيت خارج القوقعة وعلى مقربة منها كان كائناً جليلاً في أحسن تقويم وأغلبً الظنِّ أنه الإنسان. ولكن يا حسرة ًعليه فقد كان جامداً بارداً يحدِّقُ بعيني صنم. بعينين خاويتين. وهو جاث أمام القوقعة. يبدو أنه فقد روحه وهو يحاوِل أن يضع الوجود الرحب في تلك القوقعة، ولعلّه فقد القدرة على التمييز بين كيانه المهيب وظلّه الرهيب فبات جسدهُ ظلاً لظلّه المترسّب داخل قوقعته. تلك القوقعة

---

٢ - **الخال: شامة.**

العجيبة التي يحسبها الإنسان أعظم كنوز الحياة، بينما تشغله في الكثير من الأحيان عن التمتّع بسحر لحن الوجود.

أنا أتمتّع وأتأمّل وأحسُ بالحياة وتدبُ تزحف وتسبح وتطير. إذن، أنا موجود.

❖❖❖

٢- الزائر

كنتُ أتأمّل غدائر من نور تتدلّى من النجوم. وكأني بالقمر الخجول يبتسم قُبيل أن تحجبه الغيوم. فجأة رأيت أناملَ الدجى تطارد شهاباً. ما لبث أن ذاب في كأس الليل. وهكذا التقيتُ بالزائر وهاكم قصّة زيارته كما رواها.

انفجر الشهاب قبل أن يلامس سطح الأرض بقليل. فوثبتُ منه وشظايا الدهشة تثب إلى مداركي. رأيت بكشف نور الشهاب الذي أقلّني جزءاً صغيراً من هذا الكوكب العظيم، ولم أكن أتخيّل أن كلّ هذا الجمال والجلال يمكن أن يجتمع في قطعة صغيرة من الأرض.

رأيت أمامي مجمعاً عظيماً فدخلته وسألتُ أين أنا فكان الجواب. (أنت في مَجمع المجامع. أنت في أوروبا).

قلت: كوكبكم جميل ومجمعكم مهيب. أخبروني ما هو أهم ما في مجمعكم؟ ما سرُ نجاح أي مجمع ومبعث سعادة أهله؟

فأدخلوني إلى قاعة مهيبة جعلوا لها اسماً وحفروه على إحدى جدرانها، وكان هذا الاسم (ما قبل الميلاد)، وبينما أنا أتأمّل المكانَ؛ دخل عليَّ مسخٌ عملاقٌ هزيلٌ، شاحبٌ، فارع الطول، قدماه صغيرتان بالكاد يُسمع وقعهما، وكان الناس لا يشعرون أنه يسير على الأرض. كانوا يحسبون أنه يسير في السماء فقط.

كان ذاك المسخُ يسير ونظره مُعلّقٌ بالسماء وكأنه يبحث عن شيء. وكلّما برق نجمٌ أو خسف كوكب أو برق رعد كان المسخ يغيّرُ اتجاهه كأنّ السماء بوصلته.

سألت من هذا؟!!

فكان الجواب: (إنه العدل)..

تجاوز ذلك المسخ الكثيرون من الناس. ولم يكن يتنبّه إلّا لمن يخزه برمح أو سيف. وأكثر ما أثار دهشتي أن ذلك العملاقَ الهزيل لا يرى اللون الأسود حين ينظر إلى أعراق البشر.

غادرت هذه القاعة بقلب مفطور وصرخة قائلاً ما سرُ هذا المجمع الكبير؟

فأجابني مُجيب: (ارتق السلالم وادخلْ القاعة التي فوقنا وستعثر على ما تريد)!

فعلتُ ما قاله المُجيب، ودخلت قاعة كُتب على جدرانها (القرن السادس عشر)، فوجئت نفسي في حضرة عملاق يرتدي طيلساناً أسودَ بارداً طويلاً. كان طيلسانه أكبر من رأسه يُغطّي عينيه فلا تريان شيئاً من داخله إلا النور الداخل من رسومات مُفرَّغة لصلبان. ويبدو أنه قد طال عليه الأمَد وهو على هذه الحال، حتى حَسبَ النور لا يهبط إلى الأرض إلّا في حزمٍ من صلبان. كان الطيلسان يُغطّي أذنيه أيضاً فلم يسمع إلا صوت أفكاره وما له من صدى. كان يفطن أحياناً لبرهة ويحاول رفع طيلسانه عن حواسه، لكن إن هي كرّة الطرف حتى يعود الطيلسان ليغشى ما يغشى.

كان هذا العملاق يحمل في يُمناه شيئاً ما بين السيف والصليب. تقدّمت منه وسألته من أنت؟. فأجاب ورائحة البخّور تمازج

أنفاسه: (أنا العدل) وأراد أن يصافحني لكنني أجفلت حين رأيت يده مشوّهة. قال لي: (كنتُ لأصافحك بيدي الأخرى لكنها) أبرز يده من كمّه الطويل فوجدتها قابضة عَلى سُبحة كبيرة. ويبدو أنها قبضت عليها لوقت طويلٍ فأصابعه كانت قد التحمت فاختفت ﬞفي تلك القبضة المرعبة.

كانت السُبحة ذات حبّات من قلوبٍ وعيون. تقطر دماءً ودموعاً.

غادرت القاعة فزعاً وأنا أصرخ. دلّوني على سرِّ نجاح مجمعكم ولا تتخذوني هزواً.

فناداني من فوقي مناد... أن ارتقي السلالم وادخل أول قاعة تجدها لتنعم برؤية قُدس الأقداس وسرِّ جامعة الناس.

فعلت ما طلب منّي ودخلتُ قاعةً مهيبة رسمت على إحدى جدرانها هذه العبارة (القرن الحادي والعشرون). وجدت العدل قبالتي وكان يبدو هائل الحجم بثوبه الفضفاض المُزركش. حدّثني، لكنّ صوته بدا لي مضطرباً. كان كرجع الصدى. لم أستطع فهمه. ورغم أنه في هذه القاعة يبدو أجلَّ وأجمل إلا أنني في الماضي كنتُ أفهمه بصورة أسهل. شعرتُ كمن يصغي إلى صدفة فلا يسمعِ إلا نسخةً مشوّهة عن صوت البحرَ. أراد العدل أن يصافحني لكنه عجز عن إخراج يده من ثوبه الفضفاض. يداه لم تكن قصيرة لكن أكمامه كانت طويلة طويلة.

رأيتُ الناس يتمسّكون بثوبه ويتباركون به وهم منبهرون وكأنهم لا يدركون أن هذا الثوب مصنوعٌ من مزق الأثواب السابقة بالإضافة إلى الكثير من الرُّقع الواهنة.

غادرتُ هذه القاعة وتسلّقتُ سلالم الزمان التي لم يخط عُليها إنسانٌ بعد. وتمنّيت لو أجد العدل عارياً فأرجع به إلى الناس كي يتأمّلوا تفاصيل جسده بنشوة خاشعة. لكنني لم أجد شيئاً. لقد اختفى العدل. ربّما تعاظم ثوبه حتى اختنق في داخله ومات. وقفتُ بين يدي الدهشة وأنا أتساءل هل ستستمر المجامع البشرية بلا عدلٍ؟ وإن لم يكن العدل هو السر فما هو السر إذاً؟



٣- وليمة القمر!

إنها المرّة الأولى التي أرى فيها اسمي مرسوماً بهذه الطريقة الجميلة وبماء الذهب. وها أنا ذا على أعتاب العنوان المدوّن في بطاقة الدعوة الفريدة هذه. قصر الرئيس أو البيت الأبيض كما اعتدنا تسميتهُ. سبق أن دُعيتُ إلى أماكن عدّة يسكنها كبار رجال السياسة لكنني لم أكن لألبّي أيّاً من تلك الدعوات لطالما بدا لي الأمرُ وكأنهم يحاولون تلميع صورتهم من خلال إقامة الصالونات الثقافية في منازلهم وإحاطة أنفسهم بكبار المبدعين. لكن أن تتمّ دعوتي من قبل رئيس البلاد إلى عشاء يحضرهُ بعض المسؤولين الكبار والشخصياتً البارزة - كما قيل لي عبر الهاتف دون ذكر تفاصيل - كانت فرصة لي لأرى، هل ما زال ما كتبهُ «ميكيافيلي» ينطبق على أهل السلطة ومن حولهم؟

لم أكن أعرف من هم ضيوف الرئيس إلى أن فتح الحاجبُ الباب وأصبحتُ داخل القاعة. سرعان ما شدَّت انتباهي الوجوه التي لم أتوقّع رؤيتها هنا. ابنة الرئيس ذات الخمسٍ

والعشرين ربيعاً «كاترن»، المُلحن وعازف البيانو الشاب العبقري «جونثن إيدور». لقد كنتُ أعرف جميع الحضور الذين سأتقاسم معهم طعام العشاء، ولا أدري إن كانت عبارة سوف أتقاسم طعام العشاء تصحُ ونحن في حضرة تلك الطاولة الممتدّة كشارعٍ عريض مزدحم. لا يفوح منه دخانٌ بل أبخرةٌ تعبق بروائحٍ شهّية تنزعُ الأفكار من الرأس. وها أنا ذا أدقّق في وجه ضيوف الرئيس قبل أن تسلبني الطاولة تركيزي مجدّداً كان الجنرال الشهير «جميس واترس» والذي شغل مناصب عدّة آخرها مستشار الرئيس لشؤون الحرب وإلى يمينه سكرتير الرئيس الأول «ديفيد راخيم»، وقبالتهَ الروائي الشهير «راين براون»، وقيل لي أن البروفيسور «ألفونسو ديمتري»، كان قد تلقّى مكالمة هاتفية مهمّة وهو ما زال يتحدّث عبر الهاتف ويذرعُ جيئةً وذهاباً في شرفة القاعة.

رحّب بي الرئيس ترحيباً لائقاً وشرع يعرّفني بالحضور ويعرّفهم بي إلى أن أجمعنا على عدم ضرورة ذلك كون القاعة لا تضمُ سوى المشاهير. سارعت ابنة الرئيس «كاترن» إلى الترحيب بي بحرارة كان وجهها أبيضَ ينضحُ براءةً وحُسناً يزيده في حسنه وجنتاها الحمراوان وبدت ابتسامتها العريضة كهلال يستلقي فوق بدرٍ مُكتمل. أخبرني الرئيس بأنّ «كاترن» من كبارٍ المعجبين بمؤلّفاتي القصصية والروائية وقد شاهدت جميع أفلام السينما التي استندتُ إليها. وقال بأنها عضوٌ فاعل في نادي المعجبين بمؤلّفاتي والذي يأخذ على عاتقه الترويج لها عبر مواقع التواصل الاجتماعي وفي أرض الواقع.

دخل البروفيسور «ديمتري» لكنه لم يتجه للترحيب بي. بل ذهب بفمه باتجاه أذن الرئيس هامساً بضعَ كلمات. فتصلّبت ملامح الرئيس ونهض داعياً إيّانا إلى الذهاب إلى الشرفة. تعجّبنا من دعوته وسارع إلى طرح مسألةٍ صادمة.

- «القمرُ يَحتضر. إنها نصف الساعة الأخيرة التي سيرى البشر فيها القمر الجميل. تمتّعوا أيها السادة بهذا المشهد في هذه اللحظات التاريخية».

نعم. كنّا جميعاً قد سمعنا شائعات منذُ سنة خلت، تقول بأن خللاً يتنامى داخل نَواة القمرً وأنه سيؤدّي قريباً إلى تصدّعه من الداخل. وسمعنا بأنّ وكالة الفضاء الدوليَة بالتعاون مع كبرى المؤسسات وكبار العلماء من كافة أنحاء العالم تعمل في نطاق مشروع لإزالة القمر قبل أن يتحوّل إلى عدّة قطعٍ

هائلة تهوي نحو كوكبنا الأزرق. لكن جميع الجهات الرسمية بما فيها «ناسا» كانت تُكذِّبُ تلك الشائعات وتسخرُ من مضمونها.

نهض البروفيسور وبيَّنَ لنا أنه عبر زرع الكثير من القنابل النووية والفراغية وبشكل مدروس سوف يختفي القمر مُخلّفاً أجزاءً صغيرة ستندفع بعيداً في الفضاء، وبعضها سيحترق كالشُهب داخل الغلاف الجوي، وسيصل بعضها الآخر إلى الأرض كنيازك! لكن معظمها سيسقط في المحيط الهادئ. وعقَّبَ بلهجة الواثق:

– «كلُ شيء تمّت دراستهُ بعناية فائقة. مكان القمر، وما يقابلهُ من كوكب الأرض في لحظة إزالته. طريقة إزالته. الحجم المتوقّع لأكبر صخرة قد تنتج عن عملية الإزالة واحتمالية تحوّلها إلى نيزك. كلّ شيء تمَّ حسابهُ بدقّة. نحن اليوم أمام أكبر مشروعٍ إنساني يستند إلى العلم على الإطلاق. ونحن فَخورون بما توصّلنا إليه وواثقون بما أنجزناه. لكن هناك ظواهرَ طبيعية تحدث بتأثير جاذبية القمر. كظاهرة المدّ لمياه البحار والمحيطات، وأنا أعني هنا المد القمري. أي أن زوال القمر قد يؤثّر على بعض المنظومات البيئية في كوكبنا».

دهشتُ. لا بل انفجرت داخلي أقمارٌ من الدهشة ترجُمُ مداركي. جمعتُ شتات نفسي. كلّ تلك الشائعات حول احتضار القمر التي كنت، وجميع المثقفين في البلاد نسخر منها، لم تكن شائعات بل حقيقة؟!

القمر رغيف أحلامنا. بركة الأماني التي تضيء عتمة الليل. كف الشمس الذي تمدّه لنا حين لا تكون معنا. القمر زهرة من ضياء كنت في طفولتي أخالُ النجوم فراشات ترفُ اليها ولا تصلها. هل ستتكسر هكذا ببساطة وترحل؟! وأنت الذي على ضفافك تكسر كل هذا الليل.

رغم هول المسألة، كان الرئيس قبل دقائق يبتسم ويتحرّك ويتصرّف وكأن لا شيء سوى سهرة عذبة وعشاء لذيذ يلوحُ في الأفق!!

بل لو ورده خبرٌ تأخّرَ العشاء بسبب «خطأ فني» في المطبخ لهمّهُ الأمر أكثر من السماء المنقوصة النور التي ستغدو سماءنا. نظرتُ في بعض وجوه من حولي فوجدتُ الدهشة تأكلها وتتقيؤها بين يدي الأسى وجوهاً جديدة، تكاد لا تكون وجوههم ولكنها وجوهٌ تذكر بها.

شعر الرئيس بأنه ارتكب خطأ حين باغتنا بالخبر على هذا النحو. كان سكرتير الرئيس أول من كسر الصمت قائلاً: «سيتّهمنا الكثير من الناس بأننا كنّا نجري اختبارات نووية أو ما شابه على سطح القمر مما تسبّبَ بتصدّعه واضطرارنا إلى إزالته لاحقاً».

عقَّبَ الجنرال بابتَسامة ساخرة: «ربّما من الأفضل أن نروّج بقوّة لشائعات مماثلة حول الروس والصينيين كي لا تتجه أصابع الاتهام نحونا».

أردف سكرتير الرئيس: «غداً الليلة الأولى بلا قمر في السماء. سيلقي السيد الرئيس كلمة سلوى ورثاء وسيعلن الحداد العام لثلاثة أيام كما لو أن القمر كان إنساناً عظيماً ذو فضل على الناس. وإن أتقن سيادة الرئيس صياغة كلمته، فكلي ثقة ً أنها ستساهم في إعادة انتخابه».

عقّب الرئيس قائلاً: «عندما تهيمن الحالة

العاطفية على الشعوب جرّاء حدث خارجي فهي تميل إلى التمسّك بقادتها. والشعب يعشق ذلك الحجر الكبير».

نظرتُ في عيني «كاترن» فوجدتُ عند طرفيهما كوكبين من الدمع يعكسان شيئاً من ضوء القمر.

غرقتُ في أفكار قاتمة وشعرتُ أنني محاصر. نظرتُ إلى السماء وتخيّلتُ القمر ينفجر، لكنهُ لم يتفتّت ويتكسّر كحجر في حُلم اليقظة الذي ألمَّ بي، بل تطايرت منهُ خُصلاتٌ وخيطانٌ من النور وكأنهُ شمسٌ بيضاء، وانتشرت تلك الخيطانُ وامتدّت بين النجوم تصل بينهما في شبكة هائلة تحاصرني، تمثّل كلّ نجمة فيها عُقدةً، وشعرتُ بأن تلك الشبكة تهوي نحو الأرض. كدت أختنق. وسرعان ما أعادتني كفُّ الروائي «راين» التي استقرّت على كتفي إلى أرض الواقع.

قال راين: «موت القمر. القمر النازف. عناوين مغرية لرواية ذات طابع تراجيدي. ثمّ أردف بشيءٍ من المُزاح. ربّما سيكون هناك تقويمٌ جديدٌ ليس قياساً إلى ميلاد السيد المسيح، تقويمٌ يبدأ بيوم موت القمر وسنكون أبرز روائيي القرن اللاقمري الأول».

دعانا الرئيس: إلى الدخول لتناول آخر عشاء في ضوء القمر وسرعان ما فُتحت الستائرُ وأُطفئت الأنوار عدا بعض الشموع على الطاولة. كان القمرُ بدراً، وكنّا سنشهدُ تدميرهُ وهو في ذروة نورانيته. بدا الأمر فظيعاً. وكأننا سنشاهد وَجه طفلَ جميل يتلقّى رصاصة. كنتُ أشكُّ بقدرة الضيوف على تناول الطعام تحت ضوءٍ سيختفي إلى الأبد.

لم أكن أعرفُ أنني أحبُّ القمر إلى تلك الدرجة. لطالما سرتُ تحته دون أن أرفع ناظريَّ إليه. وكثيراً ما خلدتُ إلى النوم ولست ألحظ إن كان هلالاً أم بدراً. وكم من مرّة جعلته يندثرُ تحت الستائر كي تأخذ ألوان إضاءة مصابيح الغرفة مداها ورونقها. فأقرأ كتاباً أو أمارس الغرام مع زوجتي.

همست كاترن: «للفراشات وجهَتان في الليل. نحو السماء مُهتدية بَضوء القمر. أو نحو النار. وبعد هذه الليلة لن يكون لها سوى وجهة واحدة. سارع الروائي «راين» إلى إخراج دفترَ ملاحظاته من جيب سترته ودوّن تلك العبارة دون أن ينتَبه أحدٌ إلى ذلك».

تحرّكت تلك الشفاه المقيتة للسكرتير فقال مازحاً: «نحن الآن في عام ٢٠٢١ ميلادية ولو جاء هذا الحدث بعد مئة عام أو يزيد لزعمنا أن تدمير القمر عملٌ إرهابي ولَثأرنا له باحتلال بلد نفطيٍّ ثري. لكنَّ إمكانيات الدول النفطية اليوم لا تخوّلها الوصول إلى القمر».

قمع الرئيس ضحكةً، فتبدّت على وجهه ابتسامة امُتصّتها قسماتهُ بعد أن ألقى بناظريه على وجه ابنته الحزين، ثمّ حاول مواساتهَا دون جدوَى. فنَهض وبادر إلى قرع كأس زجاجي بالملعقة كي يلفت انتباهنا رغم أننا كنّا صامتين، في حركةٍ مبتذلة توحي أن في جعبته شيئاً ما يقوله.

دعاَ الرئيس البروفيسور «ألفونسو» إلى إخبارنا بما تعتزم بعض الدول القيام به.

قال البروفيسور وهو يحاول شحن صوته بالشغف والتفاؤل:

«سيكون لكلّ مدينةٍ كبرى بقعة مُن

الضوء في سمائها وسيكون منقوصاً أطواراً ومكتملاً طوراً. أي هلالاً يمرُّ في أطوار حتى يبلغ البدر. كما حال ضوء القمر الحقيقيّ».

قاطعهُ «راين» قائلاً بنبرة ساخرة: «هل سيكون شبيهاً بإشارة استدعاء «بات مان» التي نراها في الأفلام. دائرة كبيرة من الضوء يلقيها مصباحٌ هائل على السحاب الهائم في سماء المدينة؟»

جلس البروفيسور وقد قطّب حاجبيه، فأردف «راين» وقد لاحظ أن الوقت لم يكن مناسباً لسخريته: «البدر كان من الأشياء القليلة التي توحّدنا. البدر مظلّة من ضياء تقي العاشقين أمطار ظلمة الليل الثقيلة. القمر غصنٌ انثنى يريد أن يعانق ما حطّ عليه من أحلام المُحبّين، وقيثارة أوتارها أهداب العاشقين النديّة.. القمر كسرة ضوء على مائدة الظلام السحيق. وبركة في صحراء الليل غسلت فيها الشمس ضفائرها.

وجوهرة يزيّن بها جُلُ الشعراء قصائدهم كلّما أرادوا الحديث عن الغرام أو عن السماء. وبعد الآن لن تحطَّ نظراتنا على الوجه الآخر للشمس. الوجه اللطيف للشمس الذي يمكننا النظر إليه مباشرةً دون أن تؤلمنا عيوننا».

كنتُ أظنُّ أن أحداً لن يتناول الطعام في تلك الليلة المشؤومة. وانتابني شعورٌ أن القمر ينزف نورهُ فوق أطباقنا وأن دماء القمر الفضّية تلطخُ كلّ شيء. الطعام ثيابنا. أيدينا.

كانت ليلةً حزينة ومفزعة بالنسبة لي. وكدتُ أغرقُ في أحلام اليقظة لولا أنَّ صوت الجنرال الجالس إلى يميني وهو ينتش اللحم عن العظم أعادني إلى الواقع. ها هم يأكلون ضوء القمر!!

كنا أنا و«كاترن» والملحن «جونثن» وحدنا نعبث بالطعام بشوكاتنا دون أن نأكل منهُ شيئاً.

أليس هناك أمورٌ أجدى لنقوم بها في الساعة الأخيرة لضوء القمر؟!. لو كنتُ في منزلي لكنتُ حتماً فعلتُ شيئاً سوى الأكل. ربّما كنتُ رقصتُ مع زوجتي تحت عين السماء التي ابيضّت لشدّة ما بكت رهفاً لقصص العاشقين المُدلَّهين. أو لعلّي كنتُ جلستُ على سطح المنزل أطوّق بذراعيَّ أطفالي على فراشٍ وضعتُه هناك. أقرأ لهم حكايات ما قبل النومٍ في ظلّ مرآة الشمس المفضّضة البهيّة. ربّما كنّا اجتمعنا نصلّي جميعاً كجسدٍ واحدٍ له عشر عيونٍ تبكي.

آهٍ.. أيها البدر يا رغيفاً خبزته السماء لتأكل منه عيون العاشقين، زاداً لمسافة حُلم. هلالك كُحلُ الشمس بجفن الليل.

ليس القمر سوى حين تعضّ السماء على شفتها الأخرى حزناً لفراق عاشقين. هل حقاً ستموت يا قمر؟! ألن نراك بعد اليوم؟!



ألن نرى هلالك ذلك المشط الذي سرّحت به الشمس شعرها قبل أن تذهب إلى النوم!

عاد صوتٌ غير صوت المضغ يمزّق الصمت. إنه الرئيس، يقول: سيغدو القمر رمزاً وسيعظمه الناس. ستصنعُ الكثير من دُمى الأطفال على شاكلة أهلّة وبدور. نعم سنرى القمر بعد زواله كثيراً كرسمٍ وكنقشٍ على الكثير من المنتجات.

ثم أردف ساخراً: ولن يتمّ إنتاج المزيد من أفلام المستذئبين السخيفة بعد اليوم.

وقال الجنرال بصوته العميق الذي يُشعركَ أن هناك بئراً في عنقه وليس حنجرة:

«يلزمنا الآن كمّياتٌ ضخمة من مناظير الرؤية الليلية والكشّافات الضوئية والقنابل المُضيئة فلقد أرسلنا نصف ما نمتلك على أراضينا من مناظير الرؤية الليلية إلى حدودنا مع المكسيك، لأن قطعان المهاجرين غير الشرعيين ستستغلّ الليالي الظلماء كي تندفع باتجاه أراضينا. لا بدَّ أن نقتل بضع عشراتٍ منهم على الحدود حتى يرتدعوا».

نهضت «كاترن» وسقطت دموعها. سارت مندفعةً خارج القاعة وكرسيّها قد أجفل من نهوضها فكاد يستوي على الأرض.

أراد السكرتير السمج أن يلطف الجو فقال مازحاً: دعونا ننظر إلى الأمور الإيجابية التي سينتجها زوال القمر. فأنا واثقٌ أن المُلحّن العبقري «جونثن» وآخرون من الفنانين العباقرة سيبدعون أعمالاً فنية غاية في الروعة. موسيقا أفلام سينما. لوحات. أغاني، ستصبح خالدة. ومن يدري قد يساهم تداولها في إنعاش الاقتصاد وبالتالي زيادة رفاهية الناس.

أخذ «جونثن» يرتجف وكأنَّ القنابل كانت تعتلجُ في صدره وليس في البدر فوقه. همَّ «جونثن» يغادر القاعة ولَكَمَ في طريقه إلى الباب، تمثالاً حجرياً إلى يمينه فسمعنا صوت عظام أصابعه تتكسّر.

أمال الجنرال رأسه نحوي وهمس في أذني قائلاً: شبّان هذه الأيام. إنهم أكثر الأجيال رومانسيةً. إن رومانسيتهم تجعلني أشعر بالغثيان.

كم هي مزعجة عادة كبار السن هؤلاء. ينحني باتجاهك ويدلي بثقة بتعليق ما وينتظر منك إيماءة بالموافقة على ما قاله، وكأنّه قرأ أفكارك وليس يقول لك سوى ما يجول في بالك. بينما كلامه يكون مُستهجناً على نحو يَخزُ الأذنين.

نَهَضتُ وقد تفتّحت في حنجرتي غصَّة. وغادرتُ القاعة وقد أظلم موطئ خَطوي. لم أعد قلقاً بشأن القمر. فإن كان القمر يحتضر فهناك شيءٌ آخر أكثر أهمية قد مات. تعبق في هذه القاعة رائحة تعفنه وتفسخه. كانت القاعة غارقة في الظلام منذ اللحظة الأولى. لكنني كنت أحتاجُ نور القمر حتى الاحتضار. لأرى كلَّ ذلك الظلام المُكدّس هنا.



٤- سباقٌ دائري

لطالما بدا لي كوكب الأرض جُرماً صغيراً بعيداً، مثله كمثل آلاف الأجرام الغافية على بساط السماء وسط هدهدة أنوار النجوم. لكن الآن وأنا على سطح كوكب

الأرض أشعر بعظمة جهلي وبساطة عقلي. وأعجب أنني لم أميّز درّة المجرّة عن حصبائها. سرتُ بضعَ خطوات على هذا الكوكب العظيم فوجدتُ كائناً عجيباً يركض حيناً، ويثب أحياناً، وكأنَّ كعب حذائه من جَمر. ركضتُ إلى جواره وسألته ماذا تكون؟ فأجاب: أنا الإنسان سيد هذا الكوكب. قلت له ماذا تفعل وما الذي ترومه من حركاتك الغريبة؟

أجاب: «أنا تقريباً في سباق. أنا أطاردهم وسأمسك بهم، لا أحد غيري يعرف قيمتهم لا تسألني عنهم فأنت لن تفهم أبداً. أمّا بالنسبة لحركتي الغريبة فعلّتها أن هذا المضمار مُقسَّمٌ إلى مربعات سوداء وأخرى بيضاء. السوداء لا يجب أن أقربها أما البيضاء تحلو فيها الخُطا. انظر إلى ذلك المربّع الأبيض مثلاً. إنه الجمال. انظر إلى المربع الأسود إلى جواره. إنه القبح. وذاك إنه الحق والأسود إلى جانبه إنه الباطل. وهناك أيضاً الخير وذاك هو الشر. لكل مربعٍ أبيض في هذا المضمار نظيره الأسود».

لم أفهم الإنسان، ولم أرَ شيئاً على الأرض، ثم أدركت أن تلك المربعات التي يتحدّث عنها لا توجد سوى في مخيّلته. كأنّه يريد ليرصف محيطه الذي يسمّيه مضماراً بألوان بدعه. حاولت أن أنبّهه لكن عبثاً كانت جهودي. قلت له ستبقى متأخّراً إن لم ترَ المضمار على حقيقته لكنه لم يُصغ لنصحي وتحدّاني أن أسبقه فقبلت التحدّيَ، وقبل أن أنطلق شدَّ انتباهي رجلٌ عجوزٌ يركض إلى جوارنا له ساقٌ طويلة وأخرى قصيرة، له عينان إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، وأذنان غير متسقتين. دنوتُ منه وسألته. من أنت؟ فأجاب: «أنا العدل» قلتُ: «وما لساقك اليُسرى وعينك اليُسرى وأذنك اليُسرى»؟ فأجابني: «هو الإنسان من أراد لي هذا وهو يركض أبداً إلى يميني ويقنع نفسه أنني سليم. ولو لم يُصيّرني مشوّهاً لعجز عن مجاراتي». تركت ذلك الأعرجَ وانطلقت مُخلّفاً الإنسان ورائي فوجدت فرساً أصيلة ضخمة ممشوقة يعشقها النظر. لها ذيلٌ طويلٌ يتموّجُ كنهر من فضة يسيل من مآقي البهاء.

دنَوتُ منها وسألتها من أنت؟ فأجابت: «أنا الحريّة»! قلتُ: يا لجمالك وَجلالك!! إن صُحبتك أحلى صحبة وأرى َالخلائقَ على صهوتكَ تنظر إلى الأفق بعيونٍ مُتألّقة. قالت: «لكنني أَفتقد أحد الخلائق وأعلم أنه يفتقدني. وهو منذُ أمد بعيد يطاردني لكن واحسرتاه لم يستطع إلا الإمساكَ ببضع شعرات دقيقة من ذيلي، لكنه يحسب نفسه دنيّاً من نَاصيتيَ!!». قلتُ: «لا بدَّ أنك تقصدين الإنسان. لم أعرفه إلا منذُ بعض الوَقت ورغم ذلك أشفق عليه كثيراً. سأعود إليه وأحدثه عن جمالك عسىً أن يحثَّ الخطا نحوك ويستبصر إنَ كان يحسب أنه يمسكُ بناصيَتك».

عدتُ إلى الإنسان فوجدَته يطاردُ طيفاً خلاّباً بديع الألوان، استمدَّ ألوانه من المادة وما ورائها، يطوّقهُ بذراعيه ويبتسم، لكن الطيف يتحرّك تاركاً الإنسان وعيناه مغمضتان وفمه يكشف عن أسنانٍ ضاحكة. ما أن فطن الإنسان أن الطيف قد بدَّلَ مكانه حتى ركض خلفه وسعى عظيم السعي محاولاً تطويقه مجدّداً دون أن يعلم أن الأطياف لا تطوق ولا تحتجز، أي أنه لا يمكن امتلاكها.

دنوتُ منه وسألته: ما هذا الطيف؟. فأجاب:

«هذا ليس طيفاً. إنها السعادة».

وقبل أن أتمكّن من قول شيء فاجأني مشهد سلحفاة هائلة تحمل على ظهرها قصراً. سألتُ الإنسان عنها فسخر منها ثم قال: «هذه لا تستهويني كثيراً ولن ترى على المضمار أبطأَ منها وهي لست صعبة المنال، فهي خيار الكُسالى ومحدودي التفكير». قلتُ: يا لها من سلحفاة عملاقة! تُرى على ماذا تقتات؟.

أجابني: «إنها تقتات على أشجار الطموح. إنها سلحفاة القناعة. ورغم أنها تحمل على ظهرها قصراً، فلستُ أكترث لها. القناعة الوحيدة التي يمكن أن أستكين لها هي قناعتي بأنني دوماً أستحقُ الأفضل أيّاً كان ما بين يديَّ».

أظلَمَ المضمارُ علينا على حين غرّة، وهبط رخٌّ عظيم، فخفتُ بينما نظر الإنسان إلى الرخّ نظرةً واثقة غريبة لم أفهمها. ثم قال: «هذا هو السلطان والقوّة». قال الرخُّ بصوت ملأ ما بين الأرض والسماء: «أطعمني أيها الإنسان. هيّا أطعمني واركب على ظهري». أجاب الإنسان: «لكنك تطلب طعاماً يعزُّ عليَّ تقديمه. فما المقابل؟». قال الرخ:

«أولاً ستنسى تلك السلحفاة الغبية وستنثر براعم طموحك في السماء شموساً ونجوماً.

ثانياً: إن امتطيتَ ظهري لا حاجة لك إلى ذلك العجوز الهزيل الذي تسعى جاهداً لمواكبته، فمن لديه البراثن النازعات الخاطفات لا حاجة له لأرجل ذلك الأعرج. ما الذي يعجبك فيه؟. عينه الصغيرة؟. أم عينه الكبيرة؟. حين ترتقي في السماء الجميع سيبدون صغاراً سواء أكانت عيناك كبيرتين أم كانتا صغيرتين، وقد يختفي الجميع فلا ترى إلا نفسك متّخذاً القمر مرآة. ولا تقل لي أن أذنيه هي سبب افتتانك به. صدقني ستكون مُسمعاً لما تريد وأعلى من أن تسمع شيئاً سوى نسائم العلياء تترنّم بمجدك.

ثالثاً. سأحمل الفرس التي تعشقها بين براثني كي تكون حكرك المُحتكر. إن شئت شاركتها الخلائق وإنَ شئت حُلت بينها وبينهم.

رابعاً، وأخيراً. طيف السعادة. سأنثر حوله بعض ريشاتي! فإذا تحرّك تحرّكتُ معه، فهو كالنسمة العابرة، ومع الزمن سيصبح كل تركيزك على ريشاتي الراقصة وبما أن طيف السعادة لا يستطيع الحركة دون أن يثيرها حوله فستغدو جزءاً منه وسيغدو جزءاً منها. أجابه الإنسان: «بعد ما سمعته منك لا أستطيع إلا وهبك ما تريد». ثمّ انتزع الإنسان قلبه وأطعمه للرخّ وامتطاه وطار يصيح ويهتف مزهوّاً. بدا كأنه يتكلّم بلسان بني الإنسان لكنني لم أستطع فهمه ولا أخال أنني سأفهمه يوماً. لم يبرَّ الرخ بجميع وعوده، لكنّ الإنسان انشغل بصنع مربّعات في السماء. مربّعات سوداء ومربّعات بيضاء وأخرى صفراء وحمراء وخضراء.. إلى آخره..

ووضع عليها نقوشاً وصوراً ورسوماً وعلّقها على صوارٍ وأعمدة وسمّاها رايات، وأشار إلى بعضها وقال: «هذا شر. هذا عدو»، وأشار إلى رايات مجاورة وقال: «هذا خير. هذا صديق». وظلَّ يبدِّلُ الأسماء كلّما اقتضت ذلك مصالحه حتى تخضّبت السماء وتخثَّر ضوء كلُّ نجمٍ ومنار.

دار الإنسان على دوائر الزمان وهو على ما أخبرتكم به من سلوك. فواحسرتاه. أعظم مخلوقٍ بتناسق خلقه وأعظم عبثيةٍ بناتج عمله.



من الحكايات التي رصدت من الشرفة

شميسة غربي❖

جالس على كرسيه المتحرّك؛ في الشرفة العريضة، يستعدّ لِمَلْءِ رئتيْه بالهواء النّقيّ.. يستعدّ ليعيش حكاية جديدة من حكايات الشارع الطويل، حيث البشرُ في ذهاب وإياب، تَستَعْبدُهُم الحرَكة، ويجْري بهمُ الزّمَن بيْنَ مشاغل الحياة، هذا صاعدٌ، وذاك نازل، هذا يائس، وذاك آمل، هذَا أعمى، وذاك بصير، هذا عنترة، وذاك أرْنبة! وبين هذا وذاك، وَقورٌ هَادئُ الخطوات، مُشاغبٌ؛ نزق في مشْيته؛ وكأنّه يسْتعجل فوْضى الأشْياء ليقطف راحته، وينْعَمَ في هذيانه! آخرَ؛ يُراقب المارّة؛ متى تحين فرصة السطو على حقيبة امرأة، أو جيوب شيخ طاعن في السنّ بعد أن خرج من مصلحة تقاضي المعاشات.

❖ سيدي بلعباس/ الجزائر

كعادته؛ ارتخى «أيْمن» وراح ينْظر إلى أفواج المارّة الذين يقطعون الشارع الكبير في اتجاهات مختلفة، وبهُموم مُتناثرَة.

بحَثَ بعَينيْه الوَاسعَتيْن عن «ندى الصباح» بين الأقدَام المُتدفّقة؛ علىَ أرْض؛ عددُ قبورها أضعاف عدد أحيائها.! مدّ يدهُ إلى كأس الشاَي الدافئ وتناول حبّاتٍ من المكسّرات؛ يُملِّحُ بها ريقه؛ فقد جفّفتْهُ جرعات الأدوية منذ شهور، عندما قرّبَ كأس الشاي منْ فيه؛ ظهرتْ «ندى الصباح» - كما كان يحلو له أنْ يُسمّيها - فتاةٌ من الأفارقة السّود؛ الذين غزوا هذه المدينة بأعداد مُعْتبرة، حتى أصبحت المدينة تغُصُّ بهمْ، فلا يكاد يخلو شارع أو حيٍّ منهم، وكأنّهم خَطّطوا للتّوزُّع المُنَظّم في أفْوَاج، تتناوب على مدار الأسبوع بَين المحلات والأسواق والحدائق والمساجد وحتى بين المقابر يوم «الجمعة»، حيث يُلاحقون زُوّارَ المقابر للفوْز بما يُتصدَّقُ به على الأمْوات، ونجحوا في مسْعاهم، حتى أصْبحت العلاقة بينهم وبين كثير من الزوار؛ علاقة طيبة؛ دفعت بالطرفيْن إلى الاتفاق على اللقاء في الجمعة المقبلة، من أجل أخْذ التبرُّعات المختلفة: ثياب، أفرشة، أغطية، أوانيَ، حقائب بالية، إضافة إلى الصدقات الرئيسة؛ والمتمثّلة في التمر والفطائر وقوارير الماء وبعض الحلوى للصبيان.

ظهرت «ندى الصباح» بلونها الأسود البرّاق؛ تحمل بين يديْها الصَّغيرتيْن وعاءً بلاستيكياً تجْمعُ فيه الصدقات، ابتسمَ طرَباً، وراح يتابع حركاتها وخطواتها وابتساماتها وقد لمعت أسنانها لمعاناً مُلْفتاً. اليوم، تغيّر لوْنُ الوعاء وحجْمه أيْضاً، إنَه بنفسجي وأكبر من وَعاء الأمس، رأسُها الصغير، نصْفُ مُغَطّى بخمار مزركش، داعبتْ أطرافهَ أوتار البلى، فبهُتَتْ ألوانه، وانسلّتْ خيوطه، كانت تتحرّك في كلّ الاتّجاهات، تقطع طريق المارّة وهي تبسط الوعاء أمامهم، عندما تتوقّف المركبات امتثالاً لإشارات المرور؛ يُهرْول الطيف المتحرّك، تمدُّ ذراعيْها الهزيلتيْن وهما تعانقان الوعاء البنفسجي داخل نوافذ المركبات، تفترّ شفتاها عن كلمات، تسقط بعض الصدقات في الوعاء، تُغافلُ المارّة أو تُغافل «اللحظة»، ثمّ ترمي بالصَدقات في جيب فستانها الطويل، حالُه من حال الخمار، صِنْوان في التآكل، وانطماس اللون.

يُنْهي «أيمن» كأس شايه؛ رنّات هاتفه؛ تُلْهيه عن مُتابعة حركات الفتاة، ينظر إلى الرقمَ.. إنها عمّتُه، تسأل عنه في كلّ حين، تتفقّد أحواله، يعرف مدى حبّ هذه العمّة له، يعرف مدى انشغالها بشأنه، أنْهَى «أيمن» المكالمة؛ بضحكة كبيرة، سببُها نُكتة جميلة حَكتْها العمّة.. فَهمَ أنّها تريدُ أن تُخفّفَ عنْه، وَدّعَها وهُوَ مُمْتَنٌ لها، وضع الهاتف جانباً، وبدأ يتابع حركات «ندى الصباح» في هذا الصباح المشرق، تظهر كالظلّ تارة، وتختفي بين الجموع تارة أخرى، تتسلّل بين السيارات والشاحنات بقَدَمَيْن ونعليْن مُهْترئيْن؛ تخرج منهما أصابع طَويلة، مُغْبَرّة، تُلامسُ التّرَاب، بانْشراح؛ تتفقّدُ الفتاة جيْبَ فسْتَانها، تسْتَشْعرُ امْتلاءَهُ وربما ثقَله، تضعُ يدها الَصّغيرة بإحْكام على فتْحة الَجيب، يُتَابعُها بعيْنيْه الواسعتيْن، تغيبُ لفترةَ، ينْتظرها حتّى تعود.

يُحَدِّث نفسه: «لعلّها ذهبتْ لتضع

ما جمعتْ بين يديْ أسرتها، فعلاً إنها صغيرة ومسؤولة!» لحظات وتعود الفتاة، تعود ومعها طفلٌ لا يتجاوز الثامنة من عمره، يتأمّلها «أيمن»، يلاحظ أنها استبدلت النعليْن بشبشب أحمر قديم، يبدو كبيراً على مقاسها، تجُرُّهُ بعناد كلّما حاول التملّصَ من قدميْها الصغيرتيْن، لعلّها صادفتْهُ بجانب سور قُمامَة الحيّ، أيْن اعتادتْ بعض النساء التخلّص من الأشياء القديمة، حتى لو كانت ما تزالُ صالحَة للاسْتعْمال.

وقفتْ تتحدّثُ مع الطفل، وكأنها تُلَقِّنُهُ آليات الحرْفة! تارة؛ يهزُّ الطفل البريء رأسه الصغير الخَالي إلا منْ شُعيْرات خشنات مُبعْثرات مُدوّرَات، وبيدهِ قطعَة خبْز كبيرة؛ يسِيل مرَقُها على مرْفقيْه كَلّما وضعها بيْن أسْنانه النّاصِعة البياضَ.

تثاءب «أيمن» وشبّك أصابع يديْه ووضعهما وراء رأسه وغاب في ملاحقة المنظَر، عندما أنهى الطفل خبزه؛ ناولتْه الفتاة وِعاء بلاستيكياً أصفر، أصغر من وعائها البنفسجي، ثمّ أشارتْ بيدها، تدُلُّهُ على الطريق الذي يجب أن يتواجد فيه طوال اليوم، هرول الطفل ضاحكاً، مسروراً وكأنهَ تسَلّمَ القيادة.!

وقفتْ «ندى الصباح» تُعَدّل من شأن خمارها الذي كاد يسقط من على رأسها، تُثبّتُهُ بإصرار رغم أنه أصبح شبْهَ خمار، بعيْنيْن حادّتيْن؛ التفتت يميناً وشمالاً، أخرجتْ قَارورة ماَء صغيرة، أدْنتْها منْ فيها، وبدأتْ تشرب والقطرات تسيلُ عَلى صدرها وتُبلّلُ فستانها، تُحاول أنْ تمسح بيدها الأخرى ما تقاطر، تغلق القارورة بإحكام، ثمّ تبدأ نشاطها من جديد، الوعاء البنفسجي في وجه المارّة، منهم مَنْ يتفضّل بما تيسّر، يضعه في الوعاء، منهم مَن يتجاهل الفتاة ووعاءها، ومنهم مَنْ يذهب ثمَّ يتدارَك؛ وكأنّه غفل عن شيء؛ فيلتفتُ ويعودُ بعد بضْع خطوات؛ يضعُ ما في يمينه؛ وينْصرفُ وقدَ تلألأت بسمة الفتاة شكَراً وامتناناً لهذا الكريم النبيل.



ثآليل الشارع الطويل..

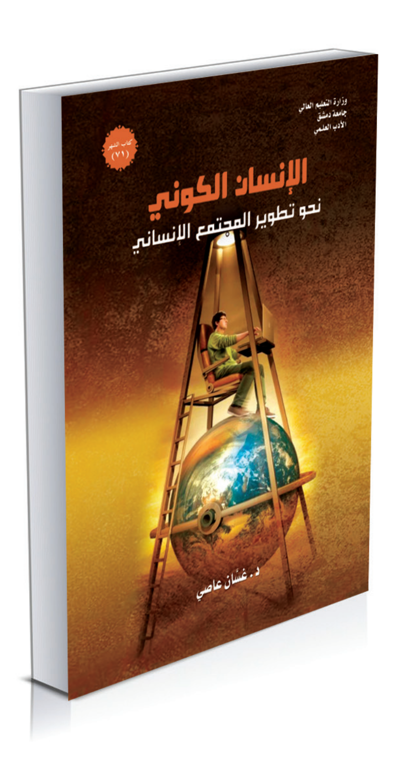
وهو يتابع حركات «ندى الصباح» يُفاجئهُ صُراخ امرأة، يتصاعد من الجهة الأخرى المقابلة للصيدلية الكبيرة، تتجمهر الجموع، يكثر اللغط، تتلاحق السيارات في طابور طويل، يتعقّدُ نظام المرور، تحْضرُ الشرْطةُ، تفضُ الاكتظاظ، يظهر رجلٌ غاضب؛ يُلَوّحُ بـ: «كارت» الترخيص في الهواء، هيجانُهُ وما يتلفّظ به منْ وعيد وتهديد وكلمات نابية؛ كلّ ذلك؛ يُثْبتُ أنه من المُدْمنين، تناهى إلى مسمع «أيمن» من الشرفة؛ أنه ضرب البائعة في الصيدلية، لأنها لم تُعْطه ما يطلب، رغم امتلاكه للوصفة الطبية و«كارت» الترخيص، أفهَمَتْهُ أن هذا المطلوب قد نفد، تعنّتَ، أقسَمتْ له الأيمان، لسوء حظّها؛ كانتْ وحدها في المحلّ، جرّها، رفسها، واقتحم المكان كالثور الهائج، يبحث بنفسه بين صفوف الأدوية، جرت المسكينة نحو الشارع وأنفها ينزف، تصرخ وتستنجد.

رُميَ الرجل في سيارة الشرطة المصفّحة، وهو يغلي غليان الماء في القدر، شيئاً فشيئاً؛ بدأ الانفراج يتحقّق في الشارع... يتذكّر «أيمن» أن مثل هذه الحادثة؛ قد سبق ورآها منذ شهور، وقعتْ ليلاً، ولحُسْن الحظ؛ كان البائعُ المناوبُ رَجُلاً؛ تسلّطَ عليْه اثنان ممّنْ فقدوا السيطرة على النفس، ومع ذلك استطاع أن يُخرجَهما من المحلّ بأقلّ الأضرار، وتحت أنظار عُشّاق السهر على كراسي الشارع الطويل الذين سارعوا إلى مُساعدته.

تفقّد «أيمن» «ندى الصباح»، يمسح المكان بعيْنيْه، أين هي؟ لعلّها خافتْ؟ لعلّها غيّرت المكان؟ أين هي؟ تساءل: «ولماذا أبْحثُ عنْها ...»



حاول أن يُوهمَ نفسَهُ بأنّهُ غيْر مُهْتمّ! لحظات وعاد يبحثَ، انتابه القلق، غمره القنوط، ضاقتْ به الشرْفة، يريد أن يُطلّ بكامل جسمه على أبْعَد مكان في الشارع، ينْظر إلى رجليْه المُتصلّبَتيْن أسفَل الكرسي المُتحرّك، يَشعر بحُمّى تأكل رَأسه، تشْخَصُ عيْناه، يضع يديْه على حافة الكرسيّ، يقطع الأنفاس، يعضُّ على شفتيْه، يُغْمض عيْنيْه، يضغط بكلّ قوّة على حافّة الكرسي، يتريّث وكأنه يستعد للّحْظة... ثمّ يئنُّ أنيناً خافتاً مُتلاحقاً، و.. يقف على قدميْه! يتصبّبُ عرَقُه، يحمرّ وجهه، تنتفخ أوداجه، يتسمّر في وَقْفته، يراها من بعيد؛ والوعاءُ بيْن يديْها، تمْشي بخطواتها الواثقة... يشْعُرُ بالانْشراح، تمنى لوْ ترفع رأسها قليلا لتراه، ليلَوّحَ بإحدى يديْه نحْوَها.



قراءة في كتاب الإنسان الكوني

نبيل فوزات نوفل

قد يبدو للبعض ضرباً من العبث أن يكتب كاتب عن الخيال العلمي، ويحلم بعالم جديد خالٍ من الاستعباد والظلم والهيمنة، خاصة ونحن نعيش عالم العولمة المتوحّشة والهيمنة بأبشع مظاهره، ولكن هناك من يتمتّعون بروح المغامرة والتحدّي والرغبة في اكتشاف المجهول وتصوّر المستقبل، وهم قلّة في العالم عامّة ووطننا العربي خاصة، وهم من تصدّوا لموضوع صعب ومعقّد أدب الخيال العلمي.

في الواقع إن تحديد تعريف واف وقطعي لمفهوم أو اصطلاح (الخيال العلمي Science Fiction) يعدُ من القضايا التي لم يتم الاتفاق عليها بشكل نهائي، فثمّة الكثير جداً من التعريفات، إلا أن القاسم المشترك لكلّ تعاريف أدب الخيال العلمي هو ذلك الذي يتفق على اعتبار العلم أو ما هو علمي منطقي، وليس بالضرورة واقعي تمّ تجريبه، عنصراً جوهرياً في تكوين أي نتاج ينتمي إلى هذا التصنيف، إلا أنها تبقى في النهاية مبنية على نتائج الحقائق العلمية المعروفة وتكون افتراضاتها مستساغة ومطروحة بشكل مبسّط خال من تفاصيل تعقيدات وتشعّبات الشروح العلمية، وهو في كلّ الأحوال صورة من الأدب الإمتاعي بغضّ النظر عن درجة المعرفة العلمية التي قد يكون الخيال العلمي قائماً عليها، فهو يهتمّ بنقض النماذج العلمية الثابتة، وتوسيع نظامها، وإعادة النظر فيها، واتخاذ نهج ثوري إزاءها ويعرفه الدكتور طالب عمران بأنه «الانتقال عبر آفاق الزمن، على أجنحة الحلم المُطَعَّم بالمكتسبات العلمية، وغالباً ما يطرق مؤلّفوه أبواب المستقبل بتنبّؤاتهم دون زمن محدّد، فهو نظرة واسعة إلى العالم يدخل فيها العلم فيمتزج بحقائقه مع خيال الكاتب، ترسم أحداث تنقلك إلى المستقبل، أو الماضي السحيق، فتثيرك وتذهلك. والرابطة بين الخيال والعلم رابطة مؤطّرة متماسكة، ومن يكتب في هذا النوع من الأدب لن ينجح دون ثقافة علمية ممتازة يستخدمها في أحداث قصصه ورواياته»، ونتفق مع ما يراه الدكتور «ويلز ميكنيلي» من جامعة كاليفورنيا؛ بأن البطل الحقيقي لأية قصّة أو رواية إنما هو الفكرة الجديدة وليس الشخصية. فإذا كان هذا الرأي ينطبق على عموم أدب الرواية والقصّة فإنه يبدو أكثر انطباقاً فيما يخصّ سرديات الخيال العلمي.

ولقد صدر عن وزارة التعليم العالي - جامعة دمشق، كتابٌ جديد بعنوان الإنسان الكوني، نحو تطوير المجتمع الإنساني للكاتب الدكتور غسان العاصي في إطار سلسلة الأدب العلمي التي تصدرها جامعة دمشق تاريخ كانون الأول 2020م. ويمكننا أن نوجز الأفكار التي يطرحها ومناقشتها من خلال حوار خيالي مع أحد الأصدقاء بالآتي:

1- يبدأ الكاتب الدكتور غسان عاصي كتابه بالحديث عن قصّة وجود الانسان على الكوكب، فيرى إنها بدأت منذ أكثر من مئة ألف عام، حيث كان الناس البدائيون يعيشون في شرق إفريقيا، ثم انطلقوا منذ حوالي سبعين ألف سنة باتجاه شبه الجزيرة العربية على شكل جماعات صغيرة، ثم قبائل، ومنذ حوالي عشرة آلاف عام انطلقت الثورة الزراعية من منطقة بلاد الرافدين في الحضارة السومرية، ثم انتشرت في أنحاء العالم فساهمت في استقرار الناس البدائيين وإنشاء التجمّعات البشرية الضخمة، ويرى الكاتب أن البشر قد تطوّروا علمياً بشكل مثير للدهشة، وانتقلوا من كونهم مثل باقي الحيوانات ليصبحوا الملوك المسيطرين على الكوكب كلّه ويصبح عددهم حوالي 7,5 مليار نسمة (ص6).

2- إن أغلب الإنجازات التي قام بها البشر كانت نتيجة تعاون عدد كبير من البشر من مناطق مختلفة (ص7)

فعزّز التواصل بين الناس بنية الدولة، حيث جرى ترسيخ حكم الدولة من خلال المنظّمات الدولية، وفي مقدّمتها منظمة الأمم المتحدة التي تتعامل مع المجتمعات البشرية حول العالم على أساس كيانات الدول (ص8).

3- إن ما يحصل حالياً هو تطوّر استراتيجي في الحضارة الإنسانية في إطار العولمة الرقمية.

4- في هذا الكتاب يبحث الكاتب موضوع تطوّر المجتمع الإنساني من خلال تأسيس كيان سياسي موحّد يشمل جميع البشر على المستوى العالمي، ويناقش الحاجة إلى ترقية الإنسان الفرد على صعيد الوعي والفكر والأخلاق، كي نتمكّن من بناء ذلك الكيان السياسي العالمي، حيث يستعرض في الفصل الأول من الكتاب أهم الإشكاليات المجتمعية والإنسانية التي يعيشها البشر حول العالم حالياً، وخصوصاً في الدول المتقدّمة إضافة إلى شرح أخطر التحدّيات العالمية التي ستواجه البشرية مستقبلاً وفي الفصلين الثاني والثالث يتطرّق لتحليل تلك الإشكالات والتحدّيات الإنسانية على الصعيدين العالمي والشخصي. ويناقش في الفصل الرابع مجموعة من المقترحات التي يمكن أن تساهم في حل تلك الإشكالات على الصعيد العالمي بغية التخلّص من سلبيات النظام العالمي الحالي، وعيش الحياة بالطريقة التي يراها مناسبة. وفي الفصل الأخير، يقدّم الكاتب عدداً من الحلول الأولية المقترحة لبناء الإنسان الواعي والكبير وهي تهدف إلى بناء ثقافة إنسانية جديدة، يكون فيها الإنسان مسلّحاً بالوعي العميق والذهن المنفتح بغية التواصل والتعاون مع جميع الناس حول العالم وهو ما يدعوه بالإنسان الكوني، وهو الشخص الذي تمكّن من الخروج من قوقعته الثقافية الصغيرة وتجاوز الانتماءات العرقية والوطنية والدينية الضيقة وارتقى بتفكيره على المستوى الكوني، لا يفرّق الإنسان بين الدول أو الثقافات أو الأعراق. بل يرى البشرية كلّها مجموعة واحدة من البشر تعيش على كوكب الأرض، ومع ارتقائه الفكري يتحلّى بالوعي والحكمة والعقل الراجح والقلب الكبير، إنه يسعد بمحبّة الآخرين ومساعدتهم، ويعدّ نفسه جزءاً لا يتجزّأ من البشرية والطبيعة والكون (ص9).

5- إن الوضع العالمي اليوم يسود فيه التلاعب بعقول الناس وسحق مشاعرهم فأصبح الوضع كارثياً نتيجة انتشار الجهل، وغياب الوعي، وتراجع المرجعيات الأخلاقية والإنسانية الراقية. ضمن هذا السياق يعرض الكتاب مقترحاً لتنمية الوعي لدى جميع البشر بحقيقة وجودهم وبقيمة الحياة التي يعيشونها، ويعوّل الحل المقترح على تأمين الوفرة في الموارد اللازمة للبشر، فالنظام العالمي الموحد هو النظام الطبيعي.

6- ففي الفصل الأول: بعنوان إشكاليات حالية وتحدّيات مستقبلية للبشرية، يرى الكاتب أن العدوين اللدودين للإنسان هما الزمن والجهل، فالزمن يمضي ولا يتوقّف وهو يدفع الإنسان رويداً رويداً باتجاه قبره، فهو قدر محتوم. أما الجهل فهو رأس الثالوث الأسود مع الفقر والمرض وهو بمثابة العمى الفكري الذي يقود صاحبه إلى التهلكة دون أن يدري. لذلك فالجهل هو أساس الكثير من المشكلات،

ويجيب عن سؤال لماذا الناس ليسوا سعداء رغم توفّر كلّ وسائل الرفاهية حتى في أكثر البلدان قوّة وتقدّماً، ويرى الكاتب أن الذكاء وتلك المعرفة الواسعة لم تمنع هؤلاء البشر من القيام بتصرّفات عبثية تهدّد وجودهم مثل الصراعات الاقتصادية الشرسة، الحروب وتطوير أسلحة التدمير الشامل، تخريب البيئة واستنزاف الموارد الطبيعية، فالإنسان المعاصر يجهل نفسه وحقيقة وجوده، وهو غارق في الأوهام من أخمص قدمه حتى قمّة رأسه، لدرجة يفقد الأمل ويعيش الناس حياة عمياء.

7- هيمنة سلطة المال والقوة العسكرية بشكل رئيس، ولم نخرج بعد من الغابة، إنه قانون الغاب الذي يفرض سلطته على العالم اليوم، إن الغريزة ما زالت تحكم «المتحضّر»، حيث إن الدول الرأسمالية ترى مصالح الشركات الكبرى مصلحة وطنية بامتياز، والولايات المتحدة الأمريكية هي أكثر دولة تنفق على السلاح حوالي 732 مليار دولار سنوياً، ويورد قول للمفكّر اليهودي الأمريكي «نعوم تشومسكي» في كتابه (مَنْ يحكم العالم؟) يقول: إن الولايات المتحدة وحلفاءها الغربيين حريصون على القيام بكلّ ما بوسعهم لمنع قيام أي ديمقراطية حقيقة في الوطن العربي»، حيث أهم الإشكاليات التي يعاني منها البشر حالياً: يلخّصها بالآتي:

❖ طبيعة الإنسان التي تنشد دائماً المزيد من الثروة والمتعة والسلطة، ومن العوامل التي تؤجّج الجشع عند الإنسان: مقارنة وضعه مع وضع أشخاص آخرين، ممّا يولّد لديه الإحباط والكآبة وشعور المرء بأن واقعه أقل بكثير مما يستحقّه وتركيز الشخص على معالجة المشكلات والقضايا الشائكة، ويغفل عن المزايا الكثيرة التي تتوفر له.

❖ إعطاء القضايا التي نداقع عنها قيمة أعلى من قيمة الإنسان.

❖ التضاد المستحكم بين أصحاب القضايا المتناقضة والمتنازع عليها في الفكر والمصالح.

❖ الانشغال بالوسائل على حساب الأهداف وأصبحت الوسائل هي الأهداف.

❖ إن قمّة الغباء أن تعمل في عمل لا تحبّه من أجل كسب الكثير من المال، وتجني المال كي تستطيع متابعة ذلك العمل بالمحصّلة إنك تعمل ما بوسعك كي تعيش في الشقاء، إن الناس الأكثر سعادة ليسوا بالضرورة أولئك الأشخاص الذين يملكون كلّ الأشياء وأفضلها، بل هم أولئك الأشخاص الذين يستطيعون استخلاص الأفضل مما يتوفّر لهم في الحياة.

❖ التفكّك الاجتماعي والمشكلات النفسية، ثمّة مشكلات نفسية تتضمّن التوتّر والإحباط والقلق، وينجم عنها لجوء الناس إلى الإدمان على الكحول والمخدّرات والأدوية المضادّة للاكتئاب، حيث غالبية الناس لا يقدّرون أنفسهم حقّ قدرهم، ولا يثقون بأنفسهم. وذلك بسبب تربية الطفل وتأنيبه والقول له إنه لا يعرف، أنت كسول، وهذا يؤسّس لعدم حب المرء لنفسه وضعف ثقته بنفسه حيث يقضي الكثيرون من الأشخاص عمرهم وهم يلهثون خلف اعتراف الآخرين بقدراتهم الجيدة، وأيضاً توقّف الناس عن الإيمان بنظام دولتهم والثقة به، وهي عدم قناعة الكثير من الناس بأسس حضارتهم ومبادئها

وقيمها الأخلاقية والدينية والأيديولوجية، وهذا أمر خطير يهدّد كيان الدولة وتماسكها وذلك بسبب عدم اكتراث القائمين على النظام بهم، ويرون الاهتمام الحكومي منصبّاً على دعم الشركات ورجال الأعمال أصحاب رؤوس الأموال الضخمة، لقد أضحى الناس عبيداً للنظام الذي بنوه بأنفسهم، انتقال الناس للتركيز على تأمين مصالحهم الشخصية ولو على حساب الآخرين، وهذا يضعف الانتماء الوطني ويفكّك الروابط العائلية والأسرية وتنامي الجشع وحب السيطرة في المجتمع، ما يؤدّي إلى ضياع المجتمع ولا يعرف أفراده كيف يعيشون بسلام وسعادة، وبشكل عام يعود ضياع المجتمع وبؤسه إلى وقوع الناس في مصيدة الغريزة، وبالتالي صار الناس اليوم ليسوا سعداء، وهناك مؤشّرات خطيرة تنذر بانهيار النظام العالمي، مع التأكيد أن ما يحصل بين الدول في لعبة المصالح والسيطرة والنفوذ هي اللعبة القذرة نفسها التي تجري ضمن المجتمع الواحد بين أصحاب النفوذ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، لأن أصحاب النفوذ يحاولون السيطرة على الشعب متسلّحين بمخالب الجشع وأنياب الأنانية التي لا ترحم (ص26).

8- هناك تحدّيات عالمية خطيرة تواجه البشرية، منها: العنف والحروب وتغيّر المُناخ والفروق الكبيرة بين الفقراء والأغنياء والأوبئة (كورونا) والتقانة، حيث من الأسباب الرئيسة التي تدفع البشر لدقّ طبول الحرب، الجهل وغياب الوعي، والجشع وغياب قنوات التواصل، حيث تنفق الدول الغنية على الإنفاق العسكري 2 تريليون دولار سنوياً، في حين هناك ملايين الفقراء يموتون جوعاً، وبالتالي يؤكّد الكاتب على عدم إغفال تحدّي التطرّف والإرهاب، حيث التطرّف يشمل جميع الديانات والعقائد، وأن المنافسة الاقتصادية العالمية تساهم في تعميق الفجوة بين الفقراء والأغنياء بسبب هيمنة الأثرياء على الحكومات وخاصة في أمريكا، فصارت مصالح الشركات الكبرى أهم من مصالح الشعوب. ويرى الكاتب أن من التحدّيات أيضاً تحدّي التقانة المزعزعة حيث يمثّل الذكاء الصنعي والتقانة الحيوية تحدّياً كبيراً للبشرية، إذ تزداد الدول التي تسيطر على التقانات الجديدة ازدهاراً وثراء في حين أن اقتصادات دول كثيرة ستنهار لأنها لن تتمكّن من منافسة الدول الأخرى مما سيزعزع الاستقرار العالمي، ومن هذه التقانات التجارة الإلكترونية، والخدمات المباشرة في النقل والفندقة، حيث تؤثّر هذه التقانات سلباً على بنية المجتمع من خلال النتائج الخطيرة في تشكيل فئة من المجتمع غير لازمة، ومن الأخطار التي تهدّد المجتمعات الاحتلال بالمعلومات: المعرفة البيولوجية + الطاقة الحاسوبية + معلومات = قدرة على قرصنة الناس، حيث يتمثّل الخطر في قدرة أنظمة المعلومات الذكية على جمع معلومات عن أي شخص في العالم، بحيث يتمكّن القراصنة من التلاعب بأفكار ومشاعر الناس، ويمكن أن يستفيد من هذه القرصنة الحكّام الديكتاتوريون التي ستمكّنهم من معرفة ماذا يفكّر الناس ومواقفهم السياسية، ما يؤدّي لتصفية المعارضة والتعرّف على ما يملكه المواطن وقدرات الناس. بالمحصلة



يصبح كلّ الناس عبيداً للسلطة المتمثّلة بأصحاب المال والسياسة، ومن المتوقّع أن تتمكّن التقانة الحيوية بمؤامرة أنظمة الذكاء الصنعي من إعادة هندسة النظام البيولوجي للإنسان (ص40)، حيث سيجري استخدام التقانة الحيوية في تعديل النظام البيولوجي للإنسان، وكذلك سيتم إدخال عناصر غير طبيعية مثل الدارات الإلكترونية أو الحيوية في جسم الإنسان، وقد بدؤوا بذلك فعلاً، ومن المحتمل أن يؤثّر تدخّل الإنسان في تغيير داخله إلى آثار سلبية ومدمّرة على المستوى الإنساني، وفقدان الإنسان الجديد لأبعاد إنسانية مهمّة مثل: التعاطف والتواصل الاجتماعي والذوق الجمالي والأبعاد الروحانية، وهكذا من المتوقّع أن يتلاشى الناس الطبيعيون خلال قرنين حيث سيكون الناس أذكياء جدّاً بيد أنهم بعيدون جدّاً عن الإنسانية، ومن التحدّيات، الديكتاتورية الرقمية، حيث الأنظمة الذكية هي التي ستقرّر ما العمل الأنسب، ستقرّر مَنْ الشخص المناسب للزواج، وما نسبة الفائدة المناسبة للبنك المركزي في دولة ما... إلخ، هنا تصبح التقانة هي المسيطرة وصاحبة السلطة الحقيقية وليس المسؤول الحكومي، وهذا ما ندعوه الديكتاتورية الرقمية، وهنا يؤكّد الكاتب على ضرورة ضبط سيرورة تلك التقانات وانتشارها، وعدم ترك التقانة تقود الناس، بل على العكس تماماً وهذا الأمر يتطلّب كبح عربة سباق المنافس الحمقاء التي لا تتوقّف عند حدود.

ومن التحدّيات الخطيرة تحدّي الأوبئة

(الكورونا)، ويرى الكاتب أن الفشل في مواجهة الفيروس سببه مبدأ أنا ومن بعدي الطوفان؛ ولمواجهة الأوبئة، ينبغي على المجتمع الدولي اتخاذ عدّة إجراءات منها: تأسيس أنظمة صحية قوية في الدول الفقيرة، وبناء القدرات البشرية الطبية الكافية للمواجهة وإجراء محاكاة كافية لمعرفة كيفية انتشار الوباء وتشجيع ودعم البحث العلمي والتطوير في مجال كشف الفيروسات، وفي معاينة الإصابات وتطوير اللقاحات والمعالجة (ص44)، ولقد قال الكاتب «جون باينس» في كتابه أسس التعامل والأخلاق في القرن الحادي والعشرين ما يلي: «نحن أقلّ تحضّراً ووعياً مما نتظاهر به، وكذلك أقلّ عدلاً وأقلّ استقامة، ونحن في الواقع بالكاد بدأنا نتطوّر، وإحساسنا بالعظمة والقوة ينبثق من الفتوحات العلمية التي حقّقها الجنس البشري والتي لم تساهم البتّة في تحسين الطبيعة الداخلية للإنسان» (ص45)، وبالتالي فنحن بدائيون متحضّرون، أطفال يركضون عبر الحياة يعبثون بالمحطّات الفضائية والرؤوس النووية، والشعور الخادع بالقوة الذي يولّده العلم والتكنولوجيا يشلّ قدرة الفرد على النقد الذاتي ويطمسها، وبالتالي العالم دائماً في حالة صراع وحروب فأصبح السلوك الميكانيكي والمقولب هو المعيار.

9- يتحدّث الكاتب عن أهمية النمذجة والتحليل في الفصل الثاني، لمعالجة المشكلات لأنها تمكّننا من امتلاك الرؤية الذهنية للموضوع، ومعرفة قواعد الحياة والقوانين الأساسي التي تحكمها بشكل جيد، لأن الثقة بالنفس مع غياب الرؤية والمعرفة يمكن أن تؤدّي إلى كوارث، وهذا يؤدّي إلى أن نتعامل مع الموضوع المطروح بأريحية ودون خوف أو توتّر، ونتجنّب التصادم والنزاع غير المجدي مع الآخرين ونرسم حدودنا ونعلم ما المفيد والجيّد لنا، وما الضار والسيئ، وبذلك نتفادى الوقوع في الأوهام ونشعر بالقوة، لأننا نعرف حقيقة الموضوع، ونحلّ مشكلاتنا، ونلبّي حاجاتنا بطريقة سهلة وسريعة، ونملك القدرة على التنبؤ بالمستقبل والتطوّرات المستقبلية.

10- أهمية فهم قوانين الطبيعة وخاصة قانوني النسبية والقطبية، حيث قانون النسبية يؤكّد كلّ شيء نسبي في هذا الكون، فما نراه بالعين المجرّدة هو جزء من الصورة وليس كلّها، أي أن الصورة التي نتلقّاها عن هذا الشخص مرتبطة بموقع وزاوية الرؤية، وبالتالي علينا أن نحيا الوعي، وندرك واقعنا كما هو على حقيقته النسبية لا كما أخبرنا الآخرون، وهنا تبرز أهمية حكيم الصين «كونفوشيوس»: «لقد



كنتُ أحسد من عنده حذاء، إلى أن قابلت رجلاً مقطوع القدمين»، وبالتالي علينا إدراك الحقيقة القائلة: إن مفتاح السعادة هو القبول بالأمور كما هي، لا كما تعتقد أنها يجب أن تكون (ص51)، ولكن بعد هذا القبول بالأمر الواقع لا شيء يمنعنا من العمل على تحسين أوضاعنا قدر المستطاع، كما يلعب الفكر الشخصي النرجسي دوراً مهمّاً في عرقلة حل المشكلات، وهو فكر يعمل ضمن فضاء المصالح الشخصية إلى جانب الفكر الغريزي غير الواعي وهو التفكير القبيلي غير الواعي، وكذلك الفكر الوطني أو القومي والعرقي والديني... كلّها عوامل تساهم في عرقلة الحلول وتزيد من المشكلات، مع التأكيد أن الفكر الوطني والقومي هو أفضل من سابقيه من الأفكار، ولكن المشكلة تكمن في حصر تعريفنا لأنفسنا بانتمائنا لبلدنا، ينجم عن ذلك تحديد تفكيرنا واهتمامنا وهويتنا بحدود هذا البلد، وننظر إلى جميع البشر خارج مجتمعنا على أنهم غرباء، وأجانب وأناس غير مرحّب بهم (ص55).

11- يدعو الكاتب إلى الوصول إلى الإنسان الذي يتّسم بالفكر الإنساني الكوني، والذي يعمل ضمن الفضاء الدولي، حيث يقول: «أعتقد أن هذا المستوى الفكري هو الأنسب لجميع البشر على المدى البعيد» (ص55). فمن المناسب اعتماد الإنسان فكراً وسلوكاً مبنياً على مرجعية إنسانية شاملة، وبالتالي إن معالجة أي موضوع وتحديد درجة أهميته هي مسألة نسبية، وهي مرتبطة بموقع المرجعية الجملة الإحداثية، فالقرد يرى القردة التي يحبها أجمل بكثير من ملكة جمال الكون.

ويؤكّد الكاتب على ضرورة العمل على بناء الإنسان القادر على استيعاب عملية التحوّل الكبيرة ووعي أهدافها والتكيّف معها، وهذا الإنسان يتصف بالآتي: أن يكون كبيراً في عقله وقلبه ورؤيته لوجوده، وهذا يتطلّب تنمية القدرات الذهنية من خلال تطوير الوعي واليقظة الذهنية وتطوير القدرات الذهنية، البصيرة، المنطق، الخيال، التركيز، الحدس، الذاكرة، والتفكير الكبير الذي يتميّز بطموحات كبيرة ونبيلة برؤية شاملة، والتفكير العقلاني التحليلي، والتفكير وفق مرجعية الأنا الواعي، والتمتّع بالتفكير الكبير من خلال الالتزام بالتفكير الكبير الذي يبدأ بالاعتقاد بأنك كبير من خلال امتلاك عقل راجح وواع عميق، ويتميّز بقلبه الكبير الذي تملؤه المحبّة، والتمتّع بفكر منفتح شمولي، والقدرة على التجاوب والتفاعل مع المحيط، والتركيز على الأفكار الإيجابية والتفكير في القضايا المطروحة على المدى الزمني البعيد، والتحلّي بالتفكير الإبداعي الذي هو الطريق لابتكار أشياء أو حلول جديدة، وهو شكل من أشكال التفكير الكبير. والتمتّع بأكبر عدد ممكن من الحلول، وخيارات لا تخطر في بال المفكّر التقليدي، ويتميّز هذا الإنسان بأنه قادر على هزيمة الخوف من خلال الفعل والحفاظ على الثقة بالنفس، وهو إنسان ذو القلب الكبير من خلال إبداء المحبّة والتعاطف والتسامح والشعور بالسرور والسعادة، لأن المحبة هي نوع من أنواع الجمال في داخل الإنسان، وحالة الحب لا تحتاج لمساعدة أحد، وأي شيء

تحبّه يصبح جزءاً منك، وهذه المحبة تؤدّي إلى: جعل الإنسان سعيداً ومنفتحاً فكرياً ونفسياً على العالم ومتسامحاً مع الآخرين، وتفيد الإنسان صحياً، وبالتالي، السعادة تعزّز الجهاز المناعي، وكما قال الكاتب الفرنسي «ألبرت كامو»: الواجب الوحيد الذي أعرفه هو أن أحب. ويؤكّد الكاتب على ضرورة الوصول إلى الإنسان غير المنتمي، وهو أهم صفة في الإنسان الكوني الجديد، لأن اختيار الإنسان للمحبّة والفرح والسلام في حياته هو قرار ارتقاء فوق أصوله الحيوانية (ص236/238).

12- يشير الكاتب إلى التناقضات التي نعيشها على الصعيد المجتمعي والعالمي، ومنها أننا نعيش في عصر المتناقضات ومنها: تطوّر تقاني هائل، وجوع، وسوء تغذية، زيادة الإنتاجية، وتدمير للبيئة، وتلويث الطبيعة، ازدهار الاقتصاد في الدول الغنية، تراجع السعادة للناس، اتساع الهوّة بين الأغنياء والفقراء، حيث يعيش الإنسان في حالة نزاع وتناقض. وجود الخير والشر معاً في الإنسان، إنه مزيج من شيطان وملاك. ويشير الكاتب إلى قانون التناقض (القطبية)، فيرى الكاتب أن العالم يقوم على حالة التوازن بين الثنائيات المتعاكسة، فكلّ شيء في الطبيعة له عكسه مثل الليل والنهار، والفرح والحزن إلخ، حيث الإنسان كائن عظيم وتافه في آن معاً، فهو عظيم لأنه كيان معقّد وعظيم بالنسبة للكائنات الأخرى فهو يمتلك إمكانات ومزايا لا يملكها مخلوق آخر، وفي الوقت ذاته فهو تافه على المستوى الكوني، حيث كوكب الأرض لا يمثّل سوى ذرّة غبار! أي أن الإنسان هو ذرّة من الدرجة الثانية بالنسبة إلى ذرّة الغبار (الأرض).

13- يحدّد الكاتب الأسباب الرئيسة للإشكاليات الإنسانية العامّة فيراها بالآتي: سيطرة القصص الخيالية، والإنسان في خدمة النظام، ونظام المنافسة الاقتصادية العالمية. ومن القصص قصّة الأمّة وقصّة حقوق الإنسان، قصّة الشركات الكبرى، قصة العملة النقدية، وهي تلعب دوراً كبيراً في حياة الناس. فيرى الكاتب أن التمييز بين البشر على أساس العرق أو الدين أو القومية لا أساس له من الصحة، بل هو من الخيال حيث تمّ تصنيف الناس وفق تلك المعايير الواهية. لقد أصبحت القصص والكيانات الخيالية قوى ذات تأثير كبير في حياة الناس، وهذه القصص ليست بالضرورة سيئة بل بعضها جيدة وإيجابية (الايديولوجية). أما القصص التي لا علاقة لها بالواقع فهي القصص الدينية بعيدة عن المنطق وتخالف الحقائق العلمية، وقصة الإنسان في خدمة النظام هذا الأمر يسبّب القهر والمعاناة للناس لأنهم يجدون أنفسهم فيه خدماً للنظام الذي ابتدعوه. ويرى الكاتب أن المجتمعات الإنسانية تضحّي بالفرد في سبيل مصلحة المجتمع، حيث يموت الفرد دفاعاً عن الجماعة. لقد أضحى الإنسان مجرّد أدوات إنتاج يمكن التضحية به لصالح الشركات والمؤسّسات الاقتصادية، وبالتالي لا معنى لوجود الأفراد في النظام الطبيعي أو الإنساني سوى من أجل استمرار وجوده وعمله، حيث باتت الواجبات أهم من الحياة، إنها ديكتاتورية النظام المجتمعي التي تستبيح الإنسان، وتنتهك حرّيته وتستغلّه في سبيل خدمة ذلك النظام

(ص71). ويرى الكاتب أن نظام المنافسة الاقتصادية العالمية أضحى منصبّاً على تطوير التقانات الجديدة التي تؤدّي إلى طرح منتجات جديدة في الأسواق، مثل: الهواتف النقّالة وتطبيقاتها الجديدة والحواسيب والبرمجيات والتقانة النانوية وغيرها. فحالياً نشهد تركيز الاستثمارات الاقتصادية في الموضوعات العلمية على تطوير التقانات الحديثة. ولكن سوء نظام المنافسة المتوحّش؛ ذلك النظام الذي يفرض على جميع القادة السياسيين والمديرين والعاملين حول العالم التصرّف وفق لعبته أو الموت، فمثلاً التقانة النووية يمكنها أن تخدم أهدافاً مفيدة لإنقاذ حياة البشر في التطبيقات الطبية، وأن تستخدمها في صناعة القنابل النووية لقتل البشر، فعلى الرغم من وصول الإنسان إلى هذا الوضع من التقدّم العلمي الذي من المفترض أن يعيش سعيداً ومستمتعاً بنعم الحياة، فإنه ما يزال يعاني من التوتّر والتعب والإحباط بسبب حالة التذمّر وعدم الرضا الذي زجّته فيه ثقافة المنافسة التي قد تؤدّي إلى تهديد الوجود الإنساني برمّته، وتعريض الإنسانية للانقراض. وفي جميع الأحوال ستدفعه المنافسة بشدّة باتجاه زيادة الإنتاجية، ورفع النوعية، والاستمرار في التوسع والنمو، دون توقّف. واعتقد أن النهاية المتوقّعة هي انهيار النظام وتحوّل الدول والشركات إلى أنظمة ديكتاتورية، حيث سيقال للناس من أجل بقاء المجتمع ومصلحة الجميع أن يلتزموا بالتعليمات الصادرة عن الحكومة، وبالتالي سيدفع الوضع المتأزّم إلى صراعات وحروب كبرى، ومن المتوقّع أن يقوم السياسيون باستغلال ذلك للتلاعب بمشاعر وأفكار الناس من خلال تأجيج الكراهية والخوف من الآخرين المنافسين، ونعتقد أن القوى المؤثّرة في نظام المنافسة، هي قوة السوق، حيث في سبيل المنافسة المجنونة يتم حرق وتدمير الطبيعة، كما يجري استنزاف البشر وتدمير الإنسانية، إضافة قوّة التقانة (قانون مور)، حيث أصبحت التقانات تتطوّر بسرعة أكبر من قدرة البشر على التكيّف والتطوّر، ومن منعكسات ذلك رفع حدّة التنافس بين العاملين وانفتاح ساحة المنافسة وانتقالها من الساحة الوطنية إلى الساحة العالمية، وبالتالي فالعالم اليوم لا يملك مرجعية حكيمة وقوية لتنسيق وحل التحدّيات التي تواجه البشرية، وبالتالي بات من الضروري العمل على استبدال نظام المنافسة بنظام التنسيق والتعاون في إطار نظام عالمي جديد وهو حل مريح للجميع.

14- يتحدّث عن نمذجة وتحليل الإشكاليات الإنسانية على المستوى الشخصي في الفصل الثالث من الكتاب، فيلقي الكاتب الضوء على القوانين التي تحكم الطبيعة البشرية كمقدمة لبيان جذور الإشكاليات التي يعاني منها الناس على المستوى الشخصي أو الفردي، من المحدّدات الأساسية لسلوك الإنسان الألم والمتعة والخوف. أما قوّة المتعة فهي تساعد في الحفاظ على الصحة واستمرار النسل مثل: متعة الطعام، والشراب، وممارسة الجنس، متعة المحبة، متعة السلطة والتميّز، متعة التعلّم والمعرفة. ويرى أن موضوع العلاقات الاجتماعية والتواصل مع الآخرين مهمّ للغاية ويستحقّ أن يعطيه الإنسان

الأولوية في إدارة شؤون حياته، فالعلاقات الاجتماعية الجيدة هي العامل الأول في سعادة الإنسان، وأهم القوانين التي تحكم الطبيعة البشرية هي قانون النرجسية، فالأشخاص النرجسيون يتّسمون بعدم الاكتراث بالآخرين، وعدم اهتمامهم بمعرفة الدوافع السلوكية للأشخاص من حولهم، وأيضاً قانون لعب الأدوار، فالناس يحبّون الظهور بأنهم متواضعون وواثقون من أنفسهم ومجتهدون، وبأنهم يقولون الأفكار والمعلومات الصحيحة، إضافة لقانون السلوك القسري، وقانون الطمع: وقانون قصر النظر، وقانون الدفاع وقانون التخريب الذاتي، وقانون القمع، وقانون الحسد، وقانون العظمة، وقانون الصلابة بين الجنسين، قانون المطابقة وقانون التقلب، وقانون العدوانية، وقانون اللاعقلانية. ويرى الكاتب ضرورة القبول بالحقيقة العلمية. كما يحدّد الكاتب الأسباب الرئيسة للإشكاليات الإنسانية على المستوى الشخصي وهي: الجهل وضعف الوعي، التفكير الوهمي والمحدود الفكر القبلي الإقصائي.

وبغية تعزيز الشعور بالسعادة لدى الإنسان من المناسب القيام بالأعمال بالآتي: النوم الجيد، ممارسة منتظمة للتأمّل ممارسة الرياضة، التغذية الصحية، الالتزام بالإيقاع البيولوجي، وعي تجارب الحياة أثناء حدوثها. التركيز على العواطف والمشاعر الإيجابية، إن الحب هو من المحرّضات الرئيسة للسلوك الإنساني، فهذه المشاعر تحرّض دماغ الإنسان على فرز هرمونات السعادة، ويرى الكاتب أن وعينا يفيدنا في التخلّص من التعصّب والتطرّف في أفكارنا ومواقفنا.

وينبغي علينا أن نكون دائماً واعين ومدركين لمحدودية قدراتنا الذهنية ومعارفنا وحواسنا وعدم الأخذ بأن ما نطرحه من حلول أو نتبنّاه من مواقف هو بالضرورة الأفضل والكامل، وهذا يدعونا إلى التأنّي والتواضع وإلى التمعّن في وجهات نظر الآخرين، عملاً بمقولة الإمام الشافعي: «رأيُنا صواب ويحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، ومن جاء بأفضل من رأينا قبلناه»، وبالتالي ضرورة التخلّص من الفكر القبلي، وتربية أفراد المجتمع كي يكونوا أشخاصاً جيدين أو طبيعيين وفق تصنيف مجتمعي معين هي من أكبر الأخطاء في النظام التربوي والثقافي، فهذه التربية تدفع بالناس إلى الحفاظ على النمط السائد في التفكير والسلوك، وعدم المجازفة في الخروج عن مسار القطيع، كي لا يضعهم المجتمع في فئة الأشخاص غير الطبيعيين» (ص124)، ويرى الكاتب أن الشخص المنعزل اكتشاف محدودية ثقافته ومعتقداته، إلا بعد الخروج من القوقعة الفكرية الصغيرة التي يحبس نفسه فيها، تلك القوقعة التي تنتج التطرّف، وتعزّز الجهل والحقد على الآخرين، ويرى أنه من الضروري العمل على إزالة مفهوم الآخرين من تفكيرنا، بحيث ندرك أن جميع الناس على الأرض هم بشر مثلنا، ونحن جزء منهم، وجميعنا ركاب زورق واحد، وهو كوكب الأرض، وليس هناك أولئك الآخرون الغرباء الذين أتوا من كوكب آخر (ص126)، ويؤكّد على ضرورة أن يعرف الإنسان نفسه جيداً والقوانين التي تحكمه، وأن يتواضع المرء ويخفّف من استعلائه وغروره،

وأن يقبل بجهله للكثير من الأمور، وأن يدرك محدودية إمكاناته وفضائه المعرفي وصغر حجمه ودوره وتأثيره في هذا الكون الفسيح، ألّا يأخذ الأمور بجدّية بالغة، وألّا يعطي لقضاياه ومواقفه ومعتقداته كي يتفادى التطرّف والتقوقع الفكري والاجتماعي، لأن الانعزال مهما كان نوعه ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً هو بمثابة حكم الموت.

15- وفي الفصل الرابع يقدّم الكاتب حلولاً مقترحة للإشكاليات الإنسانية على المستوى العالمي، وذلك من خلال: المقاربة الفكرية الشاملة: وهي رؤية الموضوعات فكرياً، بشكل شامل على أكثر من مستوى، ومن أكثر من وجهة نظر والابتعاد عن التفكير الجزئي والأخذ بالاعتبار الأمور المتداخلة والمتكاملة بين الاختصاصات العلمية المختلفة مع مراعاة قول «فولتير» الشك ليس وضعاً مستساغاً، لكن اليقين حماقة والناس لدينا توارثوا الكثير من الأفكار والمعتقدات التي تقوم على الخيال والأوهام والخرافات بعيداً عن المرجعيات العلمية والأسس المنطقية، وبنوا عليها ثقافتهم ونظّموا مجتمعاتهم. وبالتالي فنحن بحاجة للبحث عن الحقيقة أينما كانت. وفهم مسيرة العولمة التي تؤدّي إلى استمرار بؤر التوتّر والصراعات المسلّحة حول العالم للسيطرة على الموارد الاقتصادية وغيرها، واشتداد الأزمات المالية وازدياد الهجرة غير الشرعية واللاجئين من الدول الفقيرة إلى الغنية، والتدهور البيئي، واستمرار تغيّر المُناخ.. فهناك العديد من الصراعات المسلّحة حول العالم؛ وثمّة من يموت بسبب الجوع أو سوء التغذية، وبالتالي فنحن ذاهبون إلى الهاوية، وبالتالي لا



بدّ من وعي العوامل المؤثّرة في عملية العولمة وهي علمية، وتقانية، واقتصادية، وثقافية، وسياسية، ويرى أن المنظمات الدولية وفي مقدّمتها منظمة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها، مثل منظمة اليونسكو والأسكوا تساهم في تنشيط التبادل الثقافي بين الأمم والحضارات المختلفة تعزيزاً لمبدأ «حوار الحضارات» (ص140)، وما يرفد العولمة هي النشاطات العلمية والتبادل العلمي والتعليمي النشاطات الثقافية والرياضية، ولقد تراجعت أهمية الدول والأمم، وزادت بناء جدار عازل مثل: أمريكا والكيان الصهيوني، إننا بحاجة ملحّة إلى تعاون دولي واسع وقوي مثل تغيّر المُناخ. ووضع ضوابط عالمية للهندسة الوراثية، فقدرة القادة السياسيين الحاليين على حل مشكلة المنافسة والتقانات المزعزعة محدودة جداً، فالأمر يتعلّق بالشركات الكبرى وقوانين المنافسة الدولية والمؤسسات العلمية والبحثية، لا يمكن البقاء سياسياً في إطار مغلق وطنياً، لذا يجدر بالأنظمة السياسية أن تخرج للأحزاب السياسية وتتجه نحو الانفتاح العالمي، ويمكن للأحزاب السياسية أن تطرح سياسات وحلولاً للقضايا العالمية العالقة، إضافة إلى أجندتها السياسية الوطنية. وفي حقبة العولمة يواجه السياسيون الوطنيون وهي تحدّي تآكل مفهوم السيادة الوطنية حيث انتزعت قرارات مهمّة كانت بيد الدول مثل القرارات المتعلّقة بالتضخّم، وسعر الصرف، وحجم الصادرات والواردات، وانتقلت من وزارات المالية الوطنية وتحدّي تعدّد اللاعبين على الساحة الدولية وثورة المعلومات والاتصالات والتخصّص وتنامي القطاع الخاص والتحدّي الإعلامي، حيث تسير عملية العولمة بخطا ثابتة، ومن المتوقّع أن يتّسع تيار العولمة ويكتسب زخماً أقوى في المستقبل من خلال المزيد من التقدّم العلمي، ومن التعاون والتنسيق بين المنظمات الدولية المختلفة (143). ورأى الكاتب أن غياب الوعي لدى غالبية أفراد المجتمع يؤدّي إلى تشكيل فكر جمعي ينبثق عن العقل الغريزي لهؤلاء الأفراد، فالمجتمع بحاجة ماسّة لترقية فكره وثقافته، من خلال نشر الوعي، وهو ركيزة مهمّة من ركائز النظام العالمي الجديد. ويؤكّد الكاتب أن تأسيس النظام العالمي الواحد لا يعني البتّة التخلّي عن الانتماء الوطني وفقدان الثقافة الوطنية وإلغاء الحدود، فالإنسان بطبيعته متعدّد الانتماءات، وهو قادر على المحافظة على انتمائه وإخلاصه لأسرته وعائلته ومؤسسته ودينه ووطنه. وبالتالي لإنسانيته. ويرى الكاتب أن عزل الدولة يعني انهيارها، فكلّ دولة تحتاج إلى الدول الأخرى في التبادل التجاري، من المناسب البحث عن نقاط التشابه والتلاقي وليس في نقاط الاختلاف، والتسامح والاحترام أساسيان في العلاقات بين الدول، وفي الحوار الحضاري، إننا بحاجة إلى نظام عالمي جديد يحلّ الإشكاليات المزمنة.

كما يرى الكاتب إن إدارة الاقتصاد العالمي هي أمر جاد لدرجة أنها يجب ألّا تسلم لرجال الأعمال فحسب؛ بل وللسياسيين وللحكماء من ممثلي الشعب أيضاً، وبالتالي يرى أنه من الضروري الحاجة لبناء الدولة العالمية الواحدة بغية عقلنة النظام الاقتصادي العالمي،

وبات ذلك حاجة ملحّة، ويقترح أن تتخلّى دول العالم عن جزء من حرّيتها وسيادتها ومواردها لحكومة عالمية مركزية من خلال عقد سياسي دولي، وذلك في سبيل تحقيق هذه الدول لمصالحها وتلبية احتياجاتها. وهنا يجيب عن سؤال ألا تخشى من تسلّط رئيس الدولة العالمية واستبداده؟ فيقول: النظام العالمي الجديد المقترح لن يكون نظاماً مركزياً صرفاً، بل ستحافظ كل دولة على استقلالية كبيرة وسلطات واسعة جداً في إدارة شؤونها الداخلية (ص154)، لكن سلطة الدولة المركزية تراقب عمل جميع أجهزة الدولة التنفيذية بمستوياتها كافةً، وتحرص على التزامها بالدستور والقوانين التي أقرّها سكّان الأرض.. إنها فكرة جميلة على الأقل نظرياً، لكن عملياً كيف سيحكم القانون بدل القوة؟ يجيب الكاتب: سيجري وضع دستور عالمي يتضمّن المبادئ الأساسية للنظام العالمي الجديد، وفق هذا الدستور ستحظى الحكومة المركزية بسلطة القوانين العالمية والمؤسسات القانونية التي تحكمها، وستدعم سلطة الحكومة المركزية قوة عسكرية مؤلفة من ولايات مختلفة، وتستطيع الحكومة المركزية استخدام هذه القوة في الحالات الطارئة، وسيكون هناك حكومات وطنية في كلّ بلد أو ولاية، وهذه الحكومات ستكون منتخبة بشكل ديموقراطي من سكان الولاية، أي أن الحكومة المركزية لا تتدخّل في تشكيل الحكومات المحلّية، وسيمثّل الولايات نوابٌ في مجلس النواب العالمي وأعضاء مجلس الشيوخ العالمي (ص155)، ويجري انتخاب رئيس الدولة والوزراء في الحكومة المركزية، سيتم ترشيح الأشخاص المناسبين لشغل المناصب القيادية المركزية المختلفة من قبل الولايات، وستكون الحكومة المركزية حكومة تكنوقراط، ويتواصل رئيس الولايات المتحدة والفريق الحكومي المركزي مع رؤساء الولايات وممثليها (ص156)، أمّا بشأن الاقتصاد، كما نعلم مشكلة الثروة والنزاعات المادية تنشأ من عاملين أساسيين هما: الجشع والأنانية وقلّة الموارد ومع الوفرة يفقد مفهوم الثروة الشخصية وتراكم الثروة معناه. ويؤكّد في الوقت نفسه أن هذا المشروع سيواجه عوائق ومشكلات عديدة، منها: إن شعوب الدول الغنية لن تقبل بإعطاء شيء من ثرواتها إلى الشعوب الفقيرة الأخرى، وإن الناس المتميّزين بالثروة والسلطة والثقافة، لن يقبلوا التنازل عن ميزاتهم للآخرين دون مقابل (ص159). والسؤال ما المقابل؟ ليس هناك حاجة شديدة لإعادة توزيع الثروة، لأن الهدف المنشود ليس بالضرورة أن يصبح جميع سكان الأرض من مستوى معيشي واحد، بل المطلوب تخفيف الهوّة بين الفقراء والأغنياء على مستوى الدول وبين أفراد الدولة الواحدة واستغلال الدول الغنية للدول الفقيرة سيزول بفضل الحكومة العالمية المركزية، والفساد والظلم في الدول ذات الأنظمة الاستبدادية بأشكالها المختلفة سيتلاشى، والحكومة المركزية ستعمل على مساعدة الدول الفقيرة من خلال التأهيل والتدريب، وهذا يتطلّب بناء تنظيم واحد على مستوى الكوكب، يكون لجميع سكان الأرض الحقوق والواجبات نفسها، ويسود التعاون والاحترام والانخراط في

قضايا البيئة، والتفاعل الجيد معها، والاهتمام بالفلك، وفهم ما يجري من حولنا (ص161)، وإعطاء الأولوية لدى الناس للصحّة والتغذية والرياضة وإطالة العمر وتحديد النسل وتنمية الوعي والقدرات الذهنية ولبحوث الذرّة ومكوّناتها وقضاء الوقت في أجواء من السعادة والاحتفال بالحياة... هذه التصوّرات هي حلم نتمنّى تحقيقه.

15- يتحدّث الكاتب عن مزايا النظام العالمي الجديد: والتي يحدّدها بالآتي:

تجاوز العديد من الإشكاليات العويصة التي تواجه البشر من خلال الهويّة الإنسانية العالمية، لتفادي النزاعات والحروب بين البشر، فالإحساس بالانتماء إلى الطبيعة والكون وليس إلى انتماءات محدودة هو الأساس في مفهوم الإنسان الكوني (ص164)، ونبذ الشر والتعدّي على الآخر أو ظلمه وكسر حالة العنف بين الدول وضبط النزاعات وحلّها بالطرق السلمية، ولا داعي لتشكيل الجيوش الوطنية الجرّارة، ووزارات الدفاع، ولا حاجة لتطوير أسلحة فتّاكة؛ بل فقط لشرطة حفظ النظام، وقوة سلام دولية، وسيزيل خطر انقراض الجنس البشري، واندثار الأنظمة الاستبدادية، وسيساهم في خلاص البشرية من الثالوث الأسود: الجهل والفقر والمرض، ولا حاجة لوزارات الخارجية ولا السفارات وجوازات السفر، وسيتوقّف تهريب البضائع والهجرة غير الشرعية، هذا الأمر صعب المنال والتحقّق! لكنه ليس مستحيلاً، فالحضارة الإنسانية تقوم على الإنسان المتميّز ذي العقل والقلب الكبيرين (ص167).

16- أما الفصل الخامس فهو بعنوان حلول مقترحة للإشكاليات على المستوى الشخصي، ويرى المؤلف أنه لكي ننجح في تأسيس نظام عالمي جديد لا بدّ من العمل على تطوير الإنسان نفسه، من خلال رفع مستوى وعيه، وتعظيم قدراته الذهنية والنفسية والصحية، لأن الوعي هو أحد الركائز الأساسية التي تميّز الإنسان عن الحيوان، وهو يفتح لنا أبواباً جديدة تتيح الدخول إلى فضاءات واسعة، والوعي العالي هو بمثابة المنارة التي تدلّنا على المسار المناسب لتفادي الاصطدام بالعوائق ومواجهة الظروف الصعبة والتكيّف مع المتغيّرات السريعة التي تطرأ في حياتنا. فهو كالمصباح الذي ينير في الليل، وكلّما ارتفعت درجة الوعي اتّسعت مساحة الدائرة المضاءة أو حجم الفضاء المضاء، وبالتالي اتّسعت مساحة الاستيعاب والإدراك العميق للظروف والأفكار والمشاعر. ويرى المؤلّف أن الثقافة تؤدّي دوراً مهمّاً للغاية في توسيع دائرة الوعي، لكونها توسّع المنطقة المضاءة في فكرنا، وتزيد من قدراتنا على فهم الأمور بعمق ورويّة، وأن أخطر مظاهر الجهل عند الناس هو غياب الوعي لحقيقة وجودهم وطبيعة العالم الذي يعيشون فيه، وهذا يؤدّي لتقليص العقل الغريزي المبرمج الذي يعمل وفق غريزة البقاء على قيد الحياة، ويدفع الناس إلى مقارنة أنفسهم بالآخرين ويقود صاحبه إلى المواجهة والنزاع مع الآخرين، والوعي يرفع من الأنا الواعي الذي يراقب الأفكار السلبية الصادرة عن العقل الغريزي المبرمج. وترك تلك الأفكار هو جزء من عقل الإنسان وكيان حر وفضاء رحب من الإبداع

والخيال والحرية والحب والمتعة والفرح، وهو لا يخضع للزمان والمكان والتعويل على الأنا الواعي يقدّم مزايا مهمّة منها: يحرّر الإنسان من قيود العقل الغريزي ومتطلّباته، ويطلق له العنان للارتقاء فوق غريزته، كي يجعله راضياً وسعيداً في حياته، وفي الإقلاع عن العادات السيئة، ويرسم في ذهن المرء صورة الشخص المثالي الذي يحب أن يكونه، ويتيح للإنسان التمتّع بحالة من السكينة والطمأنينة والسلام الداخلي، والتصرّف وفق الأنا الواعي ينطلق من موضوعية ومحبّة وحكمة لا من مصالح ومتطلّبات وبالتالي إن سيطرة الإنسان على نفسه شرط أساسي للعيش بسعادة، ويرى المؤلف أن السعادة الحقيقة لا تعني بالضرورة الحصول على ما لا نملك، إن الإحساس بالحياة هو بحدّ ذاته ينبوع سعادة لا ينضب، وبالتالي مستوى الذكاء يرتفع عندما تكون سعيداً وإن مجرّد وعي قيمة الحياة هو بحدّ ذاته مصدر عظيم للسعادة. وبالتالي يقترح المؤلف تطوير النظام التربوي والتعليمي بحيث يتمّ تأهيل الطالب وإعداده كي يعيش حياته بكاملها وبالطريقة المثلى وكي يعي قيمة وجوده في هذه الحياة، ممّا يمنحه السلام الداخلي والسعادة الدائمة. وللاستمتاع بالحياة لا بدّ من مراجعة النفس في نهاية كل يوم، وأن نضع قبل النوم كلّ ما هو غير الإنسان مثل المال والعمل، وعند الاستيقاظ صباحاً ابتسم وكن مسروراً لكونك ما زلت حيّاً، وكن واعياً أن حياتك هي من صنعك، وسعادتك هي من صُنعك، وخصّص خمس دقائق حبّ كلّ يوم على الأقل، وأثناء تعاملك مع الناس ينبغي أن ترى في الناس حسناتهم، كما أكّد على ضرورة الانفصال عن الأدوار، بحيث نتخلّى عن تعريف أنفسنا بأشياء لسنا هي وعدم التفريق بين الناس وأن نحيا بوعي وندرك واقعنا كما هو على حقيقته ونتعلّم كيف نسمو فوق الواقع ونتجاوز الهويات المحدودة، والتحلّي بالوعي لتلك الواجبات والأدوار، والمتعة بمساعدة الآخرين، والتخلّص من الإسهال الفكري، ونتعلّم العيش في الحاضر والتحلّي بالوعي العالي والحكمة لأن الحياة في لحظاتها كلّها هي رحلة، ويجب أن نستمتع بكلّ لحظة فيها، ونتخلّص من النموذج المزدوج في التفكير، ونتمتّع بمستوى التفكير الشامل أو الاستراتيجي والذي يقوم على تحديد التوجّهات العامّة المهمّة في الحياة، وهذا يتطلّب التفكير بعمق من منظور واسع واستيعاب مفاهيم الوجود وقوانين الطبيعة العامّة وتبنّي منطلقات وأهداف إستراتيجية للحياة والتحرّر الفكري والنفسي، ووعي الواقع، من منظور وجودي واسع وتلافي الغرق في قضايا المجتمع وهمومه الكثيرة، والنظر إلى الحياة بمجملها والاندماج والانسجام مع الطبيعة وأخذ مسافة من العقل الغريزي المبرمج والتحلّي بالصفات الشخصية الإيجابية، مرونة، تروّ، تسامح، محبّة وعي، قناعة، حكمة، ويمكن للإنسان أن يتعامل مع الحياة وفق الأسس الآتية» التفكير ومعالجة الأمور ببساطة والانخراط في موضوعات وشؤون يومية والدخول في تفاصيلها والانخراط في الأعمال اللازمة لتأمين الحاجات المادّية الشخصية، والاندماج بالعمل والأحداث، والتعاطي مع قضايا المجتمع بشكل إيجابي، وعيش اللحظة

بسعادة، الاستمتاع بالعمل، وبجميع النعم المتاحة، والتعامل مع الناس بواقعية إيجابية، والتحلّي بالصفات العملية المناسبة للواقع، نشاط وجدّية في العمل، نقد ومحاسبة المسيء لكن دون توتّر أو غضب.

في الختام، لا بدّ من القول: إن ما يقدّمه هذا الكتاب هو إسهام للخروج من ذلك المأزق الحضاري الخطير الذي باتت تعانيه البشرية اليوم، وهو محاولة لرسم الملامح الأولية لنظام عالمي جديد يخلو من سلبيات النظام الحالي، ويرفع من قيمة الإنسان ليغدو القيمة الأولى والغاية الأسمى، وخلق بيئة صحّية جديدة تسمح للإنسان أن يعيش حياة ملؤها السلام والمحبّة والحرية وتجعل السعادة رفيقه الدائم.

إن التصوّر المطروح سيتعرّض للنقد والتشكيك، وربّما الرفض القاطع بحجّة صعوبة تأسيس النظام العالمي المقترح، إن ما يعرضه الكتاب هو نوع من الخيال العلمي وأفكار مثالية لا علاقة لها بواقعهم على الإطلاق، لهذا السبب ينبغي التحلّي بالصبر والإصرار على التغيير، والتفاؤل على أمل أن يرى النظام العالمي الجديد النور قريباً والتفاؤل، وكما يقول «ونستون تشرشل»: «المتشائم يرى صعوبة في كلّ فرصة، بينما يرى المتفائل فرصة في كلّ صعوبة».

لقد عرض الكتاب توصيفاً لبعض الإشكالات والتحدّيات الخطرة التي تواجهها البشرية وتهدّد وجودها وكينونتها، ثم تطرّق لبعض جوانب النمذجة والتحليل لهذا الواقع المأساوي على المستويين العالمي والفردي. وبعد التوصيف والتحليل، جرى تقديم بعض التصوّرات والمقترحات لعلّها تفيد في التخلّص



من تلك الإشكالات العويصة، والمحن القاسية، ثم طرح الكاتب عدداً من المقترحات المهمّة التي تتعلّق ببناء الإنسان، وإدارة إمكاناته الشخصية وتنظيمها على مستوى العقل والوعي والمشاعر، وتوصّل الكاتب إلى العديد من الاستنتاجات من أهمها:

ثمّة تناقض قوي في العالم المعاصر، بين التقدّم العلمي والتقاني الهائل والوضع الإنساني المتخلّف، والمستوى الأخلاقي المتدهور والبائس والذي يعود إلى انتشار الجهل، وغياب الوعي. إن البشرية تسير بخطا حثيثة نحو الهاوية، فهناك أخطار متعدّدة تهدّد بانقراض الجنس البشري، ولا أحد يحرّك ساكناً لتفادي تلك الكارثة. يؤكد المؤلف أن المقاربة المطروحة تعاني من صعوبة الوصول إلى تلك الظروف والعوامل التي تجعل الحل ممكناً وناجحاً على أرض الواقع، ولهذا السبب نحن بحاجة لعشرات السنين كي نستطيع بناء ذلك الكيان العالمي الموحّد بشكل تدريجي، وهذا يرتبط بأداء الناس، لذا ينبغي توعيتهم وإقناعهم بأن النظام العالمي الحالي غير مقبول في هذا السياق، وبالتالي يجب العمل على هندسة الحياة لا على هندسة الموت، كما يفعل الكثيرون من القادة السياسيين حول العالم، والاهتمام بنشر المعرفة والوعي لا الجهل والترّهات، والتركيز على الاستمتاع بالحياة والسلام الداخلي والمحبّة، لا على الحقد والحروب، ويؤكّد الكاتب إننا نحتاج إلى تغيير فكرنا وطريقة عيشنا.

إن هذا الكتاب يعدُ فتحاً جديداً في تحدّي الأحلام المستحيلة، فرغم صعوبة الواقع الدولي، فلا مانع من الحلم بزوال القوى المتوحّشة واضمحلالها، وبدأنا نلمح نهوض شعوب باتت تملك قوّة ضاربة بدأت تهزّ عرش القوى الإمبريالية الصهيونية وتبشّر بعالم جديد ونظام دولي جديد، وهو حلم مشروع يستند إلى خيال واسع مرتبط بالواقع من خلال اعتماد حوار مع شخص متخيّل، فيطرح أفكاره ومقترحاته لهذا النظام الدولي الجديد الذي يحتاج إلى إنسان جديد كوني، رسم الكاتب ملامحه وخصائصه، ويعلّمنا تاريخ البشرية كم كانت الكثير من الأفكار مستحيلة التحقّق وتحقّقت، واستطاع العقل البشري صنع الكثير من المعجزات التي كانت محض خيال. إنه عمل يستحق التقدير، كونه تمتّع بكلّ مقوّمات عمل الخيال العلمي، وخاصة العلم المنطقي الذي ليس بالضرورة واقعي، وعلى الفكرة الجديدة وليس الشخصية.

جهد كبير بذله الباحث المؤلف، يستحق الشكر عليه، فالإنسان لا يسعى للتقوقع إذا كان سيعيش في عالم خالٍ من الاستغلال، والاستعباد، ويؤمّن له سعادته وراحته، ويحافظ على كرامته. إن ما نطمح إليه في نهاية المطاف هو بناء عالم ينعم فيه جميع البشر دون استثناء بالحرية التي تتيح لهم إطلاق كامل طاقاتهم في الحياة، ونيل ما ينشدون من السلام والسعادة، هذا هو جوهر الكتاب وغايته، نتمنّى أن يساعد هذا الكتاب في توعية الناس، للوصول إلى تأسيس حضارة الإنسان، حضارة المحبّة والسعادة والسلام بين جميع أهل الأرض، لأن هذه الحياة لا تستحق سوى أن تُعاش بسلام وسعادة.

الشهب والنيازك

رئيس التحرير

يندر أن لا يرى أحدنا ، في ليلة صافية خلت من الغيوم شهاباً يسقط ملتهباً من السماء مخترقاً غلاف كرتنا الأرضية كسهم ناري متوهج ..

ولو حدقنا بتلسكوب لرأينا كثيراً من هذه الشهب ، تطالعنا بوهجها وخط سيرها البارق اللامع ، وتصل هذه الشهب في بعض الأحيان إلى الأرض على شكل كتل صخرية داكنة ، تسمى « نيازك» ..

وكلمة نيزك أو نيزة معناها بالفارسية رمح قصير أو سهم ومن هنا أتت التسمية . فما هي هذه الشهب والنيازك ؟ ومن أين أتت ؟ ..

تناقلت الأخبار منذ الأزل ، الحديث عن هذه الأجسام المتساقطة ، حتى أن العلماء في القرن التاسع عشر نفوا وجودها كنيازك لكثرة ما ذكر عنها من خرافات ، ولكن حدث في ذلك الحين، والعلماء بين أخذ ورد .. أن سقط نيزك هائل في إحدى المدن الفرنسية ، فأحدث سقوطه بلبلة في الأوساط العلمية..

اجتمع المجمع العلمي في باريس عندها وقرر أن يبحث في حقيقة هذه الأجسام .. ويبين ماهيتها ومصدرها .. ومنذ ذلك الحين ، والأبحاث تتوالى ، والدراسات تتتابع لحل الغموض المتراكم في هذه القضية ...

في التاريخ الصيني ذكر أنه في عام 616 قبل الميلاد ، سقط نيزك هائل .. قتل عدة أشخاص وحطم بعض العربات ، وفي القرن العاشر الميلادي سقطت نيازك نارية أحرقت عدة بيوت وسببت مختلف الأضرار ..

وفي شهر تشرين الثاني من آخر أعوام القرن التاسع عشر سقط نيزك كبير انفجر في الجو، وأحرق المحاصيل ، وأهلك بعض القطعان ، وذلك قرب قلعة (الوزير) المعروفة ...

وفي 25 نيسان عام 1905 انهالت على الأرض سيول من الشهب ، أحدثت عند الناس ردود أفعال مختلفة ، تشاءم أناس وريع آخرون وانهار بعضهم خوفاً .

وفي أغسطس –آب عام 1860 انقض نيزك هائل فوق الولايات المتحدة ، استمر انقضاضه عدة ثواني قطع ما يزيد على الـ/240/ ميل وقد شاهده أهالي المدن الأمريكية ، قبل أن يسقط مضمحلاً في منطقة ما ..

كان سقوط النيازك في بعض الأحيان ، يرى كمشاعل هائلة إذ اقتربت من الأرض أحدثت مختلف الأضرار ، وأحياناً كانت تسقط مع دوي رهيب كعصف الرعود ، كما حدث عام 1846 في مقاطعة «هوت غارون» في فرنسا ، حيث أحرق النيزك المحاصيل وأهلك بعض الأغنام ..

ويعتبر النيزك الذي سقط في سبيريا من أكبر النيازك المعروفة فقد سمع حين سقوطه دوي هائل استمر عدة دقائق أحدث عطباً في الأبنية ، حتى الأماكن البعيدة عن مكان سقوطه

بمقدار /100/ ميل..

رفعت حرارته الهائلة الناتجة عن احتكاكه ، حرارة الهواء .. مما أدى لوقوع الحرائق واشتعال النيران في عدة أمكنة وسجلت آلات الزلازل الأرضية ، الهزات التي أحدثها سقوط النيزك وكانت بعض هذه الآلات تبعد عن مكان سقوطه بمقدار /3000/ ميل .

واقعة أخرى حدثت عان 1832 ، بينما كان بعض العمال يتعاونون في بناء جسر على أحد الأنهار الفرنسية شاهدوا الشهب تنقض لامعة متوهجة ..

أعجبهم المنظر في بداية الأمر ، ولكن الشهب ازدادت حتى تملكهم الرعب وتركوا الجسر ولاذوا بالفرار ، قال بعضهم أ،÷ا تشبه كرات حديدية ملتهبة حمراء ، وقال آخرون أنها أسهم نارية ..

وفي يوم وفاة الخليفة ابراهيم بن محمد انقضت الشهب بشكل غزير ومتكاثف على الأرض لدرجة أن السماء أنيرت بها ، خيل للناس أن السماء تبكي نجوماً ، حزناً على الخليفة الراحل .

وفي عام 1620 سقط نيزك هائل في البنجاب ، صنعوا من حديده ومواده الأخرى سيفاً بتاراً للإمبراطور (جهانكير) .. كان الناس يلقبونه بسيف الصاعقة ..

وهذه الأجسام عبارة عن كتل من مادة كانت تسير حول الشمس بسرعة ثابته ثم اقتربت من الأرض فجذبتها نحوها ودخلت في جوها ..

والسرعة الهائلة البالغة أكثر من /25/ ميلاً في الثانية تولد من احتكاكها الشديد بالغلاف الجوي الأرضي حرارة عظيمة ، فإذا كانت صغيرة تذيبها الحرارة ، فتتوهج بارقة قبل أن تختفي مضمحلة ..

أما إذا كانت الكتل كبيرة فيبقى جزء من مادتها أثناء اختراقها جو الأرض .. والمادة المنصهرة من الأجسام تظهر في خد سيرها كشرر ناري ، قد يستمر بضع دقائق ، ولم يستطع العلماء تفسير بقائه هذه المدة الكبيرة نسبياً هل بسبب وجود الفوسفور ؟ أم لشيء آخر .. ؟

والنيزك الساقط ذو سطح خارجي ساخن أما في الداخل فبارد لأن حرارة الاحتكاك لم تصله، وقد يتفتت النيزك عند سقوطه إلى قطع ملتهبة قد تصل الأرض وقد لا تصل ، أما إذا لم ينفجر فإنه يخترق سطح الأرض ويفور فيه .

وأغلب الشهب والنيازك مكونة من الصخور والمعادن المختلفة ، كالكبريت والقصدير والسيلكون والمغنسيوم ، والحديد بنسبة كبيرة ، كما تحوي على الأوكسجين ومواد أخرى ..

وعندما يسخن النيزك ، فإنه يطلق الهيدروجين والآزوت وأول أوكسيد الكربون والهيدروجين والهيدروكربون وغيره ..

تتحرك هذه الأجسام بسرعة تصل إلى /45/ ميلاً في الثانية وهي سرعة تكفي لإخراج أي جسم خارج المجموعة الشمسية ..

وتعادل قوة انطلاق بعض الشهب الصغيرة قوة انطلاق رصاصة بندقية عادية . وقد لا يزال حجمها عن حجم حبة رمل ،ومع ذلك فإن هذا الجحيم الضئيل إذا أصاب الإنسان يفعل مفعول رصاصة .

آلاف الملايين من الشهب تهوي على الأرض كل ليلة تحترق وتتبخر وتضمحل وبعضها صغير جداً ، أصغر من أن يكشفها ضوء الشمس الساقط عليها ..

تنتهي دورة هذه الآلاف المؤلفة من الشهب عند دخولها مجال جاذبية الأرض بسرعة تتراوح بين 50.10 ميلاً في الثانية .

أما عن منظر الشهب ، فهو رائع وجميل إذ تبدو متوهجة كخطوط ضوئية تظهر عند ارتفاعها عن الأرض بمقدار /60/ ميلاً وتختفي غالباً قبل أن يتجاوز ارتفاعها /40/ ميلاً ..

وسقوط النيازك أمر نادر والأندر سقوطها بحجم كبير .. قد يصل وزنها أحياناً إلى 136 طناً (كما في حالة نيزك سيبيريا ـ 1908)..

وقد يحدث أن يصطدم في جو الأرض نيزك يتوهج حتى في ضوء النهار ويخترق عدة بلدان وهو مشتعل ، وأكثر الأحيان ينفجر في الجو أو حين اصطدامه بالأرض .. كما في حالة النيزك الذي سقط في (أريزونا) بأمريكا ..

فقد أحدث هذا النيزك هوة قطرها ميل وعمقها /200/ متر .. نتج من شدة اصطدامه أن انفجر وتطايرت أجزاؤه بشكل شهب وصل بعضها إلى مسافة نائية ..

ولم يصطدم بالأرض حتى الآن سوى نيازك قليلة خلال /100/ ألف سنة ، وتعتبر الشهب والنيازك من أكبر مصادر الأخطار في أثناء الرحلات إلى الفضاء الخارجي ..

وعن مصدر هذه الأجسام قال بعضهم أن الشهب والنيازك تقذف من براكين القمر بسرعة تزيد على قوة جذب الأرض ، ثم تجذبها الأرض فتتساقط تباعاً فرادى وجماعات ..

ولم يقنع هذا الرأي الفلكيين ولا الرأي الذي يقول أن الشهب عبارة عن أبخرة متصاعدة متجمعة ، عندما يزداد ثقلها تجذبها الأرض ..

ومما لا شك فيه أن الشهب والنيازك أجسام تأتي من الفضاء الخارجي يستقبلها سطح الأرض كما يستقبلها سطح القمر ، أو أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية ، أو ربما كانت آتية من خارج المجموعة الشمسية كضيف غريب ، أو لعلها أجزاء من مذنب تفتت ؟

في ليلة من ليالي شهر آب يزداد عدد الشهب ، وسبب ذلك هو أن الأرض في هذه الفترة تخترق مدار مذنب تفتت وبقيت أشلاؤه المبعثرة على مساره تتساقط عندما تمر الأرض في هذا المسار، بفعل الجاذبية . ومنها ما يأتي بشكل دوري مرة كل ثلاثة وثلاثين عاماً .

وقد تكون هذه الشهب والنيازك أجزاء من الكوكب المنفجر بين المريخ والمشتري ..

في اليوم الواحد يسقط على الأرض منها .. ملايين .. بعضها لا يرى سوى بالمناظير التي تكشف بقوة 40 ضعفاً لقوة العين المجردة ..

يتراوح وزن الشهب بين غرام و/100/ غرام .. أما النيازك فوزنها أكبر من ذلك ، قد يصل إلى عدة أطنان ، ففي المتحف الأمريكي نيزك وزنه /5, 36/ طناً وحجمه /385/ قدماً مكعباً .

ويقدر وزن الشهب التي تنزل على الأرض كل يوم ب/40/ ألف طن .. ومما لا شك فيه أن لها بعض التأثير في حركة الأرض ..

ولكنه تأثير يضيع مع كبر الزمن ، إذ أنه بعد /1000/ مليون سنة تكتسي الأرض بطبقة من هذه الأجسام سمكها /5,2/ سنتمتراً ، وهذه الطبقة تؤثر في الأرض بإنقاص طول السنة ، وكل مليون سنة ، بمقدار جزء من ألف جزء من الثانية ، وهذا تأثير ضئيل لا يذكر ..

في نحو العشرين من آذار عام 1986 م ومذنب هالي بأقرب نقطة من مداره في ذلك الحين إلى الأرض، وكان البعد بينهما نحو (63) مليون كيلومتر..

فإن يبدو في المساء صغيراً خلفه ذيل قصير، وذلك في نصف الكرة الشمالي..

أما في نصف الكرة الجنوبي، فكان يبدو مع ساعات الفجر الأولى.. إنه جسم فضائي يدور حول الشمس في مدار يقارب (76) عاماً..

وكان قد ظهر عام 1910 في بداية هذا القرن، فهو لايخلف مواعيده أبداً..

يتكون المذنب من نواة ثقيلة وتجمعات من الغبار والثلج حولها.. ويعتقد بعض العلماء أن المذنبات ليست سوى شظايا جليدية نتجت عن انفجار كوكب (منيتون) الذي كان بين المريخ والمشتري..

ولانعرف حتى الآن، إن كانت المذنبات تحوي الفطور والفيروسات والجراثيم، رغم أن بعض الفرضيات تقول أن المذنبات تحمل المواد الحية وهي في طريقها في الفضاء..

وقد أجريت مؤخراً تجارب على المذنبات، فقد فرغت غرفة وضعت فيها ثلاجة، لدراسة جو المذنب، ومن خلال التجارب اكتشف الباحثون بعد تبخر الجليد من نواة المذنب التي أدخلت فيها مواد عضوية.. أن ظاهرة غريبة تحصل بين الغرفة المفرغة والعمل الحيوي فيها، الذي يحوي الفطور والجراثيم والفيروسات..

فقد ظهرت على الغرفة المفرغة بقايا جافة تتكون من خيوط رفيعة للغاية ومتوازية.. ولدى دراستها تبين أنها شعيرات من الجليد تتوضع عليها جزئيات حية متماسكة بسلاسلها..

ونظراً لعدم استقرار حركة هذه المذنبات، فإن مساراتها أحياناً ليست ثابتة، فيكفي للمذنب أن يمر قرب المشتري أو زحل أو أورانوس أو نبتون حتى ينحرف عن مساره..

ومن الطرق الممكنة لتوجيه التابع الفضائي الصنعي نحو المذنب المطلوب.. التصوير المتتابع لهذا المذنب.. بقدر اقتراب التابع إليه ومقارنة الصور ودراستها مع صور النجوم والمعطيات الفلكية..

إن حجم المذنبات صغير جداً، بحيث لايمكن ملاحظتها عن بعد ، فعلى مسافات كبيرة تبقى مختفية في ظلام الكون..

وما أن تقترب من الشمس حتى تظهر الأجسام المضيئة من الثلج والغبار.. وهي تحيط بالنواة التي لاترى لكونها أيضاً محاطة بنواتج تبخرها..

ويحكم العلماء على تركيب النواة من غلافها السديمي ومادة هذا الغلاف هي نفس مادة النواة.. إن الإشعاع الشمسي والأشعة الكونية تعمل على تحطيم الجزئيات التي تخرج من نواة المذنب..

وانشطار المادة الأم سريعاً للاندماج فيما بينها تجعل المركبات الكيميائية تتولد في جو متأين..
ويبلغ قطر الغلاف المتكون من الغاز والغبار الذي يحيط بالنواة، نحو مليون كيلو متر.
قد تقع الكثير من المذنبات في أسر الكواكب العملاقة وغالباً ماتتفتت هذه المذنبات عندها. وقد حدث لمذنب شومايكر قبل أعوام أن تفتت وتناثرت أجزاء منه في كوكب المشتري..
ولأن المشتري كوكب سائل غازي، سقطت فيه النيازك والشهب وبقايا المذنب الأخرى. فابتلعها، دون أن تؤثر عليه.. رغم أن بعضها حفر حفراً كبيرة قد تبتلع إحداها الكرة الأرضية بكاملها.
لقد افترض العلماء أن المذنبات تساهم في نقل المواد الحية الدقيقة، من مكان لآخر في الفضاء، وحين تصطدم بعض هذه المكونات بكوكب له مناخ مناسب كالأرض مثلاً، فإنها تتكاثر وتتوالد\ متطورة في جو مناسب لتطورها.. من النادر أن لايرى الإنسان في ليلة من ليالي شهر آب الصافية، شهاباً يندفع باتجاه الأرض قبل أن يخبو نوره وينعدم..
إنه يبدو كسهم ناري متوهج يندفع في جو الأرض لمسافة طويلة أحياناً قبل أن ينطفئ..
وتختلف المسافة التي يقطعها وهو مشتعل حسب حجمه فكلما كان كبيراً كانت المسافة أكبر..
وأحياناً ترى الشهب في شهر كانون الثاني من الأول حتى السادس منه وتسمى بالربعيات وفي نيسان مابين (19-24) ترى شهب تسمى بالقيثاريات نظراً لتتابعها في انتظام في خطوط أشبه بالقيثارة المضيئة.. وبين الأول والثامن من أيار ترى أحياناً شهب هي البقايا التي جرفها مذنب عند مجيئه ورحيله، وهي تقل كلما كبر الزمن الذي يفصلنا عن زيارة هالي ورحيله..
ولكن الشهب الأكثر رؤية هي التي تظهر مابين (25) تموز و(18) آب من كل عام وهي (الفرساويات) وهي ترى بشكل متتابع أحياناً، والسماء صافية في ليلة صيفية حارة..
وقد ترى شهب في تشرين أول أيام (10-11-19-30) منه، كما يندفع سيل من الشهب في تشرين الثاني في السادس عشر والسابع عشر منه وفي السابع والعشرين أيضاً..
وشهب منتصف تشرين الثاني تأتي من بقايا المذنب (تابل ساتل) الذي اندثر وتفتت وكان يقترب من الأرض كل نحو (33) عاماً.. وفي موعد زيارته تندفع ملايين الشهب والنيازك نحو الأرض في دفق مستمر من وابل الجسيمات الصغيرة التي تبدو أشبه بقصف جوي للأرض بالأسهم النارية المتابعة.. وتمر الأرض ببقايا هذا المذنب كل عام في منتصف تشرين الثاني، وتكون هذه البقايا كثيرة ومتدفقة كل (33) عاماً، موعد ظهور المذنب المندثر..
قد تؤثر الشهب والنيازك على الأقمار الصناعية نظراً لسرعة حركتها البالغة نحو (70) كيلو متراً في الثانية، وبهذه السرعة يمكن أن تتأثر الأقمار الصناعية من اصطدام الجسيمات الصغيرة ولو كانت بحجوم حبة الرمل..
هذه هي بعض المعلومات عن هذه الأجسام المتساقطة بكثرة فوق كوكب الأرض، توصل إليها العلماء بعد بحوث دقيقة، والعقل يغني هذه الاكتشافات كل يوم..
إن عالمنا ما يزال مجهولاً. ومما لا شك فيه أن أبحاث الفضاء الميدانية ستنكب على الشهب والنيازك فتخرجها من إطار التساؤل إلى إطار البديهيات..